

المركز القومى للترجمة

أندريه ميكيل

وجبة المساء

(يوميات دبلوماسي فرنسي في سجن مصرى)

ترجمة: رشا صالح

2687

سلسلة الإبداع القصصى

وجبة المساء هو العنوان الذي اختاره " أندريه ميكيل" Andre Miquel أبرز وجه في الاستشراق الفرنسي المعاصر، ليطلقه على يومياته عن الفترة التي قضاها في السجن بالقاهرة، بين ثكنات احتجاز مباحث أمن الدولة، ومقر سجن الاستئناف المجاور لمديرية أمن القاهرة بميدان باب الخلق على مدى مائة وخمسة وثلاثين يوما، امتدت بين خريف 1961، وربيع 1962، مرورا بالاستجوابات الشاقة، وما تتطلبه في عرف بعض القائمين عليها من ألوان الضغط والمعاملة القاسية، ووصولا إلى الإقامة في سجن، يخصص جانب منه للمحكوم عليهم بالإعدام، أصحاب الملابس الحمراء، وجانب آخر للمسجونين العابرين، أصحاب الملابس الخضراء من مثيري الشغب والسارقين وأضرابهم، وجانب ثالث للجواسيس الذين أدرج بينهم أندريه ميكيل ورفاقه الدبلوماسيين الفرنسيين في القاهرة، المتمتعين نظريا بالحصانة الدبلوماسية الدولية، والذين تمت معاملتهم فعليا بتهم غير محددة، غامضة.

تصميم الغلاف: هانى الشناوى

وجبـة المسـاء

(يوميات دبلوماسى فرنسى فى سجن مصرى)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2687
- وجبة المساء (يوميات دبلوماسى فرنسى فى سجن مصرى)
- أندريه ميكيل
- رشا صالح
- الطبعة الأولى 2015

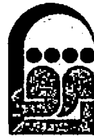
هذه ترجمة:
Le Repas du Soir
Par: André Miquel

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

وجبة المساء

(يوميات دبلوماسى فرنسى فى سجن مصرى)

تأليف : أندريه ميكيل
ترجمة : رشا صالح



2015

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

ميكيل، أندريه

وجبة المساء: يوميات دبلوماسى فرنسى فى سجن مصرى/تأليف:

أندريه ميكيل؛ ترجمة: رشا صالح.

ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥

١٨٨ص؛ ٢٤سم

١ - ميكيل؛ أندريه - المذكرات

(أ) صالح؛ رشا (مترجمة)

(ب) العنوان ٩٢٠

رقم الإيداع / ٢٠١٥/٢١٨٢

الترقيم الدولى I.S.B.N. 978-977-92-0086-6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إهـــداء

إلى د. أحمد درويش.

غيضا من فيضِ ترجماتهِ الأدبية المتفردة .

بين يدى الترجمة

"وجبة المساء" هو العنوان البسيط المتواضع الذى اختاره "أندريه ميكيل" Andre Miquel وهو أبرز وجه فى الاستشراق الفرنسى المعاصر، ليطلقه على يومياته عن الفترة التى قضاها فى السجن بالقاهرة، بين ثكنات احتجاز مباحث أمن الدولة، ومقر سجن الاستئناف المجاور لمديرية أمن القاهرة بميدان باب الخلق على مدى مائة وخمسة وثلاثين يوما، امتدت بين خريف ١٩٦١، وربيع ١٩٦٢، مرورا بالاستجوابات الشاقة، وما تتطلبه فى عرف بعض القائمين عليها من ألوان الضغط والمعاملة القاسية، ووصولا إلى الإقامة فى سجن، يخصص جانب منه للمحكوم عليهم بالإعدام، أصحاب الملابس الحمراء، وجانب آخر للمسجونين العابرين، أصحاب الملابس الخضراء من مثيرى الشغب والسارقين وأضرابهم، وجانب ثالث للجواسيس الذين أُدرج بينهم أندريه ميكيل ورفاقه الدبلوماسيون الفرنسيون فى القاهرة، المتمتعون نظريا بالحصانة الدبلوماسية الدولية، والذين تَمَّتْ معاملتهم فعليا بارتكابتهم غير محددة، غامضة.

إن رصد وقائع هذه الأيام المريرة والليالى الطويلة قد أُتيح له قلم مبدع وعالم وإنسان، على درجة عالية من ثراء التكوين، وتعقد العناصر. فهو فى لحظة مروره بهذه الأحداث، شاب فى الثانية والثلاثين من عمره، يجمع بين صفات المبدع فى الأدب الفرنسى، بوصفه كاتبا وقاصا وشاعرا، ومثقفًا نهمًا، عارفا باللغات التى تشكل لديه نوافذ على الحضارات الإنسانية ويتطلع إلى تمثل أكبر قدر من جوانبها وتجلياتها، عبر اللغات الألمانية والإنجليزية والإسبانية والروسية وامتداداتها فى اللغات القديمة، وأخيرا العربية الفصحى التى عشقها، وقرر أن يرصد مشواره العلمى الذى كان قد بدأه فى أرقى المؤسسات الأكاديمية فى فرنسا، فى استجلاء مظاهرها الأدبية والإنسانية،

وتقديم صورة مشرفة عنها لأبناء حضارته ولغته. وهو طريق كان قد بدأه قبل هذه التجربة المريرة، واستمر- وياللعجب - فى ارتياده بعدها، بروح إنسانية، شديدة السمو والتجرد، عبر مشواره الأكاديمى المتميز الذى أصبح من خلاله، شيخ المستشرقين فى المدرسة الفرنسية دون منازع خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، والعقود الأولى من الألفية الثالثة. أمد الله فى عمره، وقد شارف التسعين أو كاد.

من خلال هذا التشابك فى العناصر الإنسانية والمعرفية والثقافية، ظهر هذا العمل شديد التميز فى الفرنسية التى ينتمى إليها، وهى اللغة التى احتلت مكان الريادة فى تسجيل أحاسيس السيرة الذاتية واليوميات منذ اعترافات جان جاك روسو الشهيرة فى القرن الثامن عشر، وتأملات فتى العصر ألفريد دى موسيه فى القرن التاسع عشر، وتوجيهات أندريه موروا أبرز المؤلفين فى فن التراجم الذاتية فى القرن العشرين.

وقد زاد من تميزه وصعوبته فى الوقت ذاته، كثافة اللغة الشعرية التى يملكها المؤلف، وهى كثافة كانت تذكرنى خلال الترجمة بكثافة أساليب مماثلة فى الأدب العربى لدى واحد مثل مصطفى صادق الرافعى، من رواد الجيل الماضى مثلا. وكان لابد إزاءها من التأمل الدقيق فى مكونات الجملة التى عادة ما تكون طويلة وممتدة، وقد تتباعد الأطراف فيها بين المبتدأ والخبر، مرورا بكثير من الجمل الصغيرة الاعتراضية، أو الاحتراسية، أو التوضيحية، أو التعريفية. وهو تداخل ينم فى ذاته عن الثراء والتشابك والحرص على إيصال الفروق الدقيقة، والملامح الجانبية. وقد حرصت الترجمة ما وسعها الجهد على أن تنقل أكبر قدر من هذه الخصائص لقارئ الترجمة العربية، مع مراعاة الأمانة فى نقل المعنى فى كلياته وجزئياته، وأشكال أدائه المتنوعة، وهى دقائق تثبت العربية رسوخ قدمها فى الاستجابة لها.

إن رصد بعض حصاد تجربة القراءة قد تمتد فوائده لدى قارئ النص العربى إلى ما يمكن أن يكون أبعد قليلا من مجرد التمتع بقراءة "الحكاية". ومع أنها حكاية

تبدو "ممتعة" من الناحية الفنية، على الرغم من مرارة كثير من خطواتها، فإن سرد الحكاية فى ذاته يثير كثيرا من القضايا الفنية والأدبية. إن الحكاية نجحت، إلى حد كبير، فى كسر حاجزى الزمان والمكان اللذين دارت خلالهما. فلم يعد الأمر مجرد الوقوف عندهما، مع أهمية ذلك من نواحٍ كثيرة، ومنها النواحى السياسية بالطبع، وإنما نجح المؤلف من خلال طريقته الأدبية ووسائله التى يمتلكها جيدا أن يجعل من الحكاية، حكاية كل زمان، ومكان مناظر، تتعرض فيه الروح الإنسانية، فضلا عن الجسد الإنسانى، لتجربة قاسية، ولكنها من خلال، عمق المواجهة لها، تنجح فى تجاوز المحنة، والخروج أقوى مما كانت عليه. ولو أن رسم دقائق التجربة جعلتها أكثر حدة فى الإرسال، أو أكثر اضطرابا فى التلقى، لكانت النتيجة هى التدمير، وتحطم الروح الإنسانية بدلا من تقويتها.

إن جزءا من نجاح رسم التجربة على المستوى الإنسانى والأدبى يكمن فى رسم المؤلف الدقيق للشخصيات التى دارت حولها الأحداث، والتى نجح المؤلف ببراعة فى أن يرسمها بطريقة شائقة وعميقة فى الوقت ذاته. وأولها شخصية الراوى الرئيسى الذى عانى التجربة المريرة وعايشها ورواها، وهو "ممثل الحضارة الغربية" بتراكماتها المعقدة، وأهمها التكوين الثقافى. وإذا تأمل القارئ "المدخلات" الثقافية التى تمثلها البطل من خلال قراءاته فى هذه الفترة العصيبة التى كان يحرم فى معظمها من الراحة، والكتب، والأوراق، فإنه سيجد كثيرا من المكونات الثقافية، تظهر فى أيامه، سواء من خلال ما استطاع أن يقرأه، أو أن يجتره من وعيه ومخزونه الثقافى، وسوف يجد القارئ أسماء كتب وأعلام غربية وشرقية، يلح السجين على قراءتها والحوار معها مثل : القرآن الكريم، والكتاب المقدس، ومسرحيات شكسبير ومغامرات دون كيشوت، وروايات بلزاك، والأب يوحنا الدمشقى، وأعمال توفيق الحكيم، وأعمال نجيب محفوظ... وغيرها من الأعمال التى قد لا يتوقع المرء أن تكون بين اهتمامات سجين مظلوم متهم بالتجسس لدى أناس، رحل إليهم فى ثقافتهم، فى محاولة للتواصل الحضارى معهم. وليست شخصية الراوى وحدها هى التى يتم التركيز عليها، بل إن كثيرا من

الشخصيات الثانوية، يتم رسمها بإحكام فنى عال، سواء فى رسم الشخصيات شبه الصامتة لرفاقه الفرنسيين، المتهمين معه، أو الشخصيات التى تتقاسم معه المشاعر والمحبة مثل شخصية "جانين" زوجته، ووالده، ووالدته، وأستاذه، أو حتى الشخصيات المصرية داخل السجن، انطلاقا ممن يشاركونه الهم الفكرى مثل المثقفين ممن يتحدثون الفرنسية أو الإنجليزية، وهو يراهم إخوته فى محاولة التواصل الحضارى، أو السجناء الآخرين الذين تعاطف معهم كثيرا، وأجهش بالبكاء مرات عديدة، إشفاقا على مصيرهم المرتقب، وتقاسم معهم القليل من الأطعمة أو السجائر التى كانت تصل إليه، مبديا روحا إنسانية رفيعة المستوى دالة على اتحاد المصير، رغم اختلاف الانتماء. والصفحات التى كتبها فى وصف حالة المحكوم عليهم بالإعدام، وساعات الترقب، ثم لحظات تنفيذ الحكم، ومعنى الموت وجدلية الموت والزمن، تعد من روائع صفحات الأدب الإنسانى فى كل اللغات. بل إنه فى مرات متعددة تعاطف مع قضاته والمحققين معه، ورصد ملامح من إنسانيتهم التى تند عنهم، وبعض الابتسامات التى تفتر عنها شفاههم، وروح التسامح التى تظهر عند بعضهم. وبفضل روح "العدالة" التى سجل أنهم يتسلحون بها، انتصر ميكيل، وخرج إلى عالم الحرية.

ومن اللافت للنظر رصد روح "الحِجَاج" التى سادت خلال هذه الفترة العصيبة بين المتهم والذين يحققون معه، وهى تكاد تلخص "روح الحوار بين الشرق والغرب"، أو تشكل درجات مختلفة من الحضارة والتجرد من وجهة نظره. فهو يرى دائما خصومه – بعض المحققين– يعتمدون على الضغط الذى يختفى فى جلسات محاكمة القضاء له ولرفاقه.

وفى المقابل، يرى أن عليه – وفقا لتكوينه الثقافى– أن يتسلح بالحجة الهادئة، والمناقشة المنطقية التى يستعد لها فى ساعات صمته الطويلة كما يستعد التلميذ لأداء امتحان شفوى مصيرى، وهو لهذا يرتب حُججه، ويعد عباراتها، بدءا من أن "البراءة ليست تهمة تُنظَم لها اللفات، ويُدافع عنها بالحُجج"، وكأنه بذلك يتمثل مقولة التراث

العربى الذى يعرفه جيدا: "البينة على من ادعى". ومن الإنصاف أن يعترف بأن رؤيته تلك، قد وجدت أذنا مُصْغِية لها فى نهاية الأمر، تقر ببراعتها. وهو إذ يسجل هذه الخطوات بطريقة فنية دقيقة وصادقة، فإنما يسجل فى الوقت ذاته، شهادة اعتزاز بالقضاء المصرى.

لقد حرصت اليوميات على أن تسجل نمطين من أنماط رؤية أندريه ميكيل لمصر: نمط الرؤية الثابتة المستقرة الدائمة، ونمط الرؤية المضطربة القلقة المؤقتة. والواقع أنه لم ينعم بالأولى إلا فترة قصيرة، شهرين وعشرة أيام، منذ جاء لاستلام عمله مستشارا ثقافيا فى مصر. وسكن هو وعائلته المبنى المخصص لهذه المهمة فى حى المنيرة. وشرع فى القيام بعمله من خلال لقاءات مع مسئولين مصريين، وصفها دائما بأنها كانت حميمية وودودة ودافئة. ومن خلال زيارة معالم القاهرة التى شفت كلماته عنها عن ثقافة قديمة، وعن عشق وليد، وعن رؤية لبعض الآثار الفرعونية التى كانت وما تزال موضع ولع الفرنسيين. ومن خلال زيارة عمل عابرة إلى الإسكندرية، وصف طريق الذهاب الزراعى الحافل بلوحات الريف المصرى وصفا دقيقا، تذكر بلوحات جيرار دى نرفال وفلوبير فى القرن التاسع عشر. ومع القصر النسبى للفترة المستقرة التى أتيح له فيها التمتع بجمال مصر، ومع أنه شرع فى كتابة يومياته فى أعقاب الفترة العاصفة المريرة التى أعقبت فترة الهدوء القصيرة، وكانت كفيلة بأن تنسيه إياها، أو بأن تنسرب مرارة مذاقها إلى الذكريات الوديعة السابقة عليها، فإن أندريه ميكيل آثر أن يبدأ مذكراته برصد انطباعاته الجميلة، وبأن يخصص لها حجما مناسبا، قياسا لأيامها القصيرة. كما حرص دائما حتى فى أحلك اللحظات على أن يسجل احترامه لمصر وحبه لأهلها، بل إنه سجل فى بعض المرات تقديره لما قام به نظام الحكم فى تلك الفترة من خطوات على طريق العمران والإصلاح قياسا إلى النظم السابقة عليه. ولم يغفل تعاطفه فى كثير من الأحيان مع النماذج الإنسانية المصرية التى التقى بها فى محبسه، وكأنه أراد أن يجعل التجربة المريرة بين قوسين، مع حرصه على تسجيلها باعتبارها تجربة إنسانية وثقافية قاسية. وبرهن على ذلك من

خلال سلوكه الذى أعقب هذه التجربة على مدى أكثر من نصف قرن، ظل فيها صديقا لمصر، ومحبا لمثقفيها، وراعيا للدارسين منهم عندما يذهبون إلى جامعة السربون التى شغل فيها منصب الأستاذ البارز، والعميد المتألق لمعهد لغات الهند والشرق وشمال إفريقيا وحضاراتها، أو عندما يحضرون الحلقات العلمية فى الكوليج دى فرانس التى شغل فيها منصب الرئيس، كما تولى أيضا رئاسة المكتبة الوطنية الفرنسية، وكان أول رئيس من الأكاديميين الفرنسيين المتخصصين فى الثقافة العربية والإسلامية. بل إنه كان أول أكاديمى غربى يرشح نجيب محفوظ لجائزة نوبل قبل نحو ربع قرن من حصوله عليها، من خلال دراسات أكاديمية ضافية كتبها فى الستينيات، وتُرجمت بعضها إلى العربية.

إن أندريه ميكيل مع سعة أفقه، ورحابة نفسه، وإعلانه إن النسيان فضيلة إنسانية، وليست نقصا أو تراجعا، فإنه قد ظل حتى النهاية فى هذه اليوميات، يسرب من الأحاسيس ما قد يعنى أنه إذا كانت قد ردت إليه بعض حقوقه القانونية، فإن "رد الاعتبار" الإنسانى والأدبى الكامل إليه، كان ما يزال فى حاجة إلى بعض لمسات الاكتمال من أبناء الثقافة العربية التى عشقها، ولحق به بعض الأذى فى هذه الفترة العصيبة.

فهل يسمح لنا، أندريه ميكيل، ونحن نهدى إليه هذه الترجمة العربية الأولى، بأن تكون هذه الترجمة ذاتها جزءا من هذه اللمسات من جيل من المثقفين المصريين والعرب، لم يكن قد ولد بعد فى القاهرة حين عانى هو منها على أرضها أيام هذه التجربة القاسية؟!

رشا صالح

مارس ٢٠١٤

نحن، وزير الخارجية، ندعو الجهات المدنية والعسكرية المسئولة عن النظام فى فرنسا، وكذلك السلطات المنوط بها القيام بالمهام نفسها في البلاد الحليفة أو الصديقة للجمهورية الفرنسية، إلى تسهيل مهمة السيد/ أندريه ميكيل مسئول البعثة الثقافية فى الجمهورية العربية المتحدة، ومنحه المساعدة والحماية التى يحتاج إليها. باريس فى ٨ يوليو ١٩٦١.

كان جواز السفر الدبلوماسى الذى حملته عندما وصلت إلى القاهرة مساء يوم الخميس ١٤ سبتمبر ١٩٦١ بصحبة زوجتى وطفلى، هو الوثيقة الرسمية للمهمة التى كلفتنى بها الحكومة الفرنسية. ألم أكن أنا - بإقامتى فى الشقة الكبيرة المخصصة لهذه الوظيفة، والتى تقع فى الطابق الأول من مدرسة الحقوق الفرنسية، فى مواجهة معهد الآثار، وبذهابى إلى المكاتب الثقافية كل صباح فى شارع سكة الفضل، أول من استأنف العلاقات الثقافية بين فرنسا ومصر بعد انقطاعها منذ قضية السويس فى خريف ١٩٥٦؟

وفى الواقع فإن اتفاقيات زيورخ التى وقعتها الدولتان عام ١٩٥٨، كانت قد توافقت، دون انتظار عودة العلاقات الدبلوماسية، على اتخاذ التدابير اللازمة التى تكفل تسوية موقف الممتلكات الفرنسية الموضوعة تحت الحراسة منذ قطيعة ١٩٥٦ . ولذلك فإن لجنة لرعاية الممتلكات الفرنسية قد تشكلت من مجموعة كبيرة من الدبلوماسيين، انتقلت إلى القاهرة من أجل وضع هذه التسوية موضع التنفيذ مع السلطات الفرنسية. وكانت هناك تدابير أخرى تتوقع إعادة نشاط المدارس والمعاهد فى فرنسا أو فى

مؤسسات فرنسية. إن إعادة افتتاح هذه المؤسسات، والضرورة التى نجمت عن تنظيم عمل مبعوث إلى مصر اقتضت فى ربيع ١٩٥٩ وصول قائم بالمهام الثقافية، وهو رئيس البعثة الجامعية الفرنسية فى الجمهورية العربية المتحدة. وقد اتضح أن هذا المنصب مهم لدى السلطات المصرية التى برهنت على أن استئناف العلاقات الثقافية أمر واقع بدعوتها، على نطاق واسع، للمدرسين الفرنسيين للعمل فى مؤسساتها التعليمية الثانوية والعليا.

وعندما أعلن القائم بالمهام الثقافية عن الحاجة إلى مسئول إدارى فى سبتمبر ١٩٦٠، تقدمت إلى الوظيفة. وكنت أعمل منذ ١٩٥٧ فى الإدارة العامة للعلاقات الثقافية والتقنية بوزارة الخارجية، وكنت أتمنى بشدة أن أواجه، على أرض الواقع، الصعوبات التى لم أكن أعرفها إلا من الوجهة الإدارية. ولذلك فقد اعتقدت حين حصلت على هذه الوظيفة فى القاهرة – وأعتقد دائما – أن الوزارة قد حققت لى أمنية غالية جدا.

* * *

وبقدر ما كانت الحياة فى بلد عربى مطلبا عزيزا، فإنها كانت ضرورة ملحة لمهنتى. فمنذ ذلك اليوم الذى أنهيت فيه دراسة العلوم الإنسانية فى المدرسة العليا بحصولى على شهادة "الإجازة"، قررت أن أكرس نفسى لدراسة العالم الحديث فى صورته العربية، وقد بذلت كل الوسائل من أجل إشباع رغبتى. ففى الرابعة والعشرين من عمرى، بدأت حياة عملية جديدة، وشرعت فى دراسة اللغة العربية بتفان، وسافرت إلى سوريا عام ١٩٥٢ بعد شهادة "الإجازة". وبعد العودة من سوريا، وإنهاء فترة الخدمة العسكرية، لم تكن هناك وظيفة خالية فى أى بلد عربى، فحصلت على وظيفة فى بعثة الآثار فى إثيوبيا، وهى دولة، تنطق بلغة من نفس عائلة اللغة العربية. وعندما عدت إلى فرنسا عملت فى مدرسة كليرمون

فيرون Clermont Ferrand، وفى هذه الأثناء، انتهيت من ترجمة كتاب "كليلة ودمنة" وهو النسخة العربية من حكايات بيدبا الذى استلهم منه لافونتين أعماله.

وعندما عرضت على وزارة الخارجية عام ١٩٥٧ وظيفة مسئول القطاع الإفريقى- الأسيوى فى قسم الخدمات التعليمية بالإدارة العامة للشئون الثقافية والتقنية، اغتنمت الفرصة، واستثمرت الإمكانات التى أتيحت لى من خلال عملى فى تنمية ثقافتنا فى البلاد التى كنت قد قررت أن أكرس نفسى لدراسة ثقافتها. ومع محافظتى التامة على عملى الإدارى، استفدت من هذه السنوات الأربع من عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٦١ فى إنجاز أطروحتى التكميلية حول موضوع الجغرافيا العربية، وفى الشروع فى إجراء الأبحاث الضرورية للأطروحة الرئيسية التى كنت أنتوى تخصيصها للأشكال الجديدة فى الثقافة العربية، وذلك من خلال التعليم والسينما المصرية.

* * *

ولا يخفى ما حدث لمشاريعى وأحلامى: فبعد شهرين من وصولى للقاهرة، فى الليلة التى تصل الخميس ٢٣ بالجمعة ٢٤ من نوفمبر ١٩٦١، ألقت المخابرات المصرية الخاصة القبض على باتهام لا يمكن تصديقه وهو الاشتراك فى تنظيم مؤامرة تهدف إلى قلب نظام الحكم فى الجمهورية العربية المتحدة واغتيال رئيسها.

وانطلاقا من الصدمة التى ترتطم بكاهل إنسان مفزوع، فإنه لا يمكن التنبؤ بكل أبعاد الهجوم المفاجئ. فالاتصالات التى كنت قد أجريتها مع كبار موظفى الدولة المصريين، المسئولين عن التعليم والثقافة، منحتنى القناعة بأن لديهم إخلاصا يصل أحيانا إلى درجة التحمس. قبل توقيفى بعدة أيام، زرت مقر لجنة رعاية المصالح الفرنسية ورئيسها السيد أندريه ماتى Andre Mattei الذى يلزمنى ماضيه ومنزلته ومناصبه التى تبوءها بواجب يقتضى أن أقدم له تقريرا عن أنشطتى، كما يجب أن يكون الأمر تجاه رئيس العمل. وكان على أن أطلعه على الإنجازات الموفقة للتعاون

المثمر فى مشروع المدرسة الفنية كوبيه .Koubbe وكان الموضوع يتعلق بتدريب الفنيين المصريين من الشباب، فى إطار محلى، على يد معلمين فرنسيين، وبمعدات فرنسية. ويعود الفضل فى المبادرة بالمشروع إلى أسلافى أولا، ثم إليّ، وقد رأوا دليلا ملموسا على أن عصر الشقاق والفرقة قد ولى، وأن المستقبل سينفتح من جديد، على الأقل فى المجال الثقافى، أمام تعاون مثمر وجاد. وقد شاركتنا وزارة الخارجية فى وجهة النظر نفسها، الأمر الذى سمح لى بتوقيع نص اتفاق مشروع كوبيه باسمها. وقد مثل الحكومة المصرية فى ذلك الأمر وكيل وزارة التعليم الفنى.

وكان هناك أيضا مشروع الكرنك، وقد عهد إلى خبراء فرنسيين بهذا الكيان الشهير فى عملية طويلة المدى تغطى مجالات الحفر، والتجديد، وتهيئة الموقع لاستقبال السائحين. كما كان هناك مدرسو المدارس الثانوية الذين يدرسون فى المؤسسات التعليمية المصرية الثانوية الجامعية ويصل عددهم إلى ما يقرب من المائة. كانت ثمة مشاريع جديدة لمهمات قصيرة المدة تتعلق بمدرسين جاءوا من فرنسا، وبتوزيع كتب ووثائق تقنية. كان هنالك بالفعل، فى عبارة موجزة، ما هو أكثر من مجرد انتعاش لماضينا الثقافى فى مصر، وهو انتعاش يعلن عن نفسه بقدر من الخصوبة، يجعله يتبدى بوضوح عبر المظاهر الجديدة للتعاون، بعيدا عن كل دعاية، وعبر كرم فرنسا الذى لم يكن فى حقيقة الأمر إلا استجابة لإخلاص الرغبة المصرية.

وهكذا فإن "قضية القاهرة" أصبحت مثار تساؤلات من جديد.

* * *

لماذا أتحدث الآن عن هذا الموضوع بعد مضى عامين؟ وإذا كنت قد اخترت أخيرا أن أنشر هذه الصفحات التى كتبتها فى الشهر التالى لإطلاق سراحى، فإن ذلك ليس رغبة فى الجدل، ولكن تاريخى وتكوينى يمنعانى من التزام صمت قد يؤكد اعترافا بذنب، أو حتى يجعل طيف شك يحلق بعقول من لا يعرفوننى.

وإذا كنت لم أستطع أن أفعل شيئا مع العرب، فإن ذلك لا يعنينى كثيرا، لكنى أرفض الصمت، وسيكون من غير المقبول أن أتحاشى المشاركة فى هذا الحوار مع عقول مختلفة عنى، فيفسر البعض صمتى على أننى قد نفضت يدى بثمن بخس.

لقد أوضحت أثناء التحقيق، وأعيد تأكيد ذلك، إننى لا أحمل ضغينة فى قلبى. ولكننى أود ببساطة أن أعرف لماذا كنت موضوعا لمغامرة، سواء اعتبرت خطأ أو مؤامرة، كان من الممكن تجنبها. لقد أدركت دائما أن إقامة علاقة جديدة بين الغرب والعالم الثالث لن يكون دون ألم. ومن المسلم به أن اتخاذى، كما سنرى لاحقا، عنصر ضغط، لم يولد لدى إحساسا بأن "قضية القاهرة" تعد إهانة شخصية. لكننى ظللت مندهشا من الأمر، غير فاهم له.

* * *

والواقع أنه لا يوجد هنا (فى هذا الكتاب) أى معلومات خاصة "بقضية القاهرة" إذا تجاهلنا أننى ظللت سببا اختلقوه ليكون دافعا غير واضح. إن الفترة الزمنية لاستجوابى قد أعيد سردها فى تسلسلها الزمنى، وبكل التفاصيل بحسب ما وسعته ذاكرتى، وعلى القارئ أن يستنتج إذا كنت قد تعرضت للتعذيب، نفسيا وجسديا، بالمعنى المطلق للمصطلح. إن الخطة وتتابعها الزمنى التى اعتمدت فى الجزء الثالث من الكتاب بدت أقل التزاما، كما أن الأمر يتعلق أيضا، ولفترة زمنية طويلة قبل كل شىء، باستثارة مسيرة وحيرة مستشرق، دون أن يتخلى، على قدر ما أعتقد، عن ثقافته الخاصة، وانتمائه الوطنى، وهو مستشرق اختار أن يحاول فهم العرب، وها هم بعض العرب يسجنونه دون سبب.

١

الثلاثاء ٢٦ من سبتمبر

القاهرة، كما كان يقول هـنرى الـرابع عن باريس، ليست مدينة ولكنها مدائن. فى البدء، قبل اختفائه فى الدلتا، هنا يحمل النهر فى فورته واهتياجه حوار الجفاف والماء، حوار الصحراء والطين، الذى لم يكن شيئا آخر سوى مصر. وتصبح النتيجة هذه النباتات الراعنة، أشـجار نخيل مكتنزة فى هذا الوقت بعناقيد صفراء، قطن وقصب سكر، وغاب، وعنب، وقنوات مائية، وأبقار تغط فى لجة الطين، كل هذا العالم الذى ينتهى فى لحظة، وكأنه قطع بسكين، عند شاطئ الماء من ناحية، وعند الرمال من ناحية أخرى. . هذا هو المشهد المضطرم الذى تلخصه القاهرة وضواحيها. إنه العالم الثالث أيضا. حيث نرى كثافة المدينة السكانية التى تقدر بثلاثة ملايين ونصف نسمة، ومحاولات التطور الذى حدث يوما ما فى المناطق السكنية البائسة والذى بدا محاصرا ومحدودا ومهددا من خلال نمو مجموعات جديدة من المساكن الشعبية. إنهما وجهان لتطور يتحرك دوما، ولنتائج واقعة بالفعل، ونموذجها بالفعل كورنيش النيل الشهير. حيث المدينة التى تتكون شيئا فشيئا، إذ لم يتبق من المدينة القديمة سوى القدر الذى فرض نفسه وبقى (القلعة، المساجد، الأزهر....) ونحن حين نرى كل ذلك نتفهم التيه الذى وقع رجال السياسة الفرنسية فى شركه، فهم لم يفهموا أبدا هذا الأمر ببساطة: بمعنى أن إشراقة هذه المدينة (فضلا عن كونها أكبر مدينة فى إفريقيا)، وتأثير خبرات هذا البلد تجاه شعوب أخرى، ليس إلا إشعاعا طبيعيا، وسيكون من غير المجدى الحديث عن مؤامرات ودسائس.

ولن أضيف شيئا آخر على الإطلاق عن هذا الشعب، إلا تأكيدى على أن كل ما عرفته عنهم هو الكياسة وحب الحياة الحقيقية، وهى الصورة التى تشكلت لديه فى

باريس طوال السنوات الأربع للدراسة. وكنت أتكلم العربية بقدر استطاعتى مع كل المستويات التى التقيتها بما فى ذلك الوزراء. وفى الواقع ربما يكون قد ساعد ذلك كثيرا على تواصل العقول. على أية حال، إن ما بقى دائما هو الكياسة المؤكدة التى شجعتنى مع احتفاظهم بالحد الأدنى من التحفظات على التحدث بالعربية معهم مع ما يمكن أن يعترى لغتى من نقصان السلامة، وكم هى كثيرة هذه المواقف.

وخارج القاهرة، وعلى امتداد الطرق التى ترتفع حولها أشجار الكافور، وتحدها القنوات المائية تقابلنا السماحة نفسها والفضول المسلى نفسه تجاه الغرباء، وهما الصفتان اللتان نفهم منهما، أنه بفضل الله، لا يأتيهم إلا الأصدقاء. إن ما يدهش حقا هنا هو ديمومة الحب بين الإنسان والأرض، هو التشابه بين المناظر الطبيعية الحية وتلك المناظر التى ترقد على جدران المقابر فى الصحراء. كانت الساعة السادسة من مساء الأحد، من فوق الهضبة المسطحة للصحراء الغربية التى تحتضن بين جنباتها أهرام سقارة، شاهدنا الشمس تختفى فى أطراف سهل جامد عار، أصهب رمادى، تلفحنا نسمات هواء بدا لنا وكأنه يحمل دعة هواء شهر مايو. رأينا عن قرب كل ما يمكن رؤيته من مقابر. كنا فى أوج السعادة والانتشاء كلما رأينا منظرا كان يوما ما متواريا فى ركن قصى من ذاكرتنا. وفجأة تتبدى أمامنا على مقربة مترين، عشرة، ثلاثين مترا، تبرق أمام أعيننا. رأينا مقابر غير مكتملة البناء، ورأينا لوحات لثعالب تنقض على أعشاش البط البرى، ولوحات للنهر وللحقول، وبعض لوحات قليلة للحرب. رأينا الملكة الشابة تجلس تحت أقدام زوجها، تشخص ببصرها إلى حاملى القربان. تلتف إحدى ذراعيها السمراوتين حول ركبتى مليكها. رأينا القطيع يجتاز المعبر، وأحد الرعاة يفتتح المسيرة، ويحمل عجلا صغيرا جدا، يتطلع إلى أمه فى الخلف، فتمد الأم عنقها تجاهه، وترسل خوارا هادئا مطمئنا. ومع ذلك، فمن خلال هذه الصور، يرى المتخصصون أنه تكاد تتردد أغنية عبر النص: "لا تخافى، أيتها الأم، سنحافظ على صغيرك". وقد وجدنا هذا المشهد الأخير فى منطقة سقارة نفسها مرة واحدة على الأقل. هل هو مجرد اتفاق؟ وماذا بعد؟ وفيما يتعلق بدرجة الاتفاق، فإنه من الأفضل أن نظن أن هذا المشهد الذبائحى يحملنا إلى النقوش المحفورة فى بلاد ما وراء

النهرين الآشورية. وبين ذلك المشهد الحميمي للمعبر وطقوس السائرين في الجزء العلوي المحصن من المدن الإغريقية القديمة، وحدها هي الملابس التي تبين كيف أن هذا الإنسان يظل هو الإنسان في كل مكان و زمان، حتى في حميا ممارسة طقوسة الدينية، فليس هنالك بالفعل اختلاف، ربما تكون ثمة سذاجة ولكنها سذاجة تندفع داخلي بحيوية، في أن أجمع بين هذين المشهدين المتباعدين للبلدين في ذاكرتي.

في سقارة، وعند سفح الهرم المدرج، وفي قمته، نطالع سماء شاحبة الزرقة والصفرة، تترسم صورا في السحب تدفعها الرياح. ومن أسفل، أشاهد ...هذه الآبار، والمقابر، والصهاريج، وهذه الحضارة التي تبحث عن نفسها تحت الأرض، وتعهد إليها في أعماقها برعايتها وحمايتها من الموت. و يبدو الموت عندما تراه من هنا فظيعا وناعما في الوقت نفسه. لكن ما أروع تمنيه في حديث الرجال أيا كان ثمنه، وما أروع هذه الرمال التي تبدو كغابة يرقد فيها الجمال النائم....

وعندما تغادر أنظارنا الصحراء، نصل رويدا رويدا إلى القاعدة الضخمة التي تقوم عليها الأهرامات، والتي تشارف الوادي على نحو خمسين مترا تقريبا. وبعيدا في الناحية الأخرى، في لجة الضباب، تكاد تظهر مرتفعات ضفة النهر اليمنى، التي تعلو تدريجيا، ويتغير لونها حتى تصل إلى قمة جبال المقطم التي تشرف على القاهرة من ناحية الشرق، ودونها المآذن الفاطمية الكثيرة للمساجد، وأبراج القلعة. وعندما نعود مرة أخرى إلى الغرب، تتبدى أهرامات الجيزة وأبو الهول وهي المعالم التي لم نزر أيا منها بعد.

١٥ من أكتوبر

في مساء ليلة صيفية في الصحراء، حضرنا عرض "الصوت والضوء" في منطقة الأهرامات. كان الطقس لطيفا جدا، وكانت النجوم تنتشر في السماء، والليل مترع بالسكينة. كانت جلستي في الصف الأول، وأمامنا ساحة رملية صغيرة، في طرفها،

يرقد أبو الهول فى جوف غائر ضخم. ولكنى سأعود قليلا بالزمن إلى الوراء. لقد كان ينتابنى بعض القلق قبل المجئ إلى العرض. فهذا النوع الموسيقى والأدبى يعد صعبا بين الفنون، حيث تتمازج هذه الموسيقى الهادرة، وهى فى مجملها ذات تأثير متناغم، مع نص عربى تخلى، لصالح الغنائية الخالصة، عن المذاق التاريخى العاطفى الذى نحتاج إليه دائما فى هذه الحالات.

يا لها من سعادة تغمرك دفعة واحدة حين يتصاعد من الظل شيئا فشيئا كل من صوت أبى الهول قادما من الأرض، وهذا الوجه الذى حطم جدار الليل، وبدا خارج السنين نفسها ما دمنا من خلال لعبة الضوء المميزة، استطعنا أن نرى، وجها مجدورا من الرمال يتناوب مع آخر يخلو من تلك الندوب تقريبا، ولم تبق سوى البساطة الأصلية لانحناءات الوجنتين، وللجبهة الملساء، ومع ذلك فإن العينين اللتين بقيتا فى الظل القريب من الأرض اكتسبتا، وهما فى شبابهما الغض، الحياة الحقيقة للنظرة.

آه، أجل، ما أجمل النص بالرغم من صعوبته، وعدم فهمه فى بعض الأحيان، وما أجمل تغير الأصوات، وخلفية العرض! تتوالى المشاهد التى تتلاقى مصادفة عبر التاريخ، ها هى أصوات الصغار وأصوات مواكب تطوف فى النيل، ها هو هرم خوفو، ثم الهرمان الآخران يتجاوران من بعيد فى الصحراء. إضاءات خافتة وخاصة عندما تكون حمراء أو صفراء شاحبة، فيما عدا فى تلك اللحظة النهائية التى تقرع فيها الصنج حيث تبلغ الإثارة ذروتها، وتختلط كل هذه الأحجار ببعضها أحجار أبى الهول والأهرامات والآثار المحيطة، وتقفز أمام الوجه.

كنت مأخوذا بضخامة الكتل الحجرية، كما كنت محبطا فى نهاية العرض لعدم تمكنى من أن أنعم وحدى بسكون هذه الليلة. هل أعود؟ ولكن من أجل ماذا؟

الإسكندرية وجه آخر يثير مشاكل أقل. على مدى ثلاث ساعات فى طريق طويل، تتهادى حقول القطن، وقصب السكر، والقنوات المائية والقرى الصغيرة، وهو فى مجمله مشهد لبلد ناهض، ومُجد فى العمل. فى نهاية الرحلة، تتوازى بعض حواف منحنيات النيل مع الطريق، فتتراءى عالية، مما يجعلنا نرى من جديد الأشرعة الكبيرة المنحنية للقوارب الصغيرة، وكأنها تنزلق فوق الأرض فى قلب الخضرة الممتدة، وقبل أن تتبدى

بنايات المدينة من بعيد، تبدو الواجهات الضيقة لبداياتها. المدخل من هذا الجانب بسيط ومتواضع، وتحف جوانب الطريق الجداول. ولكن بعد برهة، سنبلغ الشوارع العريضة التى سيذكرنا طرازها بشواطىء الريفيرا، وسنصل إلى طريق الكورنيش الذى يمتد لأكثر من ثلاثين كيلومتر. لم تثر الصخور المترامية الذكريات القديمة، ولكنها، فى المقابل، موجودة كلها فى ذاكرتنا، وهى تشبه حشرة الزيز الراقدة (صرصور الغيط) حتى هذه اللحظة، فوق أغصان شجر الزيتون، وحين تأتى أشعة الشمس أو هبة ريح أكثر سخونة، تجعلها فجأة تتحرك وتنتشر. هنا جزيرة فاروس، وهى جزء تم إنقاذه من الميناء الحديث. فى الغرب، ناحية شواطئ الرمل الأبيض، بين البحر والطريق الأسود الدامى، فوق الجرف ذى اللون الأصفر أو الأبيض الزاهيين، هنالك مدينة "برقة"، وأبعد منها ساحل "سيرت". إنها ذكرى مدينة طبرق والعلمين. فى الشرق، على بعد عشرة كيلومترات من نهاية المدينة، يوجد خليج أبى قير، يطوقه حصنان، أحدهما حصن نابليون، والآخر مجهول، وقد أصبحا اليوم مكانا للأطفال الذين يلعبون كرة القدم على الرمال بين المنازل الداكنة اللون ومراكب الصيد الجانحة التى تتخذ شكل النجمة حسب تعرجات الخليج. وفى ذلك الوقت، كنا فى منطقة أبى قير، على الجرف الصغير الذى يشرف على البحر، وقت الغروب، فى مطعم يونانى حيث تناولنا الأسماك والقواقع وألونا عدة من الخضروات المتبلة بالخل والمتناثر فوقها أزهار اليانسون العطرة. بينما كانت تتكسر الأمواج على الصخور، وتتجمع فى حوض من الماء ترقد فوقه أشعة الشمس الغاربة، وتنعكس فى إشعاعات وديعة حتى تصل إلى زجاج المطعم.

٢٢ من أكتوبر

بحيرة مريوط (اسمها القديم مريوطس، هل طريقة نطق الاسم الحديث أقل جمالا من الراء الباريسية والتى يتبعها حرف المد، وتنتهى الكلمة بحرف الطاء العربى المفخم؟) كان لابد من رؤية البحيرة كما رأيتها فى مشهد يتهدج بين الغسق والليل. عدنا إلى القاهرة عبر الطريق الصحراوى، وكنا قد غادرنا الطريق المرتفع الذى يشبه

القبة القاحلة، وينحدر شيئا فشيئا، و تراءت أمامنا فجأة بركة طويلة جدا، ذات لون وردى شاحب، وكان قرص الشمس الأصهب يغرب فيما وراء المشهد فوق مياه البحر، إلى اليسار قليلا تنتهى الإسكندرية فى اللمسات الأخيرة من صورتها، وفى ومضة أخيرة لمنازل تترك وراءها الرمل والبحر. وللوصول إلى المدينة، كان لابد من الاتجاه شرقا، والسير بمحاذاة الساحل الجنوبى للبحيرة بجوار حافتها المرتفعة حيث يغادر البصر الساحل، وينعطف نحو الشمال الشرقى، مجتازا المياه، وممتدا فوق مشهد لا نهائى من عيدان البوص، تتخلل مساحاتها قوارب يقف الرجال فيها وهم يدفعونها بعصى طويلة، ولا نكاد نرى شيئا، فهم متوارون فى هذه الغابة المائية حتى ينحنى الطريق، ونكتشف ممرا جديدا، طريقا ضيقا، دفقة نسيم الليل. وبمحاذاة جانب الطريق، كانت هناك المراكب ذات العمق المسطح، تتدلى منها المصابيح. وفى بعض اللحظات لو أننا أغمضنا العين نصف إغماضة لبدا لنا عندما نوازى القوارب أننا نسير فى موكب. كانت الطيور الكبيرة تطفو فوق الماء، وخاصة طيور أبى منجل، ثم تأتى الخفافيش فتصطدم بزجاج السيارة. الليل وضوء القمر، المشهد نفسه يظهر مرة أخرى ولكنه هذه المرة بدا جامدا، كأنه كتلة رخوة أرجوانية باهتة، مضيئة أحيانا، ومتماوجة أحيانا أخرى فى الهواء. ثم تجلت الصحراء التى تبدو هى أيضا بلا روح. ففى الصباح، هذه الفيافى قشور متلاطمة متماسكة إلى حد ما، ثم تغدو، فى الكيلومترات الأخيرة فى اتجاه الإسكندرية، كجلد مرقط بالأشجار الصغيرة. إن الصحراء دائما يلفها غموض، فهواؤها الذى نتنفسه ثقيل، تتخلله خفة غير متوقعة، لا تستريح له النفس ولا تستسيغه الحواس كلها، ومع ذلك فهو يمثل النمط الصحراوى الخاص الذى يغذى صروحا راسخة فى ذاكرتنا، تتكشف من وقت لآخر حين ينجلى الضباب. وللأشياء الساكنة التى نراها اليوم فى تلك اللحظة فى الصحراء وجهان، فهى من ناحية مصيرها الفناء، لأنها سريعة الزوال ووقتية. وإذا كان مقدرا لهذه الأشياء أن تختفى، فإن هذا الاختفاء يأتى، من ناحية أخرى، لنفع البشر مثلما نرى اليوم فى أشجار الذرة وأشجار الفاكهة التى نبتت فى أكثر من مكان فى الصحراء منذ عدة سنوات. كما أن كلمة الصحراء ستظل محتفظة فى الذاكرة بمعانى الاتساع والرحابة، والهيبة وشعر الحرية.

وقد تذوقت من هذه الظروف الاستثنائية ما فيها من جمال: فقد كان القمر مكتملا، يرتفع إلى السماء خارجا من البحر فى طريق عودتنا، وحين بلغنا القاهرة كان فى منتصف السماء، عموديا على رؤوسنا. من الزجاج الخلفى للسيارة، كان المشهد كلاسيكيا للطريق المعتم الذى يشقه مشهد القمر. كانت عيناى مصوبتين إلى الطريق على مدى ثلاث ساعات. كانت رحلتى إلى الإسكندرية رحلة عمل لم أصطحب فيها "جانين" التى كانت مريضة، أو الأولاد. فى طرق العودة، كنا، السائق وأنا، جنبا إلى جنب، نستمتع بالوحدة المفرطة، فلم أسمع منه سوى جملة واحدة بالكاد: "انظر يا سيدى، أى هدوء يعم فوق الأرض".

والواقع أننى مدين لرفيقى بمتعة أخرى منحها إياى، وبدونها لم تكن لتكتمل هذه المشاعر. فقد كانت السيارات نادرة على الطريق الصحراوى، وكان القمر، فى هذه الليلة، مبهرا، فقد قطعنا مائتى كليومتر فى ضوئه وحده، ولأننى لا أستطيع تبين معالم الطريق بسبب رؤيتى المحدودة، فإن السائق كان يتابعه ببراعة، ويتجنب احتمالات الطريق غير المؤكدة بضرب من الشجاعة. والواقع أنه لم ينتبنى الإحساس بالخطر فى أى لحظة. وبكل صدق، فإننى لا أعتقد بوجود ذلك الخطر. فلم يكن هناك فرق أساسى على الإطلاق بين شعورين تداخلا فى نفسى، من حيث طبيعة كل منهما على الأقل، بين شعور الاستسلام الهادئ وبين شعور الخوف - ترى كيف يكون؟ - الذى يجب أن نشعر به دون شك فى اللحظة التى نواجه فيها موتا ماثلا.

هذا الهدوء العميق، بأى شىء أنا مدين له؟ بكثير من البهجة، بالتأكيد، وبخدر عميق أيضا. ولنتوقف لحظة لنعود بالذاكرة إلى الوراء، كنت أريد أن أشعر بتلك الأحاسيس التى شكلت ثروة خالدة فى معجم البشر. كنت أريد أن أتذوق - كما حدث لى فى سوريا - ذلك الشعور الذى نسميه "هدوء الصحراء". لكن لا هدوء هنا، بالمعنى الذى أريده على الأقل. فهنالك دائما نباح كلب، أزيز حشرة، لا شىء جديد، ولا شىء مختلف، باستثناء ملمس الهواء فى تلك الليلة عن ليالى لانجدوك وجويين Languedoc, Guyenne الفرنسيتين. إن هدوء الصحراء هناك.

بداية، هو موجود فى تلك المواجهة المباشرة حيث يتجرد المتحاوران مما يفقدهما طبيعتهما: فتتخلى السماء عن عصافيرها، وتتخلى الأرض عن أشجارها. فإذا ما عدنا إلى أصل الخلق، وجدنا عناصر الحياة فوق الأرض تبحث وسيلة بقائها، كما يبحث الثعبان عن مجرى تقدمه، و يأخذ الماء من ملوحته سر قوته، ويحتمى دير وادى النطرون بمنخفض من الأرض على بعد عدة كيلومترات غربا. يترامى سطح الأرض، لا يحده أى أفق: من بعيد، فى ضوء النهار، بينما تتمايز الأرض والسماء بسهولة، يقترنان داخل الضباب الذى تتداخل خلاله الحدود، وينتج عنه بعد ثالث. نمو، واضطرابات، واختلاجات، كل يدور، مع المدارين اللذين ينتظم أحدهما فوق الآخر، فى خلق، يفوق الخيال، بديع، هادئ.

وعندما يصبح الجسد فى حالة حركة، نفقد الإدراك بمقاييس الدوران، وتغدو الأحاسيس معكوسة. ففى هذه السيارة التى تنهب الطريق بسرعة كبيرة، وبدون رؤية أى اتجاه آخر سوى خط اليمين الأبدى كما يبدو لى، نرى هيمنة المشهد الجميل لاستدارة الأرض الضخمة السخية التى تحتضنها السماء. ومما ساعد على وجود هذا الإحساس وضعية الطريق، ونحن نعبر تحت قبة الكون التى تمتد منها طوال الرحلة تقريبا سلسلة الطريق الساكن، نتبين تلك المركبة الجميلة التى تتمايل بخفة يمينا، ثم يسارا، تتحرك بنا حتى عندما يشتد تمايل السيارة مع خطر بعض الممرات الوعرة، فنتخذ التدابير تحسبا لوضع الدوران عبر هذه المركبة السماوية التى تتأرجح معنا بهدوء فى جوف الليل.

ينتابنى إحساس بالنشوة عندما تقترب السيارة من القاهرة، ينزلق الطريق منتظما، ولكن بدون إمكانية رؤية شىء إلا انحناءة الأرض واستدارتها، وشيئا فشيئا، كلما توقعنا رؤية مشهد آخر يمكن اكتشافه أثناء هبوط الطريق، لا نرى أمامنا سوى هذا الجزء المدرك من استدارة الأرض، وكنا فى انتظار اللحظة التى نجد أنفسنا وكأننا ننطلق فوق لوح قفز بسرعة زائدة لنصل هذه المرة حقيقة إلى النجوم.

وفى قلب هذا الحلم الكونى، عندما تنعطف السيارة، نرى بعض الأضواء المتناثرة، وبعد برهة، تتخلى الأرض فجأة، ليس عن تلك النجوم التى نكاد نلمسها بأصابعنا، ولكن عن ذلك البساط المنير للقاهرة، آه! ما أروع العودة لأنس البشر! وحتى إن كان ثمة شعور ضئيل من الإحباط باستعادة الليل الحقيقى بعد هذا الإحساس المجنون بين الكواكب! وحتى بعد أن كنا قد لمحنا فى الأفق منذ قليل، فى نهاية المطاف، ذلك التكوين المبدع، فإنه بدا الآن أكثر وضوحا، وأكثر حرارة. وفى خلال لحظة، أصبح الاتجاه محددا ومعروفا، يختلج فى الليل، ويشع إشعاعا دخانيا...إنها الأهرامات.

٢٣ من نوفمبر مساء

عمل كثير، آلاف الأشياء يجب أن ترتب، ومشروعات، مشروعات كثيرة فى الانتظار. وهناك دائما فى كل مكان، فى الوزارات أو فى الجامعة، حفاوة الاستقبال، وقدر كبير من حسن النوايا، ودفء حقيقى ومودة.

أحرزت لغتى العربية تقدما، فكان اثنان من المثقفين يدرسان لى اللغة العربية ثلاث مرات أسبوعيا، وهما سيصيران فيما بعد صديقين، من يدرى؟ ولكن ياله من تقدير لفرنسا فى الفترة ما بين عام ١٧٨٩ و١٨٤٨، يبدو - وأنا فى الواقع أحاول تجنب الموضوعات المثيرة - أن الدراما الحالية يمكنها ألا تخلف أثرا كبيرا إذا استطعنا أن نحافظ على الصورة التى أعطيناها عن أنفسنا، وأن نجددها. نستطيع أن نصل إلى ذلك دون أية تنازلات، وأنا مقتنع بذلك.

قررت، من أجل أطروحتى، أن أتآلف مع السينما المصرية. شاهدت فيلم "التلميذة" وهو فيلم يوصف بأنه أكثر من ضعيف، ويحتوى على خلطة ميلودرامية، يصعب فنيا هضمها. فهو تافه، ومبتذل، ولا أعتقد أنه يخلو من بقية السلبيات. ربما كان موضوع الفيلم - وهو قصة حب بين شاب ثرى وفتاة فقيرة، تحاول الانتحارمن أجله، ثم يتزوجان فى النهاية - أو ربما كانت هناك موضوعات أخرى تُعْلِي من قيمة

الفضيلة، تثير أصداءً هنا أكثر مما تثيره في بلدنا القديم المحرر من الأوهام، وهو بلد، على الرغم من ذلك كله، يبدو لي دائما، فتيا من كثير من الجوانب.

كان البيت الكبير هادئا، الطفلان منهكان (فقد كانا في نهاية أسبوعهما الدراسي)، ونحن كنا كذلك منهكين. لم يكن هنالك حتى قطة تعبر الشارع. بعض الناموس يتطاير، أبصرت أشجار معهد الآثار الضخمة التي تتهادى في ظلمة الليل. يا له من هدوء.

السبت ٢٥ من نوفمبر

أغلق باب الزنزانة علي. وفي ركن، كان هنالك غطاء ووعاء صغير من المطاط للاستخدام المألوف. أخيرا، وجدت نفسي وحيدا.

كم كانت الساعة عندما دوى الجرس في الشقة الرحبة في بناية مدرسة الحقوق وفتحت الباب؟ كم كانت الساعة حين فتحت الباب وباغتني في وجهي رجال، بعضهم يرتدي ملابس مدنية، والبعض الآخر زيا عسكريا، وآخرون بزي مهمل، لم أعد أدري؟ وماذا عن الأيدي والأذرع والأقدام، والصفعات.. وجدت نفسي ملتصقا بالحائط، مثبتا، عاري الصدر و القدمين.... لا تتحرك... ارفع يديك.. وماذا عن "جانين"؟ ماذا سيفعلون بها؟ ومن هؤلاء؟ على مدى أربع ساعات، كنت أرتجف بصورة مخزية. قلت لهم إنني أرتجف من البرد، ولكن وحدك تعلم يا إلهي أنني كنت أرتجف من فرط الخوف.

كنت أسمع صوتك على مدى ساعات: " أنا مريضة، وتحت الملاحظة الطبية... أنتم مخطئون بالتأكيد....لو كانت الشرطة تعلم بالأمر كما تدعون، لما كنتم الآن هنا.... لا، لم يفعل زوجي شيئا سيئا....يمكنكم الضحك، إن الأمر يتعلق بأوراق تنتمي إلى الموظفين السابقين على زوجي، وهم أناس مسالمون على كل حال.

– وكيف عرفت؟

- لا يتولى منصب الملحقين الثقافيين الفرنسيين إلا أناس شرفاء...(وتوالت الضحكات....)

كان يأتينى كل هذا الحوار من على يسارى. كان لون الحائط رماديا. وقد سيطروا على كل أرجاء البيت، على المقاعد، والأدراج، ودورات المياه. ومع ذلك، فقد تركوا الأطفال وشأنهم استجابة لتوسلاتى. كانوا قد عصبوا عينى، ووضعوا الأصفاد فى يدى خلف ظهرى. كان شعورى بالبرودة يتزايد، وكذلك إحساسى بالخوف. وبمجرد أن أبدلت الساق التى أستند عليها بأخرى :

- لا تتحرك.... ألا تتحدث العربية؟

- العربية الفصحى، وليست العربية باللهجة المصرية.

- أنت كاذب! (صفعات أخرى. هل كانت "جانين" تسمعهم؟)

أزالوا العصابة، وسحبونى داخل هذا المكتب حيث كنت أضع أمس مخطط برنامج أبحاث أطروحتى. كم عددهم؟ ثمانية؟ عشرة؟ فى مقعدى، جلس، فى تراخ، رجل يرتدى ثيابا بنية تميل إلى الحمرة، وأخذ يعبث فى مسدس أبيض صغير. وكانت "جانين" تجلس فى مقعد آخر، هادئة الأعصاب، وبجانبها حارس مسلح أيضا. كانوا جميعا مسلحين. ماذا يجنون من لعبهم؟

- أنت تتكلم العربية؟

- لا، أنا أتكلم اللهجة الفصحى فقط.

- أنت كذاب.

- لم أكذب خلال حياتى كلها.

ضحكات، كانوا يسخرون من تحدثى بالفصحى، لغتهم، من هذه اللغة التى هى لغة وحدتهم كما يقولون، من الخليج العربى حتى الدار البيضاء! صمت مخيم، ثم يسألنى باللغة الإنجليزية :

- هذه الأوراق؟

- إنها أوراق قديمة من مدرسة الحقوق!

- كاذب!

- ترجمها، وسترى جيدا!

عدنا إلى غرفة الاستقبال، وأنا على حالتى؛ عارى الصدر والقدمين، معصوب العينين. إنه تفتيش لا أكثر، ولكن يا إلهى، كم هم بطيئون! أسمع ضجة الأدراج.

صوت يقول لى بالإنجليزية أثناء إزالة العصابة من فوق عينى:

- هذه الزجاجات؟

- إنها ويسكى، أنت تراها جيدا!

يرد وهو يضحك:

- أليس هناك حبر سرى؟

- ماذا؟

- وكأنك لا تعرف ما هو الحبر السرى؟

الرحمة يا إلهى! إنهم لمجانين! عم يبحثون؟ وعمن ولماذا؟

مرت لحظات طويلة من الصمت، ثم خطوة واحدة، فلكمة شديدة فى أضلعى. ابتعد وقع الأقدام. كانت هنالك الجلبة، والأدراج، وصوت "جانين". ولكنها لم تكن تصرخ، ولكن الطفلين أيضا نائمان دون شك فى ذلك. يا إلهى كم هو قاس كل ذلك. يكفى ذلك القدر.

فترة تمضى، تعلو ضجة جديدة : صندوق يحاولون إغلاقه، صوت قفل حقيبة. أزالوا العصابة من فوق عينى. كانوا جميعا هنا فى غرفة الاستقبال. "جانين" أيضا كانت موجودة ومعها ملابس؟ فهمت أنهم سيقتادوننى : ولكن إلى أين؟

- هل يمكن أن أعطيه زوجا آخر من الأحذية؟

– لماذا؟ هو لن يذهب إلى حفل استقبال (قالها بالفرنسية).

– أغطية؟

– نعم، سيحتاج إليها فى السجن!

اتضح الأمر، وعرفت أين سأذهب. أما عن بقية ما حدث، فهو كابوس. أزالوا القيود الحديدية من يدى حتى أغلق حقيبتى وأحملها، ولكن تبا لهم، عم يبحثون؟

غنمت بعض اللحظات الثمينة فى هذه العملية، وفى ارتدائى لملابسى (لم أرتد الساعة ولا رابطة العنق، ولا النظارة) وانتهيت من إعداد نفسى. وأعادوا مرة أخرى، وضع العصابة فوق عينى والقيود فى يدى.

– أين سيارتك الخاصة ؟ (سأل بالعربية).

– يتم تصليحها فى مدرسة كوبيه الفنية، وهى تخدم الخبراء الفرنسيين والدارسين المصريين، وباعتبارهم فنيين، فإن السيارة كانت قد تعطلت....(وهنا نطقت كلمة بالعامية المصرية من الكلمات النادرة التى أعرفها) فبادرنى بصفعة مدوية أوقعتنى أرضا.

– وهكذا تقول إنك لا تعرف العامية المصرية ! أيها القذر! سنجعلك تغنى بالعامية المصرية!

(كل هذا يتم فى مجابهتى).

وجذبونى من ذراعى، واصطحبونى معهم. وهنا وجهت إليهم كلمة أخيرة: أريد أن أعلمكم بأننى أحمل جواز سفر دبلوماسيا، وأنه فى الدول المتحضرة.... فباغتنى بصفعة أخرى، وأخذوا يتضاحكون.

– جواز سفر دبلوماسى؟ شىء مهم! ولكن ما فائدته؟

وساد صمت مع بداية مغادرة البيت. كنت أحس بوجود "جانين" من حولى دون أن يدور بيننا كلام. حبيبتى إذا كانت هذه هى نهاية سعادتنا، فعلى الأقل علينا ألا نريهم بأى ثمن ضحينا من أجلها.

نزلنا الدرج المغطى بالسجاجيد. ووصلنا إلى ردهة البناية. وصعدنا إلى سيارة، وجلسنا على المقعد الطويل، وقد تبينت من صوت المحرك أنها سيارة شرطة(بوكس)، ماركة فولكس واجن. وقبل أن نغادر الشارع، كان هناك صوت واهن يشق هدأة الليل يأتى من أعلى البناية : "حبيبى"، وقد فرض علينا هذا الصوت الواهن صمتا حادا. نعم يا حبى العظيم والوحيد، ولكن ابتعد، رحمة بى، ابتعد!

انتهى الأمر، وأصبحنا فى الطريق، شوارع، ومنعطفات، الدخول يسارا، ثم يمينا. لماذا كل هذا القدر من الانعطافات؟ حتى لا أتمكن من معرفة المكان الذى يقتادوننى إليه؟ ليتهم يعلمون أن الأمر سيان بالنسبة إلىّ. ترى سأتصل بماتى، بالسويسريين، لأبلغهم بنشيج باك، أكاد أسمعه الآن، أننى لم أفهم شيئا مما حدث.

توقفنا، انتزاع بالقوة العسكرية، سرنا خطوات، وصعدنا سلالم، دلفنا من أبواب، مكثت فى حجرة أغلق بابها. خيم صمت طويل، طويل. ضوء النهار أراه يتسلل إلى عينى من ناحية عبر ثغرات العصابة، ومن ناحية أخرى عبر انعاكسه على أرنبة أنفى. مرت دقائق، تلتها ساعات، ظللت خلالها واقفا. كان الجو باردا. وفجأة، ودون أى ضجيج يسمع، أو صوت باب يفتح، انبثق صوت.

* * *

غفوت للحظات، ثم أيقظنى شاب يرتدى ملابس بلون الكاكى الفاتح، قدم إلى قطعة خبز، وأغطية إضافية، وأمرنى أن أحييه تحية عسكرية فى كل مرة سيدخل فيها إلى. أشعر بالبرودة تخترق عظامى. ومن الكوة الصغيرة، ألمح جانبا من السماء الزرقاء. هل كانت الثامنة؟ العاشرة؟ منتصف النهار ظهرا؟

حتى هذه اللحظة، فإن كل ما مضى كان نعيما. فأنا وحدى، ومن حقى ألا أفكر فى شيء. وعلى الرغم من أنه حتى هنا....

باغتنى الصوت الذى جاء من خلفى، وفاجأنى بدخوله اللعبة بنبرة سلطوية. نعتنى بالقذر، ونصحنى بالحديث. وقبل أن أجيب عليه، فتح الباب، وسمعت أصواتا أخرى. وقبضت يد بقوة على طية السترة، وهزتنى بقوة إلى الأمام وإلى الخلف، ويمينا ويسارا، بينما صوت آخر(ربما كان الصوت نفسه، لست متأكدا من ذلك) يخيرنى خيارا حرجا: إما أن تتكلم، وفى هذه الحالة سيصير كل شيء على ما يرام، أو أن ترفض التعاون وعندها..... الصمت الذى تلا ذلك لم يمنح إحساسا بالتفاؤل.

وهكذا مر الاستجواب الأول، وعيناى دائما معصوبتان فى غرفة بدت لى شاسعة. كنت واقفا، وكنت أشعر ببرودة شديدة. وكانت هناك من حولى أصوات كثيرة، ودائما ثمة ضحكات. فى البداية، كانوا يتحدثون إلى بالعامية المصرية. لم أفهم شيئا، وقلت لهم ذلك. بعد عدة صفعات، تركوا لى حق الاستفادة من الشك، وتابعوا تحقيقهم بالعربية الفصحى أو بالإنجليزية، باذلين فى ذلك جهدا كبيرا. وقد استغرق الأمر أربعا وعشرين ساعة، حتى صباح اليوم التالى، وحتى وصولى إلى السجن.

– قل لنا ماذا تفعل مع ماتييه!

– أنا لا أعرف ماتييه.

أسدى إلى صفعة مدوية، قائلا :

– قذر، كاذب، خنزير فرنسى! ألا تعرف رئيس لجنة رعاية المصالح الفرنسية؟

– آه ! السيد ماتى! نعم بالتأكيد، أعرفه!

– حسنا! ستقول لنا بالتفصيل ماذا كنت تفعل مع اللجنة؟

شرحت بإسراف فى التفاصيل، على احتمال أن يكون هذا مفيدا، ولكننى كنت فى الوقت نفسه، أحس أن ذلك لن يجدى نفعا، وأنهم سيسخرون من هذه التفاصيل،

ولكنى غنمت لحظات ثمينة. تحدثت عن اتفاقية زيوريخ، والأساتذة، والخبراء، وعلماء الآثار، والكتب الفرنسية.

– ولكن لا يوجد شيء سرى على الإطلاق فيما قلت!

– بالتأكيد!

– كل ذلك هو الواجهة! اشرح لنا ماذا كنت تفعل خلف هذه الواجهة!

وفى هذه اللحظة، بدأ رأسى يدور. يا له من أمر متشابك! وفجأة فهمت.

– الجواسيس القذرون مثلك، يتم التعامل معهم كجواسيس إذا لم يتكلموا!

– لن أتكلم. كل ما قمت به، قلته لكم. حياتى تخلو من أى أسرار.

– ميكيل! ميكيل! نحن نعرف كل ما فعلته منذ وصولك إلى مصر، صباحا ومساء، كل ما قلته، بما فى ذلك ما يحدث فى غرفة نومك. (وتعالت الضحكات).

– هذا ليس صحيحا! لأنه لو كان حقيقة لكنتم تعلمون أننى لم أفعل أو أقل شيئا يمكن أن ألام عليه.

انهالت على الصفعات والضربات والدفعات ذات اليمين وذات اليسار. ثم مرت ساعات، كنت أبكى فيها، بلا شك، وأئن، وأصرخ، ويعلو صياحى شيئا فشيئا لأن هذا يضايقهم. ماذا قلت بالعربية لأقنعهم، وبالفرنسية لأهدأ من جنونى، لأقنع نفسى بأن كل هذا لم يكن سوى حلم؟ إنهم لمجانين، أما أنا فعلى حافة الجنون. لو كانوا يعلمون! لا، أنا لست جاسوسا، ولكن كيف أخبرهم بذلك؟ يا إلهى، إن هذا ليس ممكنا، ليس ممكنا، ليس ممكنا، سأستيقظ من نومى، لابد أن أستيقظ، سأستيقظ من نومى....ترى كم من المرات رددت هذه الكلمات وهم يضحكون؟ على الأقل، حتى وقت الظهيرة، لأننى سمعتهم يأكلون بوضوح، على بعد خطوات منى، وكنت لم أزل واقفا دائما فى منتصف حجرة كان يبدو لى أنها تزداد اتساعا.

وفجأة، سقطت عصابة عيني. ووجدت نفسي وسط حجرة مكتب رحبة وكلاسيكية، أثاثها معدني. تغطي أرضيتها سجادتان أو ثلاث، نوافذها مفتوحة. البرودة تعم المكان. كانوا خمسة أشخاص أو ستة. أزالوا عني، غير مبالين، السترة، والحزام، والسترة الصوفية، والحذاء. أي بؤس! عدت أرتجف من جديد.

أجلسني الرجل الذي يرتدي ملابس كاكية، وكنت قد رأيته بعد مداهمة المنزل وتفتيشه، في الجانب الآخر للمكتب. غادر الآخرون المكان، أما هو فقد مكث. وقال لي إن لديه وقتا كافيا. مرت لحظة طويلة من الصمت. هل كانت ساعة؟

– يجب أن تكون لطيفا ومتعاونا. ستكتب لنا اعترافا بالحبر السري. لن يكون له أي أثر، فسنحتفظ به في هذه الخزانة. لا تخف شيئا، ولا تخش الفرنسيين. هل تعرف ما هذا؟

– ليس لدي أي فكرة.

– سأكتب على هذه الورقة بعض العبارات القصيرة التي يجب أن تضعها جيدا في رأسك.

وكتب بالإنجليزية :

– أنت الآن أسير بين أيدينا... اقترف زملاؤك أخطاء..واعترفوا بكل شيء عليك وعلى أنفسهم... إذا تعاونت، سيصير كل شيء على ما يرام، وإن لم تتعاون، فالسجن مصيرك (وأنت تعلم القسوة في سجون مصر)، والإعدام شنقا. هل سمعت جيدا يا ميكيل؟ مشنوق، مشنوق...

– حسنا، مشنوق! أفترض أنني لن أكون أول برئ يشنق....

عبر النافذة، كانت شمس بعد الظهيرة تبدو شاحبة. كنا في الطابق الأول، وهو منخفض جدا. وفي نهاية الحديقة هنالك سياج. أهرب؟ ولكن إلى أين؟ يا إلهي ماذا يفعل السويسريون؟ يجب أن يعرفوا الآن ما حدث ؟ على الأقل أن.... جانين. لا، كل

شيء إلا هذا! ليدعوها وشأنها! وصغيراى كلود وبيير! لماذا لم يظلوا سعداء فى روما أو فى أثينا؟ لماذا أتوا وألقوا بأنفسهم فى التهلكة؟

خيم صمت، ثم صرير أبواب، ووجوه جديدة، وصفعات تتوالى. ثم، ياللهول! رأيت صورتي وصورة جانين! وجعلونى أقرأ: كان ذلك أمر التوقيف. ولكن لماذا هى؟ ففى الوقت الذى مددت فيه رأسى للأمام لأقبل حطام السعادة الضائعة، كانت الصورة قد اختفت من أسفل شفتى. لقد تمت خيانتى خلعوا خاتم زواجى من إصبعى، وأبقوه طويلا أمام عينى:

– بئس الأمر! سنظهر هذا الخاتم لزوجتك. وسيجبرها ذلك على متابعتنا، وعندما تصل إلى هنا، سنلهو جيدا نحن والحراس معها.

– حسنا! إن هذا سوف يجعل هناك بريئا آخر فى محصول الصيد! (صفعة. يا إلهى، ألهمني قصة يرضون عنها، ويمكنى أن أخدعهم بها، إن كانوا يريدون حقا اصطحاب "جانين" إلى هنا).

– وماذا عن أولادك؟ هل فكرت فيهم؟ ألا يمثل لديك شيء عندما تراهم يموتون أمام عينيك؟

– لقد قلت لكم كل ما فعلته. ليس هنالك أسرار فى حياتى. ومنذ وصولى إلى القاهرة، لم أقل شيئا، أو أفعل شيئا...

وبدأت مرة أخرى فى إعادة الكلام الرتيب نفسه، اليائس، عديم الجدوى. أعادوا إلى خاتم الزواج، فأحسست للمرة الأولى أننى ربحت.

– لتكن إذن عاقلا! اعمل معنا! (وظهر فجأة رجل أسمر، إنه، بلا شك، المترجم الذى يحدثنى الفرنسية). سنمنحك الجنسية المصرية، وسنجعلك تعمل فى جهاز المخابرات، وسنرسلك إلى سفارة من سفاراتنا بالخارج.

بارقة أمل! غنمت بضع دقائق أخرى!

- هل يمكنني اختيار الدولة؟.

- طبعا، بالتأكيد! قل لنا.

- دعوني أفكر! (مرت بضع لحظات). أمريكا الجنوبية؟ هل يمكن ذلك؟.

- بالتأكيد! أخيرا ثبت إلى رشدك! ها هي الورقة، وها هو القلم. تفضل، اكتب.

كتبت : " أندريه ميكيل..." ثم توقفت، وأرجعت رأسي بين كتفي.

كنت أنتظر صفعة من الجانب الآخر، من الرجل الذي يرتدي ملابس كاكية. ولكنها جاءت من اليسار، من جانب القادم الجديد. تظاهرت بأنها الضربة القاضية : ووضعت رأسي على المكتب. لم تنجح الحيلة، وجذبني من ياقة السترة إلى الخلف. أغلقت عيني، بينما صوت يصرخ في فوق جبهتي قائلا :

- نحن لا يمزح معنا! نحن لسنا الشرطة، نحن جهاز المخابرات، ونحن أصحاب الكلمة الآمرة في مصر، حسنا، مادمت عنيدا، سنفعل بك كل ما فعله البوليس الفرنسي مع المعتقلين الجزائريين. كم عددهم؟

- أجهل عددهم.

- خمسة عشر ألفا. وماذا فعلوا بهم؟ أنت. أنت وضعت في مكانك من أجل هذا!

- أنا لا أفهم شيئا مما تريد أن تقوله.

-حسنا! ما دام الأمر كذلك، سنعيد كل شيء من البداية. الاسم؟

- أندريه ميكيل.

- هذا غير صحيح. لقد انتحلت هوية شخص آخر.

- إنكم لمجانين ! (إلهي، أغثني!).

– الوصول إلى القاهرة.

– ١٤ من سبتمبر ١٩٦١ .

– غير صحيح ! (تلقيت صفعة). أنت تقيم هنا منذ عامين على الأقل! هيا، اعترف، نحن نعرف كل شيء!

– أنتم لا تعرفون شيئا، إذا كنتم حتى لا تعرفون أننى فى القاهرة منذ الرابع عشر من سبتمبر.

– قذر! (تلقيت صفعة) دعنا من هذا ! الجنسية؟

– الفرنسية، وأنتم تعلمون هذا جيدا!

– غير صحيح! أنت يهودى، وتعمل ضابطا فى المكتب الثانى الفرنسى!

– إنكم لمجانين! أنتم ترون من هؤلاء الضباط ضباطا من المكتب الثانى يبكون، ويئنون وهم يطلبون مساعدة أمهاتهم، وزوجاتهم، وأولادهم؟

– لعبتها جيدا يا ميكيل! أنت ممثل بارع! أين ولدت؟

–فى وسط فرنسا.

– غير صحيح! فى إسرائيل!

– لا، لا، لا! (صرخت، منكرا ذلك بالفرنسية، وقد أراحتنى الصرخة) وماذا لديك أيضا يا.....!

– وأنت أيضا فظ، مع هذا! (وهنا باشر المترجم عمله، وتدخل فى الحوار)، سترى ألوانا من المضايقات.

– افعلوا بى ما تشاءون...لقد أذعنت لكل شيء، وأنا الآن بين يدى الله.

– تتضرع إلى الله ! يا قذر، هل تعرف العبرية؟

- لا!

- ربما ولا العامية المصرية؟

- بعض الكلمات على الأكثر. أنتم لم تتركوا لى الوقت.

- حدثنا عن حياتك، وعن مهنتك.

بدأت بالحديث عن الفترات المبكرة فى حياتى، ولكنى غنمت قدرا يسيرا من الوقت. لم يهتموا بما ذكرت، لأسباب وجيهة، فقد كانت حياة نزيهة!

بعد أمر مقتضب، أعيدت العصابة إلى عينى. واستقرت القيود الحديدية فى معصمى الأيسر. ارتفعت قدمى اليسرى من على الأرض، وشعرت أنهم جذبوا كاحلى بقوة فى القيد الحديدى الثانى (لا، لم أصرخ، تبا لهم، فقد كانت عظامى ضخمة!). وها أنا ذا أقف على قدم واحدة، معصوب العينين من جديد. ويستمر الحال.

- تكلم.

- قلت كل ما لدى.

هوت على صفعة جعلتنى أقفز فى مكانى. انخرطوا فى قهقهة. وتركت نفسى أهوى على الأرض. نالتنى ركلة فى مؤخرتى. فرفعتنى يد، يد ضخمة، من ياقة القميص، دون جهد منها فيما يبدو. معجزة ! أمسكت بى! (يا إلهى، عند أى تفاصيل نتريث!) قفزت من جديد.

- أكمل.

- انتهى كلامى، كفى! افعلوا بى ما تريدون، اقتلونى رحمة!

- كلام مناسب أكثر من اللازم! هكذا سنخرج سالمين بعد حرب السويس؟

صمت.. وماذا أفعل غير ذلك؟ تركت جسدى ينزلق إلى الأرض من جديد. وساد صمت. ماذا يفعلون؟ وفجأة :

– أنت فى الحقيقة عنيد جدا يا ميكيل، ولكننا نملك الوسائل التى تجعلنا نجبر من نريده على الكلام. سترى فى الأسفل الزنازين التى نضع فيها الأشخاص من أمثالك. سترى فقط، ثم تصعد إلينا مرة أخرى لتقول لنا ما يجب قوله.

أمسكوا بى كالطرد من خاصرتى. صعدنا درجات سلم، تنزلق أقدامى من درجة إلى أخرى. فتحت أبواب، تناهت إلى ضوضاء إشارات أجهزة الاتصالات. ووجدت نفسى فى مواجهة حائط. عيناى معصوبتان دائما. عار من القميص، والجوارب، والسروال. يد معلقة فى مواجهة الحائط من ناحية اليسار، والأخرى معلقة ناحية اليمين. قدماى موثوقتان إلى الحائط أيضا، تبتعد كلتاهما عن الأخرى بضعة سنتيمترات. دفعونى إلى الأمام، فأصبح جسدى محملا على ذراعى، وفخذاى مصلوبتان متباعدتان. إنه لأمر غريب! كانت تراود عقلى أفكار ساخرة عن أفلام المغامرات التاريخية التى نرى فيها البطل الشاب يتصبب عرقا فى هذا الوضع : فى كهف، أو بجانب حائط. أغلق الباب، وظللت وحيدا. مرت كل هذه الأحداث فى صمت مطبق.

تولانى يا إلهى، تولانى! أأصرخ؟ ربما فيما بعد، كى أهدأ. فى هذه اللحظة، تولانى. ولكن، بعد عدة دقائق، كانت دهشتى الكبرى، أن الباب قد انفتح. وأطلقوا سراح يدى وقدمى. وارتديت من جديد السروال، والقميص، والجوارب. واصطحبنى حارس، يبدو أنه كان بمفرده. صعدنا إلى الطوابق الأعلى، أسير على قدمى هذه المرة. وسنلتقى بهؤلاء الذين عرفت منهم أنهم رجال جهاز المخابرات، وأنهم يعتبروننى جاسوسا !

* * *

من الزنزانة حيث أوجد، أسمع ضوضاء الشاحنات، والراديو، والعساكر وهم يؤدون تمارينهم الرياضية. أما إذا وضعنا مظهر الزنزانة جانبا، فإن المشاعر الإنسانية تبدو مألوفة. ومن الضرورى أن أنسى هذا الجنون الذى أطبق على، أن

أنساه! تفحصت تفاصيل الجدران، فوجدت نقشا باللغة العربية لمسيحى، دون شك، ما دام هناك صليب وكلمات تقول: "صل من أجله". ولكن غالبية العبارات الأخرى لمسلمين: "سامحنى يا ربى"! نعم، سامحنى على الأخطاء التى ارتكبتها فى حقك، ولكن هل فعلت بالناس قدرا من الشر حتى يعاملوننى كما فعلوا؟

عندما صعدت مرة ثانية من القاعة الصغيرة، وجدت فيها ستة أو سبعة أشخاص يبدو عليهم السرور.

– إذن، هل ستتكلم؟

– الرحمة بى! أقسم لكم أننى قلت لكم كل ما لدى!

– حسنا! سندخر الآن كلامنا.

أزالوا عن عينى العصابة. الوقت لم يزل نهارا، ولكنها، بلا شك، الدقائق الأخيرة من شمس ذلك اليوم البغيض، الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦١ . أقف ملتصقا بالحائط، مرتديا الجوارب، والقميص، والسروال. البرودة تزداد شيئا فشيئا، أشعر بارتجاف. حتى بطنى، يبدو أنها تخلت عن مؤازرتى. أطلب، منذ عدة ساعات، الطعام، والذهاب إلى دورة المياه، ولكن دون جدوى.

جبهتى فى مواجهة الحائط، وقدماى ترتدان أكثر فأكثر إلى الخلف، وجسدى يمتد مائلا. لسعونى بأعواد ثقاب مشتعلة تحت أنفى. ثم صبوا قطرات من الماء على القفا: هل دام ذلك خمس أو عشر دقائق؟ وعلى أيه حال، فقد كان زمنا، تكور فيه جسدى، ووقعت على ركبتى أسفل الحائط. نهضت، وعدت إلى وضعى. مرت دقائق أخرى، تكرر فيها المشهد نفسه.

ومن جديد، وقفت فى منتصف الغرفة، ووضعوا العصابة على عينى. الأسئلة نفسها غير المفهومة، وطرقات فوق المكتب مصحوبة بتغيرات فى حدة الصوت. التهديدات نفسها الخاصة "بجانين". توقفت عن الرد بطريقة متماسكة، وكنت أردد دون

كل: "غير ممكن، غير ممكن، كابوس، استيقظ، إلهى، جنون، أمى، موطنى، بلادى، بلادى الجميلة، "جانين"، الموت".

بدأت لعبة جديدة. عيناى حرتان بدون عصابة، جعلونى أجرى فى المكان. حسنا، يمكن للأمر أن يمر. اتخذت إيقاع الجرى لألف متر. أحسست فى قرارة نفسى بإحراز نصر ثان. وبعد ربع ساعة، طلبوا منى التوقف.

جلسة جديدة وأنا فى مواجهة الحائط، وقد حدث ما خفت منه :

– هل رأيت زنازيننا فى الأدوار السفلى؟ هذه المرة، ستخوض التجربة مباشرة.

لفنى صمت مطبق، ولكن يا له من خوف مريع يجتاح أحشائى! ذاك هو الأمر: نحن نفكر دائما فى التعذيب، نشأنا على رفضه، ولكن أنا، أنا أيضا، أنا بعيد عن كل شىء، سأتعرض لتجربته اليوم. إذا كانت نزعة الخوف قد زايلتنى، وإذا كان لدى شىء أقوله، فليذهب مدعو البطولة إلى الشيطان! بعد عدة صرخات، لم يبق لى سوى الإحساس بالبشاعة والراحة، اليأس من الكلام! ولكن أنا الذى ليس عنده شىء ليخفيه، أنا الذى قال كل شىء، ماذا بقى لى؟ أن أصرخ؟ هل أملك القدرة على ذلك؟ يا إلهى، إنها المرة الأولى التى أحس أنك قريب منى، الرحمة ! وأنتم جميعا، إخوتى، الذين تشاركوننى التفكير بنفس طريقتى فى هذه الزنازين !

تدحرجت على السلم مثل المرة الأولى، يطوينى ذراع أحدهم. الضوضاء نفسها، المظهر نفسه، ولكن إحدى قدمى هى الموثوقة. تفحصت يد بطرفها ورقة أو ريشة بطريقة منهجية الأماكن الحساسة فى جسدى. ولفترة طويلة كان بدنى يقشعر من هذه اللمسات الدنيئة. ثم رفعوا ساقى، وتفحص أظافرى؟ كززت على أسنانى... وانتظرت... ثم ترك الآخر ساقى يسقط، وألصقها بالحائط.

أزالوا العصابة من فوق عينى. ووجدتنى فى مواجهة شاب فى الرابعة والعشرين، أو الخامسة والعشرين من عمره؟

– يا ميكيل تكلم!

– قلت كل شيء!

– أنت كذاب!

– لا ! أنا رجل صالح!

– أنت كذاب [١] .

إلهى! إذا قام بصفعى فى كل مرة يتحدث فيها، إلام سنؤول؟ مرت دقائق من هذا الاستجواب الغبى الذى ليس له أى معنى لديهم أو لدى.

خارت قواى. وعندما رأيته يأخذ سوطا، أعلنت أننى سأتكلم. لبست ملابسى، دائما على عجل. صعدنا الدرج مرة ثانية. وجدت نفسى وحيدا فى حجرة مكتب، دون عصابة على عينى، والباب مغلق. الراحة، يا إلهى، الراحة. كنت أشعر بالبرودة، ولكنى كنت وحدى. هذا أمر حسن، ولطف إلهى. كان الوقت ليلا.

فتح الباب، كانوا كثرة، وجوههم سعيدة، وجوههم سعيدة، جهزوا ورقة وقلما.. وهكذا ذهبت مباشرة إلى لب الموضوع :

– كل ما قمت به، ذكرته لكم.

– قلت إنك ستتكلم!

– هذا صحيح. نعم. كنت خائفا (توالت الضحكات). أنتم متأكدون أن أحدا منكم كان سيبدو أكثر شجاعة منى لو كان فى الموقف نفسه؟

– القضية ليست هنا. ما رأيك فى الجيش الفرنسى؟

– هذا ليس من شأنكم. أنا فرنسى، وهذا كل ما فى الأمر.

– أنت عنيد دائما؟ ما اسمك؟

---

(١) هذا الحوار نقله البروفيسور أندريه ميكيل بالكلمات العربية مكتوبة بالحروف اللاتينية، وقد حرصنا على الالتزام بتعبيراته كما نقلها .

- ميكيل.

- ليس صحيحا! أنت يهودى!

- اعتقدوا ذلك إذا كان الأمر يسليك.

- هذا لا يسلينا، نحن نبحث عن الحقيقة.

وللمرة الأولى، أنا الذى أضحك...ضحكت ضحكة كبيرة، دون مبالاة بالصفعات! فهى تسقط على فى الواقع، ولكن من عدة أيدى. اطمئنوا : لقد اعتدت عليها.

- هؤلاء الفرنسيون، كلهم سواء! عصابة من الجبناء! لا يملكون الشجاعة للاعتراف بما يقومون به!

- يبدو لى أنه إذا كنت أنتمى إلى المكتب الثانى كما تعتقدون، فسأحقق شرف انتمائى بألا أقول لكم شيئا.

انتابنى الفضول، فلم يحدث أى شىء، وران الصمت على المكان، ولكن ليس لفترة طويلة. وضعوا العصابة فوق عينى، وأبلغونى بإحساس الظافرين أنهم سيجعلوننى أسمع صوتى، وأنا أتآمر مع زملائى بلفييه وماتى وموتن الذين اعترفوا، بدورهم، بكل شىء. انهمكوا فى تحضير معداتهم، ووضعوا سماعتين فى أذنى. قلت لهم إننى لا أسمع سوى خشخشة هائلة، لا أميز منها شيئا مسموعا. فضحكوا بازدراء، وانهالت على الصفعات.

- قذر! أنت لم تتعرف على صوتك الذى تم تسجيله من خمس دقائق فقط مع أصواتنا؟

- لا، كلمة شرف!

- الشرف! (ثم تلقيت صفعة جديدة).

رائع، وقت للراحة. هل رحلوا من هنا؟ لا، غير ممكن! لكن. نعم. إنها معجزة! لقد رحلوا من هنا! عيناى حرتان دون العصابة. أقف فى وسط الحجرة مع حارسين، أحدهما الشاب الذى أراه فى كل وقت.

- إذا لم أذهب إلى دورة المياه حالا، فسيكون هذا من سوء حظ هذه الحجرة الجميلة!

بدا الجزع عليهما والاضطراب، وخرج أحدهما، ثم عاد، وتحدث مع الآخر بصوت منخفض. وضعت العصابة فوق عينى، وأعطونى السترة الصوفية، والحذاء. واقتادونى من ذراعى، واصطحبونى إلى الطابق الأسفل. فى دورة المياه أسمع صوت المياه، وأشم رائحة مميزة، أجلسونى فوق مقعد المرحاض، أزلت ملابسى بتحوط شديد، لأن من سوء حظى أننى مختون، وهذه الجزئية البسيطة لو تم اكتشافها، سيتم ربطها بأسباب دينية وعرقية.

نجحت فى المناورة، وأحرزت نصرى الثالث الساخر والجذرى. وأحسست براحة بالغة. تحررت بطنى من أثقالها. ومن خلال عينى المعصوبتين، تساءلت عن الوقت فى تقديرى المبدئى، وتصورت أنه يمكن أن يكون بين منتصف الليل والثانية صباحا.

* * *

منذ برهة، فتحت الزنزانة. وبتعليمات من ضابط شاب يرتدى الملابس الكاكية، تخلى عن التزامه بمطالبتى بأداء التحية العسكرية، أحضر لى رجل يرتدى ملابس زرقاء، وهو فى الغالب سجين، وعاء بلاستيكيا. وفى خلال عدة ثوان، ظل الباب مفتوحا، ومن عمق زنزانتى، لمحت ممرا، وفى المواجهة، بابا يماثل بابى. أكلت سريعا، وتم حمل الوعاء وتنظيفه. أكلت نصف كمية الخبز، وقل شعورى بالبرودة، وتماسكت بطنى قليلا.

بعد عودتى من دورة المياه، أجلسونى فوق مقعد أمام الباب، وكانت عيناى معصوبتين دائما. كان جسدى منكمشا، ولامست يدى حائطا عن يمينى، فأسندت

رأسى إليه، لا أفكر فى شىء سوى الراحة، واستعادة قواى. أشجع نفسى: "هيا يا صغيرى، استعد قواك، استعدها دون تفكير فى أى شىء آخر". مرت ساعات هنا، فى الجو البارد، ولكنى، على أية حال، كنت جالسا. ومن وقت لآخر، كان أحدهم يأتى لإلقاء نظرة على المكان. وغالب الظن هو الرئيس، لأننى أسمع جلبة المقاعد، ويجعلونى أقف. وأحيانا، كنت أظل واقفا فى ركن من الحائط، وينغلق الباب وحده. يهيئ لى أنهم قبل أن يجلسونى يحرقون أوراقا فى المكان، وينبعث منها دخان، وسواء كان ذلك بنية سيئة أم لا، فلا يهم، فالأمر محتمل.

يبدو أن بعض الحراس ينامون هنا على أسرة المعسكرات دون شك، لأن أصواتهم تتناهى إلى من أسفل حتى عندما أكون جالسا. فقد استطعت أن أعرف الجميع وأميز بينهم، فالضباط والرؤساء هم من يستجوبوننى، أما الآخرون فهم الحراس، أيا كانت قيمة هذا التميز. ولكن الموقف فى مجمل الأمر يتحسن، باستثناء المواقف التى أشرنا إليها. أستمع إلى الحراس يتضاحكون من حولى، ولكن هذا لا يهمنى كثيرا. كان الصمت مطبقا، وقد انتابنى الضيق من هذه الاستراحة التى طالت. ترى ماذا يخفى هذا الصمت وراءه؟ وفجأة حدث شىء رائع. سمعت لأول مرة جملة إنسانية، وندت أول إشارة للأخوة عن حارس قال لى شيئا بما يعنى: "احك لنا عن حياتك يا ميكيل!"، ورد عليه الآخر: "دعه وشأنه، اذهب". إن هذا الصوت عندى لمن تبريكات الأرض والسماء.

مضت ساعات على هذا النحو فى هذه الحجرة. ثم أوقفونى، وسحبونى إلى الطابق الأعلى. أعادوا إلى سترتى الواقية من المطر، وأربطة الأحذية. هبطنا مرة ثانية، وركبنا سيارة أمكننى التعرف عليها من جديد: "بوكس" فولكس فاجن. هل هى السيارة نفسها التى أقلونى فيها عندما اصطحبونى من المنزل منذ زمن أصبح بعيدا الآن؟ أم إنها واحدة من أسطول خفافيش الليل الصماء العمياء الغافلة التى تأتى لتقتلعنا، وتلقى بنا فى غياهب الظلمة؟

ذهبنا فى الليل، كنت أرتعد على نحو فظيع، لدرجة أن الحارس الذى يرافقنى ترك ذراعى، وأحاط كتفى بيده، وضغط على بقوة ليدفئنى، والتصق جسده كله بى، وتناول

يدى بيده الأخرى قائلا: "اهدأ، اهدأ" آه، هذه الإيماءة الحسنة التى كنت أود التعبير عنها بطريقة مختلفة، بطريقتى الخاصة، وأنا أحاول أن أنقل إليه شعورى بالامتنان، بل بصداقتى الدافئة، تجاه ما يمكن أن يقدمه كائن إنسانى لآخر، هنا أو هناك، قوبلت بإشارة مخجلة ورغبة متدنية، وأجبت عن هذه الرغبة، بإبعاد جسدى عن هذا الجسد، وسحب يدى من بين هاتين اليدين الأخويتين.

وداخل عربة الجحيم التى تنطلق بأقصى سرعة فى الليل، حدثت معجزة، إذ صرخ صوت قائلا: -"هل يوجد من يتحدث العربية هنا؟"، - نعم، وما كدت أنطق حتى أغلق حارسى فمى بطريقة آمرة، ولكن دون خشونة وغلظة. يا لها من معجزة ! أنا لست وحدى. ففى الوقت الحاضر، لا أعرف سوى شىء واحد، ونتيجة بسيطة : لست أنا وحدى إذن ضحية هذه الكارثة التى تستعصى على الفهم. فبعض زملائى الفرنسيين معى فى هذا الموقف. وهنا حيث أذهب، يصحبنى صوت، سواء أكان ينتمى إليهم أم لا، فقد أضاء ليلى.

وصلنا، وأخرجونى من هذه العربة الملعونة. تسرب إلى ضوء باهت، على جانبى أنفى، من أسفل العصابة. إنه فجر يوم السبت. داعبنى هواء منعش، وتنفست فى دفعات عميقة، كمحكوم عليه بالإعدام فى صباح يوم وليد. وبينما تنعقد فى ذهنى هذه المقارنة، تتناهى إلى خطوات الجنود، ثم تتوقف أمام أفراد القيادة. يكفى هذا القدر. إنه الصباح الوليد، وساعة الموت رميا بالرصاص. يا إلهى هل انتهى كل شىء؟ من ٢٦ سبتمبر ١٩٢٩ إلى ٢٥ نوفمبر ١٩٦١ . فإذا كنا لا نعرف لماذا نموت، فعلى الأقل نموت بطريقة جيدة. وأنا الذى كنت أعتقد أننى أملك القدر الضرورى من الوطنية. إن سؤالا واحدا ينقض على ويهاجمنى : هل ستغلقون فمى؟ هل أستطيع أن أنشد النشيد القومى "المارسيلياز"؟ ضحكت من خواطرى. انتبه! لم تعد تفكر فى "جانين"، ولا فى "كلود وبيير". أنا وحيد، وآلاف الأشياء تجول فى الرأس. وهكذا خلال عدة لحظات سيكون حالى مع القاضى الذى سأمثل أمامه كحال من لا شفيع له ولا نصير كما ذكر القرآن.

وقد تبينت أثناء مروري الآن أن الإيمان مازال يسكن في أعماقي. أخذني دوار....ساعدني أيها المسيح. وفيما أبعد من هذه البنادق، من يستدعيني؟ إنني أرفض أن أموت، وأن أرضي هؤلاء الوحوش. عندما أنهار وتخور قواي الآن، سأصرخ مرة أخرى داخلي : أيها المسيح الكريم، بك أنت، ومن أجلك أنت، أنا أجاهد. هل سأتعذب؟ لا، بدون شك، سيمر الأمر بسرعة البرق. سيمزقونني دفعة واحدة (الرأس؟ أم الصدر؟) ولكني سأحظى دون شك، قبل رصاصة الرحمة، وبعد صمت طويل بأول خفقة من الخلود. تحضرني نهاية رواية "الصوت الملكي"، وكذلك نهاية رواية "كاهن الريف" التي جاء فيها: "إن الموت غير موجود، فلا يوجد سواي من سيموت! – ماذا سيفعل ذلك؟ كل شيء نعمة !". كل شيء نعمة، يا لها من سعادة ! لأنه من الصعب إلى حد ما مغفرة الأذى الذي يلحق بالمرء؟ آه ! بالتأكيد، ولكن ليس في هذه البلدة، ليس عند هذا الشعب الذي أعرفه بالكاد، ومع ذلك أكن له حبا. ولكن ليس عند هؤلاء الوحوش، وحوش الليل الشريرة الذين لا ينتمون إلى هذه الأرض، ولكنهم ينتمون إلى عالم ميت، نظن قطعا أنه عالم بلا قلب.

وبينما تتوالى خواطري، أوقفت انسيابها يد قادتني من ذراعي بعيدا عن الهواء المنعش. وبعد اجتياز أبواب، أزالوا العُصابة من فوق عيني، ودفعوني إلى هذه الزنزانة حيث أجد نفسي الآن أصم كما لو أن سماء من الرحمة قد سقطت فوق رأسي. قبل أن أتمدد على الأرض، ودون تفكير، وقبل أن أغرق في النوم، سمعت صوت محرك سيارة الفولكس فاجن يهدر في الخارج. وبدأت أقدر الوقت وأحسبه: ليل الخميس ٢٣/ الجمعة ٢٤ من نوفمبر، ثم فجر السبت ٢٥ من نوفمبر. أربع وعشرون ساعة من الاستجواب. إنه العبث وغير المعقول. إنه عالم كابوسي. تلففت في الغطاء، وشعرت بالدفء، الدفء.. يا لها من متعة. كنت غائبا عن الوعي. الرحمة يا إلهي. أخيرا، استعدت نفسي. لا يجب أبدا أن أفكر في شيء آخر سوى نفسي.

* * *

ليل السبت / الأحد ٢٣ من نوفمبر

اعتقدت أن الكابوس قد انتهى. يا لغبائى! كان الوقت يقترب من منتصف الليل تقريبا عندما فتح الباب. كنت نائما، نمت حقا لبعض دقائق دون شك. اقترب منى الجندى الشاب الذى يرتدى اللون الكاكى، وقال:

– ما اسمك؟

– ميكيل.

– ارتد ملابسك.

وضعوا العصابة فوق عينى، وركبنا الفولكس فاجن. ترى أين أذهب؟ اجتزنا طرقا، وقطعنا شوارع، ومشينا على أرض مرصوفة، ثم دخلنا منحنى. توقفت السيارة. امتدت أذرع، وأمسكت بى أياد. سمعت أصواتا، وصعدنا سلما، فتحت أبواب، وأغلقت. أزالوا العصابة من فوق عينى. كانت حجرة مكتب أخرى، ولكن يا له من مكان مقزز! يتشابه مع مكان الأمس! إلى متى يا إلهى تستمر هذه الحال؟ إلى متى تستمر؟

بدا الأمر بالوقوف من أول النهار. كانوا قد سمحوا لى بارتداء معطف المطر الخفيف، ثم دخل محقق، يرتدى قفازا جلديا فى يده اليسرى. وبدأت الدوامة، ولكن هذه المرة دون صفعات.

– الاسم؟

– ميكيل.

– الصحيح !

– أندريه ميكيل.

– كما تريد. ماذا يعمل أهلك؟

– كان أجدادى فلاحين، ولكن والداى مدرسان.

– غير صحيح ! والدتك يهودية، أليس كذلك؟

– والدتى المسكينة ! اتركوها فى حالها. سواء كانت يهودية أم لا، نحن فرنسيون أبا عن جد.

– نشاطاتك فى فرنسا ؟

– أعمل فى قطاع الشئون الثقافية بوزارة الخارجية.

– وأنشطتك الأخرى؟

– ليس لدى أنشطة أخرى.

– أنت ظابط فى المخابرات. نحن نعرف ذلك.

– أنا ضابط، نعم، ضابط احتياطى فى سلاح مشاة الجو.

– ما اللغات الأجنبية التى تعرفها؟

– أعرف العربية الفصحى، وقليلا من الإنجليزية، ومن الإيطالية، ومن الألمانية.

– وما فائدة كل هذه اللغات لك؟

– تفيدنى فى قراءة الكتب الأجنبية العلمية التى أستعين بها فى إنجاز أبحاثى وأطروحتى.

– كنت أعتقد أنك تنتمى إلى وزارة الخارجية؟

– أنا أكاديمى وأعمل ملحقا ثقافيا بوزارة الخارجية.

– آه ! حسنا ! أنت لست إذن دبلوماسيا ؟

– مهنيا لا، ولكن أنا حاليا أنتمى إلى وزارة الخارجية، وأتمتع بالامتيازات الممنوحة عادة للدبلوماسيين فى كل بلاد العالم.. عدا مصر.

أنا لن أفهم هؤلاء الناس أبدا. لم يعد المحقق مرة ثانية. نهض، وتركنى وحيدا. كنت واقفا، ولكن بمفردى. يبدو أنها فترة راحة. كما كان هناك سببان يدعوان للأمل. فمنذ قليل، بعد أن غادرت السجن، وركبت السيارة الفولكس فاجن، سمعت سؤالا

يطرح في الخارج بالإنجليزية : "ما اسمك؟"، ويرد صوت حاد أعرفه جيدا : "اسمى أندريه ماتى". ليباركك الله رئيسى السابق فى العمل من أجل هذا الصوت الذى أنار لى هذا الصباح الحزين.

- "انتبه، اصعد!" جلس أمامى. همست قائلا : "أيها الرئيس؟ أيها الرئيس؟ أنا خلفك، الثقافة!" وبنفس نبرة صوتى المنخفض قال : "ميكيل؟". - نعم، وتنفست الصعداء.

ثمة سبب آخر منحنى الأمل. هو سبب ضعيف، ولكنى أتشبث به : لقد تمت معاملتى بقسوة، وتعرضت للضرب، ولكن لم يتم التنكيل بى بالمعنى القبيح والمطلق للكلمة. فإذا لم أكن قد وصلت إلى هذه الدرجة، فربما يرجع ذلك إلى أنهم قد تلقوا أوامر بعدم التنكيل بى. وفى كل الأحوال ليس قبل أن يستنفدوا كل السبل الأخرى. وبينما أنا أفكر فى كل هذه الأمور، دخل إلى حجرة المكتب، وأحسست أن "ماتى" هناك فى مكان ما فى هذا المكان معى. واكتشفت فى نفسى شيئا من الاعتياد على هذه الحياة الجديدة، ذلك لأن الأمر يتعلق بالحياة أى بالزمن الذى يبدو معلقا، متوقفا. كما لو كنت دائما وحيدا. والواقع أننى أجد نفسى منجذبا إلى هذه الفكرة.

دخل رجل آخر إلى حجرة المكتب، أعيدت العصابة فوق عينى، ووجدت ذراعا توضع فوق يدى، واقتادونى إلى أسفل. وعندما أزالوا العصابة، رأيت بعينى الصالة الصغيرة التى اجتزتها أمس. كنت أميزها بحلقات حديدية مثبتة فى الحائط. ظللت، هذه المرة، مرتديا معطف المطر الخفيف، وكانت يداى وحدهما مقيدتين. وبعد أن رسمت الصليب اللاتينى سانت أندريه. ها نحن نحرز تقدما، ولكن على الرغم من هذا التقدم، فقد رأيتها قبل أن يجلسونى ملتصقا بالجدران.

إنها بقع الدماء والعرق والدموع، رأيتها بقعا رمادية وحمراء، وقد رسمت آثار الأجساد التى سبقت جسدى. تطالعك نقطا شديدة السواد، ترقط مكان الرأس (ترى هل هى الجبهة؟ العينان؟ الأنف؟ من يدرى؟) ومكان الصدر، وبقية أعضاء

الجسد، ثم الركبتين والكاحلين. مسكين أيها الظل المسحوق الملطخ، وبعبارة أكثر تحديدا، المطبوع على الحائط، المستباح. ترى ما الرقم الذى سأحمله أنا فى هذه القائمة الدوارة، فى سجل نزلاء ومعتادى هذا الكهف الخانق الذى لا يعرف للهواء طريقا.

حتى هذه اللحظة، مرت ساعات دون أن يحدث شيء. ظل باب القبو مفتوحا، وفى الحجرة الأخرى حارسان يتبادلان الحديث عن المطر أو الجو اللطيف. ومن وقت لآخر، يدخل أحدهما ليكرر، دون كلل، الأسئلة الدائمة، والدعوة المتواصلة للكلام. يرتدى أحد الحارسين الشابين سترة صوفية، أما الآخر، فيبدو مهندما، وجهه مثلث، وعيناه تبدوان حيويتين. ولا يجدان منى سوى إيماءة بلا، يؤكدها رأس يتحرك ذات اليمين، وذات اليسار. واصلت أنين الأمس الذى أؤكد من خلاله براءتى ودهشتى.

ثم بدءا يشرحان لى أن ما يفعلانه بى هو باسم الجزائر، وبن بيلا، وفى سبيلها. لم يكن لدى تفسير آخر لما يحدث سوى ما يقولونه. فعلى افتراض أننا نستطيع أن نطلب من شهيد إمكانية قبول قتل شخص آخر باسمه، فإننى أشك بشدة أنه يمكن الحصول من هذا الشهيد، أيا كان، على نتيجة إيجابية. قلت لهم ذلك بلغتى العربية الفصحى الواضحة، وقد أضفت أيضا كلمات من القرآن تقول إن الله مع الثابتين، الرابطى الجأش. ويبدو أنهم فهموا جيدا ما قلته، ما داموا قد انفجروا ضاحكين.

سأعلق إذن، كما أفهمونى، من أنفى على خطاف، وسيعهدون بى إلى متخصصين من النازيين الذين "يعملون" فى مصر. ستسلخ فروة رأسى، وسأشوه. وإذا كان مزاجهم هادئا، وهذا يتوقف على، سيرسلوننى إلى عائلتى دون عينين، أو ربما بعين واحدة فى بعض الأحايين، كان التهديد بالضرب بالهراوة على كبدى، وكان التهديد بصوت مندفع عال... كل هذه الصور المختلفة للتهديدات كانت تتخللها ضحكات، وصيحات، وسباب، وفقا لما يتطلبه الموقف. وأحيانا كانت أعقاب السجائر تقترب من جسدى. إلى أى مدى ستقترب؟ يا إلهى، أخبرنى أننى لم أكن مخطئا، أخبرنى أنهم

يخادعون، وإذا لم يكونوا كذلك، فالموت إذن، الموت السريع، ولكن أبدا أبدا لن أعود مرة ثانية إلى أهلى هزيلا مشوها. كنت قد وصلت إلى درجة من الأمل عندما ومضت كالشهب فكرتان فى ذهنى. حاولت أن أقوضهما.. فكرتان مريرتان: ماذا لو تم حقنى بمادة تقوم بعملية غسيل لمخى؟ آه! أنا لا أخشى الاعترافات، فقد قلت كل ما لدى، فضلا عن أنه ليس عندى ما أخفيه، ولكن إذا كان جسدى سجينا الآن، فإن عقلى سيكون سجينا أيضا، وستتضاءل إمكاناتى العقلية؟ يا له من أمر قبيح لم أكن قد لامست جوهر الحقيقة كما أنه يمكن أن يتم التنكيل بى، على الرغم مما كنت أعتقد بشأن هذا الأمر من سيمنعهم من فعل ذلك؟ ثم أُصاب برصاصة، ويقيد الأمر رسميا باعتباره محاولة للهروب.

إننى أعرف الآن بالضبط معنى اليأس، عندما لا يكون هناك ملجأ وحدود وبارقة ضوء. تُرى كم مر من الوقت وأنا جالس هكذا ومقيد اليدين؟ حينما صعدت مرة ثانية إلى حجرات المكتب فى الدور الأول كان الليل قد حل، وقد اندهشت عندما حاولت معرفة الوقت، وكانت حركة السيارات فى الشارع قد هدأت هل كانت الثانية صباحا؟ وفى تلك الأثناء، جعلونى أقف منتصبا لفترة طويلة فى حجرة مكتب أخرى تكتسى بالغبار فضلا عن صوت بليفيه الذى تناهى إلى، وهو يتشاجر، مع جلاديه «سيكون مصيركم سيئا، أؤكد لكم، احذروا نحن دبلوماسيون»

ثم توالت الضحكات.

هل تعتقد أن ديجول سيمد حمايته لك حتى هنا؟

على أية حال، إنها القوانين الدولية التى ستوفر لى الحماية، أنا اعترض على طريقة المعاملة.

كانت هناك جلبة تصدر عن نقل قطع أثاث مقاعد تسقط، ووطء أقدام مرتبكة. لم أكن وحدى فى المكان نفسه. أيا صديقى المسكين، ليتنى أستطيع على الأقل أن أستمع إليك.

لم تدم سعادتى بذكر ماتى، وبحضور بليفيه، فقد انفتح الباب، وجاء محققون جدد، ومترجم شاهدته من قبل، أخبرونى أننا سنلعب جميعا اللعبة الكبرى.

ظهر فجأة جهاز تسجيل؟ من أين؟ أصوات متداخلة مشوشة. رفضت أن أفصح عن معرفتى بأى صوت. انهمرت علىَّ الصفعات من جديد مصحوبة بالسباب. وفى محاولة لإقناعى، أحضروا ملفا، كتب عليه بالعربية چون بليفيه يضم اعترافات بليفيه عنى. طلبت منهم مواجهتى به، ضحكوا كثيرا. باشر جهاز التسجيل عمله، وصدر عنه صوت. اعترانى الذهول عندما أخبرونى أنه صوت بليفيه. احتوانى صمت كبير، وزفرة عميقة. كما لو كان هذا الصوت ظهر متقطعا، ولكن من بعيد جدا غير محدد، وأوضح قائلا: «ميكيل كان لديه نشاط سرى». سدد جلادى إلىَّ نظرات منتصرة، وفاض داخلى كيل الكابوس والذهول والعبث. لم أستطع سوى قول :

– مستحيل، مستحيل، اقتلونى، ولكن لا تجبرونى على معرفة ما هو ليس صحيحا.

– إذن، بليفيه يكذب؟

– هذا الصوت الذى سمعته الآن يكذب، واجهنى بزميلى.

– وإذا أكد أمامك اعترافاته؟.

– واجهنى به.

– ولكن إذا أكد اعترافاته؟

– واجهنى به.

– أجب، يا قذر.

– واجهنى به.

كانوا على حافة نوبة عصبية. ران صمت، تحدثوا خلاله فيما بينهم وتشاوروا. ترى ماذا سيفعلون بى؟ غادروا المكان، وتركونى وحدى مع الحارس الذى يرافقنى فى الصالة الصغيرة فى الطابق السفلى. نهضت، فقال حارسى:

– اجلس.

– أنا رجل مهذب.

ترى هل فهم ما أعنى؟ ابتسم ثم جلس.

أحرزت نقطة، نقطة ضعيفة وثمينة والآن أغلقت عينى، استعدت عادتى، وهدأت، وتنفست بهدوء، وأرخيت أعصابى.

أعادوا وضع العصابة فوق عينى، وأدخلونى إلى حجرة مكتب أخرى، وكان هناك بلا شك عدة محققين وجهوا إلىّ الأسئلة نفسها، والتهديدات ذاتها، وأعادوا علىّ عباراتهم المكررة: بليفيه كان قد قال، وموتن أكد أن.

– هل هم أعداؤك؟

– ليس لدى أعداء.

– إذن لماذا صدرت عنهم هذه الاعترافات؟

– هل فعلا فعلوا ذلك؟

– هل تشك فينا؟

ران صمت. – وماذا بعد؟

– واجهنى بهم.

– أنت عنيد، ما دمنا نقول لك.

– أنتم وحدكم الذين تقولون ذلك، أريد أن أراهم يقولون ذلك أمامى.

– ما المهمة التى جئت من أجلها إلى مصر؟

– لقد ذكرت لكم من قبل، وأنتم تعلمون كل ما قلته أو فعلته، كما أنتم تعرفون كل الأشخاص الذين رأيتهم والتقيت بهم فى إطار مهمتى.

- كل هذه الأمور مجرد واجهة، ما هو نشاطك بالضبط، نشاطك الحقيقى، التجسس، أليس كذلك؟

- إذا كنت جاسوسا، هل كنت أستطيع أن أصطحب زوجتى وأولادى الذين أحبهم حبا جما معى إلى هنا؟

- ماتى هو جاسوس أيضا، وقد اصطحب معه عائلته، ألا يحب عائلته إذن؟

- أنا لم أقل هذا.

- وأنت، اعترف عليك زملاؤك، فاعترف عليهم أنت أيضا بدورك، أيها الأحمق، اعترافك هو الوسيلة الوحيدة لخروجك من هذا المأزق.

يا إلهى، إذا كانت هذه هى الحقيقة. إن اختلاق قصة كهذه هو محاولة بشعة لإنقاذ «جانين والأطفال» ترى ماذا لو أنهم جاءوا بهم أمامى؟ ماذا سأفعل؟ ربما كانوا مازالوا يخادعون حتى الآن؟ يا إلهى الرحمة، الرحمة من أجلى.

- إننى لا أستطيع أن أعترف فيما يخصهم إلا بالحقيقة، وكل ما أعرفه عنهم، قد ذكرته لكم من قبل، أما ما تذكرونه فهو أمر سيىء.

- أنت تحاول حمايتهم؟ إذن أنت الرئيس؟

- رئيس ماذا؟ يا إلهى؟ أحمى من؟ أقسم لكم بكل مقدس أننى لا أفهم أى شىء، أى شىء، أى شىء من هذا كله، هل تسمعوننى؟ لا شىء، لا شىء، لا شىء.

انخرطت فى البكاء، وازداد صراخى شيئا فشيئا وأنا أردد لا شىء لا شىء وبالطبع فإن صوتى العالى قد أزعجهم وخاصة أننا كنا فى الطابق الأول.

أصابت توقعاتى، فنلت صفعة أخرى على وجهى، وانتهى الموكب المعتاد من السباب والاستجوابات. تركونى هنا، أجلس الآن مع حارس. تناهت إلىّ أصوات، ووقع خطوات، ولكنى أنعم بالهدوء.

وتكرر الطقس نفسه، اقتادونى إلى الخارج، هبطنا الدرج، ركبنا السيارة الفولكس فاجن. هذه المرة باركت هذا الطقس المعتاد، لأننى أعرف من الآن فصاعدا أن بين كل استجواب وآخر سأنعم بزنزانتى، وعلى الأقل لن أتعرض للتعذيب. هذا أمر حسن، رحلة الأمس نفسها، أصبح من السهل معرفتها.

عند الوصول، أزالوا العُصابة من فوق عينى، فور خروجى من السيارة تحت جُنح الليل، رأيت مبنى ممتدا وقصيرا، فى مقدمته فناء واسع. كانت الأرض صلبة، وهناك كلاب بوليسية. استقبلنا خفير، يغطى رأسه بشال من الصوف. تعتلى المبنى لافتة مدون عليها "سجن حربى". شرح لى رجل يرتدى ملابس مدنية ويضع نظارة على عينيه، أن الزنزانة ستتغير، وستكون فى اتجاه الجنوب حتى تدخلها الشمس، وأن هناك سريرا وثلاثة أغطية تحت تصرفى. شكرته، وقد بدأت ألف عالمى الجديد. اصطحبنى العسكرى الشاب الذى يرتدى اللون الكاكى إلى زنزانة جديدة تتشابه مع الزنزانة السابقة عدا اتجاهها. حتى هذه اللحظة، لم أتبين تفاصيلها، فقد انزلقت أسفل الأغطية، ونمت على الفور فى الخارج كان صوت الفولكس فاجن قد ضعف.

مساء الأحد ٢٦ من نوفمبر منتصف الليل؟

يوم هادئ فى مجمله. فى نحو الثانية أو الثالثة بعد الظهيرة تقريبا، ركبنا سيارة كبيرة، لاشك فى أنها أمريكية. وجلست على المقعد الخلفى، معصوب العينين. كنت أعتقد أن عدم عودتى مرة ثانية إلى جهاز المخابرات يعد نوعا من المعاملة المميزة، وأن جولاتى قد انتهت. وصلنا إلى هناك، وقضيت اليوم كله تقريبا فى الانتظار، تارة جالسا، وواقفا تارة أخرى، وكانت عيناى دون عصابة، وكان الانتظار أحيانا فى حجرة مكتب من مكاتب الدور الأول، وأحيانا أخرى فى قاعة صغيرة فى الأسفل. لم أكن مقيدا، أستطيع أن أتبين الأماكن من حولى أثناء جلوسى. فى الأسفل، هناك قاعتان صغيرتان لهما المساحة نفسها، والتصميم الكئيب نفسه، ولكن فى اتجاهين مختلفين

بالنسبة إلى باب الدخول الذى يفضى إلى قاعة مشتركة مكونة من جزءين. الطوابق فى الأعلى، حجرات مكتب متباينة الأشكال، بعضها تكتسى أرضيته بسجاد، والبعض الآخر عار، بعضها معتنى به والبعض الآخر بدون اعتناء، بعضها حُولت إلى حجرات لغرض آخر، والبعض الآخر بقى كما هو. من النافذة شاهدت بعض الأشجار، وتطلعت إلى السماء. ينتابنى إحساس بالظهور، ولكن كم من الوقت سيستمر؟

فى الأسفل توجد القاعات الصغيرة التى تقع فى الطابق الأرضى، وكنت أظن أنها تقع أسفل الطابق الأرضى، كما يوجد موقف للسيارات، وهو عبارة عن قطعة واحدة، يبدو أن به راديو يلتقط الإرسال، نظرا للضوضاء المميزة الصادرة عنه.

تلتف حديقة حول البناية، ويفصل طريق الدخول، وهو دائرى قصير، بين البناية والطريق العام الإطار العام للمكان ريفى بسيط، يحيط به حى سكنى، وتتناثر الأشجار فى كل أرجائه، ويطل على طريق متسع. هنا يموج الداخل بوقع الخطوات، وبالأبواب الموصدة، وتتعالى فيه الأصوات صباحا ومساء

يأتينى صوت «بليفيه» من أماكن متعددة خضعت لعدة استجوابات اليوم، وجهوا إلىّ بعض الأسئلة، ولكن دون صفعات. كان استجوابا قصيرا كما لو كانوا يقومون به شكليا فقط. والواقع أن الحديث الرئيسى كان هو الذى تبادلته مع الحارس، وكان حديثا مجديا صادقا وضح لى الفروق الأساسية بين العربية الفصحى والعامية فى مصر. كان الغروب بدا بضوء النهار شاحبا، والغروب يبسط ظلاله، والبرودة تتسلل إلى المكان. أخيرا تناولنا الطعام بعد استجواب وأثناء الانتظار لاستجواب آخر، وكان عبارة عن خبز ولحم مشوى وفاكهة، وجاءوا إلىّ بالمياه عندما طلبتها.

غادرت مقر المخابرات مبكرا، فى نحو الحادية عشرة، وكنت، كما أتصور، أكثر هدوءا وأشعر باطمئنان إلى حد ما. واستقبلت زنزانتى بنشوة، ولكن كانت سيارة الفولكس فاجن، كما يهيئ لى ، تصدر أنينا، وتنوح فى جنح الليل.

الثلاثاء ٢٨ نوفمبر الساعة الثانية صباحا

توالت الأيام، مختلفة لا تتشابه حتى الآن. غادرت السجن قبل الظهيرة، وقد خضت دفعة واحدة استجوابا طويلا وشاقا وعنيفا، دون تعرض لقسوة جسدية. كانوا ثلاثة يوجهون إليّ الأسئلة، يتبادلون الأدوار ويهذرون. فى نهاية فترة بعد الظهيرة، انتهى الاستجواب بحوار الصم، أحدهم قذف فى وجهى هذا الحديث :

– كلنا تكلمنا، لم يبق إلا أنت، افعل كما فعل ماتى، وموتن، وبليفيه، إنهم مطمئنو البال، ومرتاحون الآن.

– إنهم سعداء.

– ليس هذا ما أريد قوله.

ضحكوا من قولى، لقد ماتوا!

– ليشملهم الله برحمته، لقد كانوا أناسا مخلصين!

– كانوا أصدقاءك، أليس كذلك؟ بالطبع فأنتم كلكم جواسيس، مفهوم!

– كنت أعرفهم معرفة بسيطة قبل مجيئ إلى مصر ومع ذلك، فقد كانوا صحبة مخلصة أما الآن، فهم صاروا أصدقائى مثل كل الموجودين فى السجن.

– بارع أنت فى التمثيل يا ميكيل، أليس كذلك؟ أخيرا، بئس الأمر، ستظل هنا أياما وأياما، وستخضع للاستجواب دون توقف، وسنحصل على ما نريده منك فى النهاية.

هززت أكتافى استسلاما للأمر.

كان الليل قد بدأ يسدل أستاره، غادروا المكان، وتركونى مع الحارس الذى أجلسنى، و بعد برهة. قصيرة، انتقلت إلى حجرة مكتب أخرى، كان بها على الأقل خمسة محققين.

فحصنى سريعا طبيب كان موجودا، وضع السماعة على بطنى، وكشف أسفل بطنى، هل سيقول لى إننى يهودى؟ لا لم يقل شيئا، اصطحبونى لأغتسل فى حجرة بها حوض يبدو أنه لم يدخله أحد من قبل. فى نهاية الردهة، أثناء عبورى لمحت بليفيه، وهو يدخل إلى حجرة أخرى. شعرت بالراحة بعد الاغتسال، وعدت إلى حجرة خالية. أسندوا ظهرى للحائط، والتقطوا صورة شخصية، ثم انتقلنا إلى مكان آخر، لأخذ بصمات أصابعى، وقضينا فيه وقتا طويلا، فقد أخذوا ما يقرب من عشرين بصمة لكل أصبع، ثم بصمات كل كف، ثم بصمات اليد كاملة.

اعتذروا وهم يضحكون.

– نقدم لك اعتذارنا الشديد يا ميكيل.

– يتساوى الأمر لدى، ألا يفهمون، ليس لدى ما أعاب عليه

– هل قلنا ذلك.

–أحب أن أرى نتيجة كل ذلك بدقة.

نظرت بذهول إلى كل هذه الخطوط الكثيرة الدقيقة فى صورة البصمات.

أكمل الآخر حديثه ضاحكا.

– هل أنت قلق؟

– أبدا، على الإطلاق.

اصطحبنى مرة أخرى حارس واحد، وكان خبير البصمات قد غادر المكان، وهو يرافق المحقق. ظننت أننى سمعتهم يتحدثون عن «قطاع المفرقعات»، هل يمكن أن تكون هذه هى النهاية؟ النهاية السعيدة؟

عدنا إلى المحقق الذى يحاوره موظف ظل يكتب على الآلة الكاتبة لبضع دقائق، ثم غادر الحجرة بعد ذلك. جلس المحقق على كرسى بجوارى، وقال إنه يريد الحديث

معى باعتباره صديقا بعيدا عن أى استجواب. قلت له إن الأمر سيان عندى سواء كان استجوابا أم لا، وبدأت مرة أخرى أحكى قصة حياتى، تصورت أنه يمكننى على الأقل إقناعه ببراءتى.

ثم ذهبت إلى حجرة مكتب أخرى فى ركن منها تقبع حقيبة كبيرة، لم أستطع أن أقرأ الاسم المدون على الباب أثناء الدخول، ولكنى تبينت صوت «موتن» فى الحجرة المجاورة، يتحدث عن طبيعة عمله فى اللجنة. أى نشوة شعرت بها حينئذ، ثم تبعتها نشوة أخرى حين سمعت وقع خطوات، ثم صوت امرأة تسأل «إن زوجى موجود لديكم هنا؟» يا لها من معجزة؟ هل يمكننى الحلم بمغادرة المكان؟

نزلت إلى الطابق السفلى مع حارس ومحقق، قدمونى إلى رجل ضخم، كان صحفيا قدم إلىّ رابطة عنق حريرية زرقاء، محبوكة، لم تكن خاصة بى. أجلسونى على حافة سرير صغير مكوى الملاءات والأغطية، كان هناك منضدة بجانب السرير، يستقر عليها جهاز راديو وعدد من المجلات رأيت مصورا بالمكان، حذرت المسرحية التى يعدونها، فكرت فى «جانين» التى ربما سترى صورتى فى صحيفة محلية. بدأت أقوم بدورى فى اللعبة، وَمَضَتْ الحجرة بمصباح آلة التصوير. قُدمت إلىّ السجائر والكوكاكولا، كانت حقا وليمة. كان لقاء صحفيا تقليديا، ثم سئلت باللغة العربية :

- هل تعرضت للتنكيل والتعذيب؟

- إنها عبارة مفزعة، وتثير الرعب الشديد لدرجة أن المرء لا يتردد فى قول ذلك إذا كان قد تعرض لهذا الأمر هنا، ولكنى فى المقابل تعرضت للضرب، وتمت معاملتى بقسوة .

- ولكنك لم تتعرض للتعذيب؟

ترددت وكنت أفكر فى «جانين».

- ل... لا، لم أتعرض للتعذيب.

انتهت المسرحية، ربما تكون إشارة لإطلاق سراحي قريبا. كل شيء وفق القواعد والأصول الإنسانية وللصحافة. الأمل يولد إذن من جديد.

صعدنا إلى الطابق الأول، أخذوا منى رابطة العنق. فى حجرة مكتب، كان هناك مترجم ورجل طويل أسمر له شعر مجعد يساعده سكرتير.

سأتعرف على الكثير من الأمور فيما بعد، فهذا الرجل هو رئيس نيابة أمن الدولة. وحتى هذه اللحظة، لا أعرف سوى شيء واحد، هو أننى قابلت شخصا عادلا، سجل كل ما أدليت به بطريقة دقيقة، ودون أى ممارسة ضغط علىّ. قدم إلى سيجارة، واقترح أن يترجم لى بالفرنسية. أوضحت له أنه إذا أملى على سكرتيره ما ذكرته ببطء، فإننى أستطيع متابعته بالعربية. سألنى :

– ما وظيفتك فى فرنسا؟

– أعمل فى وزارة الخارجية، بإدارة الشئون الثقافية، قطاع التعليم.

قال بالفرنسية وهو يضحك :

– قطاع التعليم؟

ضحكت أنا أيضا لأول مرة منذ عدة ساعات. أخيرا أنا الآن فى صحبة رجل يستطيع أن يمزح، هو يمزح بالفعل. السكرتير لم يدون شيئا بعد ذلك، وانتهى التحقيق، ثم دعانى للتوقيع. رفضت التوقيع إلا فى وجود ماتى الذى كنت أقدم له تقريرا عن نشاطاتى ومهامى. شرحت للمحقق ذلك، ولكنه أصر، تشبثت بموقفى، وأحسست بضيق شديد يعتصر كيانى. ترى إذا استسلمت ووقعت، ماذا سيفعلون بنموذج توقيعى؟ تحت أى نص مكتوب سأجده فيما بعد؟ كان الشعور بعدم الثقة يسيطر علىّ ويتملكنى. وهذا الرجل الجالس أمامى، بالرغم من أنه كيس ومهذب، فهو يطرح علىّ الأسئلة نفسها التى أمطرونى بها منذ وصولى إلى هنا. أنهى الأمر بعد مناقشة بدا لى أنها امتدت للأبد بقبوله وجهة نظرى، وتسجيل رفضى للتوقيع.

عدت إلى رواق الطابق الأول، كانت عيناى دائما حرتين بدون عصابة. بدا الأمل فى الخروج والحرية يلوح لى مع هذه التصريحات المدونة رسميا، ولكن أى أمل؟ فى الليل، كان ثمة حارس يراقبنى من بعيد، الشاب الذى يقوم هنا بتوزيع الطعام، قدم إلى شطيرة وكعكا وحلويات. كان المترجم يدخن فى هدوء، بدت النظرات أقل انفعالا وتوترا، عدا تلك النظرات السوداء التى يسددها إلىّ حارس آخر، طلبت منه أن أعرف الوقت الآن، اندهشت عندما أخبرنى أنها الواحدة والنصف كان الليل أقل برودة، الأمل... الأمل.

عدت إلى السجن بعد ذلك مباشرة. طمأنت نفسى بإعادة التساؤلات نفسها والمسيرة ذاتها، سأحاول النوم فى هدوء، ليت الغد يأتى سريعا، لدى حدس بأن الحرية باتت قريبة.

الثلاثاء ٢٨ من نوفمبر التاسعة مساء

أخفق حدسى، وسقطت مرة أخرى فى بئر اليأس السحيقة، وتهاويت فى قاع لضربات المعاناة والتوقف، والراحة، اللاذعة.

كان يوما فظيعا، إن ما يجعلنى مشتتا، ذلك الأمر الذى يحتاج إلى التفكير فإذا كان زملائى قد «تكلموا» كما قيل لى، فلا يمكن أن يكونوا الآن إلا موتى؟ وهذا ليس ممكنا مادمت قد رأيت «بليفيه» حيا بعد أن أخبرونى بوفاته. إذن، هذه كلها أكاذيب. إذن مادام ليس هناك أى احتمال آخر سوى الموت أو إطلاق سراحهم، فهذا يعنى أنهم أحرار.

وهذا بالتأكيد ما يفسر الصمت الذى يخيم على السجن اليوم، وأنا وحدى، وقد فهمت ذلك. فى الصباح، ألقيت بنفسى على السرير، وانخرطت فى البكاء دون توقف. يا إلهى، يا إلهى، أنا وحدى هنا، لماذا؟ ما أشد قهر الرجال! ماذا عساى أن أفعل لهم؟ أقبع فى قرار سجن بغيض؟ كم من مرة قرأت هذه الكلمات. سجن تحت

الأرض، سجن النسيان حيثُ يهمل فيه السجناء حتى الموت جوعا، كهف دون هواء، أنا بداخله، نعم هو موجود، أعرفه جيدا الآن، دون التطرق إلى وجود هذه الحجرات الصغيرة التى يُحتجز فيها المناهضون ويتم التعامل معهم.

كم من الوقت مر عليّ وأنا خائر القوى؟ فكرة وحيدة تهيمن على عقلى، وتخترق دموعى: أنا حى، وسأحاول الإفادة من البقية القليلة من قوتى، ومن إدراكى ووعى، يجب أن أجاهد وأصارع.

التعبير عن النفس، التعبير عن النفس، أعرف هذا أيضا لحسن الحظ، أعرف أن صرخات واعتراضات البرىء التى يطلقها من أعماق زنزانته المظلمة تخترق كل الجدران. استعدت قليلا من ثقتى، وبدأت أتبين الزنزانة وأتفحصها، وأطوى مراحل اليوم واختصرها فى السجن.

تبلغ مساحة الزنزانة ما يقرب من أربعة أمتار طولا، وأربعة أمتار عرضا تحمل رقم ١٠ ، وتقع تقريبا فى نهاية «الردهة» على اليمين. عندما نصل إليها من مبنى المخابرات، لابد أن نعبر عتبة تُفضى إلى حارس ثم إلى حوش، ثم ردهة على اليسار. فى مدخل الردهة على اليسار تقع دورات المياه، وهنالك أيضا خزانات ممتلئة بالمياه يستخدمونها للوضوء، يتعهد بها سجينان يرتديان بذلة السجن الزرقاء النظيفة إلى حد ما. وهنالك جهة اليمين، تقع حجرة تحتوى على صنبور مياه بدون مياه، فالماء موجود فى أوان كبيرة من القصدير. عندما نعود من دورات المياه، نستطيع أن نحصى إجمالا عشرين زنزانة على جانبى الردهة، ولا يوجد طابق آخر فوق هذه الزنازين. أما سقف الردهة فينفتح على السماء وهو مغطى بشبكة سلكية تحط العصافير على ركن منه، وتنفذ إلى الزنازين، عندئذ نحلم بأن السجن قد حفل بالعصافير، ومن وقت إلى آخر نستطيع أن ننصت إلى الواقع الهين لخطوات الكلاب البوليسية.

تحمل جدران الزنزانة عبارات بالعربية كتبها من سبقونى إليها، غالبيتها آيات من القرآن، يجدون فيها شكلا من أشكال العزاء والسلوان، الأرضية من الأسمنت

السميك، زنزانة نظيفة تخلو من البق والبعوض. وهنالك فجوة صغيرة مسدودة فى مستوى الأرض، وأخرى أكبر منها من الناحية الأخرى ويبدو أنهما يفضيان إلى معسكر عسكرى، تسدها صفيحة معدنية، وعند نقطة واضحة فوق قطر الكوة يمكن رؤية جانب من السماء بين الصفيحة وأعلى الكوة.

وعلى سرير صغير من أسرة المعسكرات تستقر ثلاثة أغطية، ووسادة ضئيلة جافة منذ صباح الأحد بعد أن تم تغيير الأغطية فى كل الزنازين. تستند صينية من الخشب على قائمتين، بجانبها مقعد. وهنالك أيضا إناء ماء من البلاستيك، ومبولة من المطاط. غشيتنى فرحة فى نهاية فترة الظهيرة قبل أن"أعتقل" عندما كنت لم أزل أحمل قدرا من الأمل. إذ تم استدعائى، وخرجت دون عصابة على عينى. كانت الفولكس فاچن تنتظرنى أمام باب السجن. سلمونى غطاء عليه أشكال بمربعات كبيرة، مثل تلك الأغطية التى كنا نستخدمها فى مدرسة الحقوق، حيث نقيم فى القاهرة، وقد وضعتها فوق الفراش والوسادة تحت الثلاثة أغطية الأخرى الموجودة فوق السرير، وكأن الأمر يتعلق بفراش قديم للعائلة فى طى النسيان، وقد وجد مرة أخرى

كما تسلمت أيضا حقيبة صغيرة من حقائب شركة الطيران الفرنسية حيث وجدت به بعض الأشياء الرائعة قميص نظيف، ومحارم وفرشاة للأسنان، وأخرى للشعر، وبعض الأدوية، ولكنى بأكبر قدر من الشقاء تعرفت من بين هذه الأدوية على دواء مقو كانت «جانين» تتناوله أثناء مرضها بالتيفود حين تم إلقاء القبض على. فكرت بجهد شديد فى محاولة لفك شفرة الرسالة. هل هذا الدواء من أجلى؟ أم أن «جانين» تحاول أن تفهمنى أنها صارت أفضل؟

لم أستطع أن أصمد طويلا فى التفكير. عدت إلى الزنزانة حاملا حقيبتى، ولكن دون الأدوية ودائما دون أى أحزمة أو مواد غذائية أو سجائر أو ساعة أو رابطة عنق.

فى طريق عودتى إلى وحدتى، كنت سعيدا، تبادلت بضع كلمات مع الحارس المسئول ليس فقط عن مسجونين آخرين يرتديان الثياب الزرقاء، ولكنه مسئول أيضا عن حارسين آخرين نادرا ما يظهران:

- ما عملك فى فرنسا؟

- أعمل معلما.

- هل تعرف اللغة العربية؟

- الفصحى فقط.

- ما اسم هذا المكان؟

- سجن.

- وهذا؟

غرفة، زنزانة.

- وهذا.

- حقيبة.

هز كتفيه وقال:

- أحسنت.

هذه هى السعادة التى يجب أن تكون أقصى غايتى الآن وتتابعت الأيام متشابهة، عدا تلك الأيام التى أذهب فيها إلى جهاز المخابرات.

فى ضوء المصباح الكهربائى المنير فوق الباب ليلا و نهارا، يمضى وقع الزمن بصرامة فى الصباح، بينما يأتى أحد المسجونين الآخرين ليغير المبولة المطاطية، يصطحبنى الحارس الشاب الذى يرتدى الكاكى إلى دورة المياه بعد اغتسال سريع لدقائق معدودة. أذرع الردهة الطويلة ببطء شديد كلما أمكن ذلك قبل دخولى إلى الزنزانة، أتطلع ناحية السماء فوق الشبكة المعدنية.

فى الزنزانة، أسير أربعة أمتار فى اتجاه، وأربعة أمتار أخرى فى الاتجاه الآخر. أمارس قليلا من التمرينات الرياضية، ثم يفتح الباب، ليجيء طبق الصباح، الفاصوليا اليابسة مع الخبز. أتمشى مرة أخرى فى الزنزانة، ثم أنام، وماذا أفعل غير ذلك؟ فى

محاولة لإزجاء الفراغ، أضع يدى متشابكتين أسفل ذقني، وأبدأ في إلقاء القصائد التي أعرفها، في أثناء إلقائي، آسف أنني لم أكن أحفظ المزيد من الأشعار. لحسن الحظ أنني أحفظ مقطعا طويلا من مسرحية «مثرا»، أجبرتني الظروف على إلقائها وتفسيرها ثلاث أو أربع مرات كل يوم. في بعض الأحايين، أقوم برحلات، أغلق عيني، وأجد نفسي في طريق جنوب فرنسا، في مدينتي المحبوبة، هنالك أسير بين الطرقات، أقطع خمسين كليو متر، أعرف ملامح الطريق الدقيقة، حتى أقل انعطاف. وأمر على كل ركن يحفل بالذكريات، وعيناي تمتلئ بالدموع. في الساعة الثانية، يأتي طبق الفاصوليا اليابسة الثاني، وتأتي معه هذه المرة قطعتان أو ثلاث قطع من اللحم، ويصاحبه كوب من عصير الخوخ. ومن جديد دون نهاية أبحر في عالم الأحلام والأشعار. أقطع الزنزانة طولا وعرضا. لا يوجد كتاب أو قلم، هل أحاول أن أنظم شيئا؟ ما جدوى ذلك؟ وكيف يمكن حفظ هذه الأسطر المتخيلة؟ من وقت لآخر، سألصق عيني على الباب. أحد الذين سبقوني في الزنزانة نجح في خرق الباب وعمل ثقب، قطره حوالي عدة ملليمترات، ويبدو أنه أفلت من المراقبة. من خلال هذا الثقب، رأيت حائط الردهة في المواجهة، نقش ينمقه إطار، المنتصف يشبه وردة كبيرة لونها بيج؟ رأيتها أول مرة، ثم ساعة بعد ساعة، عرفت تفاصيلها، ويوما بعد يوم، مللت من هذا الثقب الصغير للغاية التي لا يسمح برؤية شيء آخر إلا هذه الإشارة المتهكمة على المراقبة حيث أنا موجود.

هذا الصباح، أحد الحارسين جاء ليحلق ذقني، لم ينبس ببنت شفة، ولكن في خلال برهة، رأيت أعلى وجهي، وجها حادا، ليس عدائيا، اجتهد في خدمتي وليس في إيذائي كالآخرين.

يا لهم من صحبة، أنا أعرف هذا بدءا من الآن. سمعت «بليفيه» يتذمر بشدة من المعاملة التي في الحبس. كان يعبر عن تذمره باللغة العربية. وكان هنالك أيضا الصوت الجميل الرائع الذي يمكن التعرف عليه، إنه صوت «ماتي» الذي اختزله سعال

ومع ذلك، فقد كان صوتا، أما الآخرون، وقد كان هناك أناس آخرون فلا أعرف شيئا عنهم.

هل «موتن» الذى سمعت صوته فى مبنى المخابرات موجود هنا؟ حاولت أن أطرق على الجدران لأتحاور مع من فى الزنزانة المجاورة، ولكن المحاولة لم تنجح. ثم تنحنح صوت بإيقاع معين، وسمعت أحدا يرد بالطريقة نفسها، أخذت أصفر صفيرا خافتا، لأننى كنت خائفا، على إيقاع لحن أغنية "بالقرب من شقرائى"، وسمعت من بعيد إلى حد ما عن يسارى ما بدا لى صدى لصوتى.

وأرضانى ذلك الضجيج لعدة ساعات مما جعلنى أتحمل الوحدة وهذا القفص حيث تعرفت على جوهر السر فى زنزانة حقيقية. ولحسن حظى أننى لم أكن أصم، كما أن العالم الخارجى مازال موجودا، فهنالك الجنود وهم يؤدون تدريباتهم: الأقدام فى وضع انتباه، واستعمال الأسلحة، والأيدى التى تهوى عليها، والخطوات التى تسير على وقع منغم. هنالك أيضا الليل وما يحمله من صيحات الحراس وهم يردون بالتتابع على صفير يبدأه الحارس الأول قبل دقيقتين أو ثلاث دقائق. إن متابعته أمر مسل. فالحارس الأول قريب إلى حد ما، والثانى بعيد، والثالث قريب جدا، والرابع، والخامس والسادس يتباعدون شيئا فشيئا، أما السابع والثامن فلا يمكن سماعهما، التاسع يفاجئك أنه أكثر قربا، أما العاشر الذى ينهى السلسلة فهو، دون شك، ذلك الذى يقف على باب السجن.

تتنوع الصيحات ما بين ضعيفة أو قوية حسب كل حارس، وتتغير طبقة الصوت فى هدأة الليل فى عبارة «إشارة تمام» أما العاشر فيقول «كله تمام». أحببت دائما هذه الصيحات التى بدت لى إشارة إلى نوع من الحماية بعيدا عن مقر المخابرات البغيض. بعد العودة من التحقيقات فى ساعة متأخرة من الليل، يختفى نصف رأسى أسفل الأغطية، وأردد قائلا لنفسى دون ملل «هذه هى الراحة، عش فى هذه اللحظة، فى هذه اللحظة» تركت هذه الصيحات تهدهدنى غالبا حتى يتسلل النوم إلىّ.

ولكن، للأسف كان هناك ضوضاء أخرى، ففى النهار، ناهيك عن وقع خطوات الحراس، هنالك صرير أبواب الزنازين التى تفتح وتغلق، وضجيج الراديو الذى يوجد فى مكان ما فى المعسكر على مدار اليوم يرعد بالأغنيات ذاتها أو بالخطب، ومع ذلك فإنها كلها مشوشة، كما يتناهى إلىّ نباح الكلاب، ربما لم تكن مفترسة، فقد دهست يوما فى طريقى إلى دورة المياه رجل أحد هذه الكلاب، فتألم، وأنّ.

أيضا ثمة جرس فى المعسكر، لا يرن إلا فى أوقات محددة وبطريقة غير منتظمة، وهو يضفى بعض المعالم الضرورية على المكان على مدار اليوم، فضلا عن أصوات المحركات فى كل مكان. فى بادئ الأمر، يمكن تمييز اقتراب سيارة الفولكس فاچن بصوت محركها المتقطع دائما، المتزايد السرعة دائما، هدير حاد متقطع يدل على المعاناة فى كل الأحوال سواء كان الحراس يفتحون أبوابا أخرى، وفى هذه الحالة فإن الفولكس فاچن تنوء بمن تحملهم، ويظل الباقون فى أماكنهم، يحملون قلوبا يتعالى وجيبها المضطرب، ويتمزق نياطها، إلهى، ليتنى لم أكن واحدا من هذه القلوب، أو سواء كان الباب ينفتح لمواجهة الأسئلة الأبدية: ما اسمك؟ والأوامر الدائمة: ارتد ملابسك. إلهى ماذا سيفعلون بى اليوم؟ أو سواء عندما ترحل الفولكس فاچن، فتأتى مرة ثانية على الفور لتقلنى، حينئذ يخفق قلبى بشدة ويلهج بالأمل. هل سأظل هنا، منسيا دون أن يحدث أى أمر أم سأرحل؟ ولكن إلى أين؟ إلى أجهزة جديدة فى الدولة؟ إلى الموت؟ أم أن النهاية ستكون كل ذلك؟

محركات الفولكس فاچن المرتفعة لا تهدأ قط، ولكنها بالفعل متعة حينما يمكن تمييزها من بعيد. عند اقتراب محرك آخر منها له إيقاع هادئ، كمحرك شاحنة V8، أو محرك GMC الذى يقف بمحاذاة السجن، ويشحن بالجنود والمعدات، ويتحرك وسط الصيحات والأوامر، وعلى الرغم من محاولة السائق لقيادته بغلظة وخشونة، فإنه يحافظ دائما على التنفس الرائع للكائنات التى تنعم بوعى هادئ.

إنه يهدئ من نفسى غالبا، ويهدهدها أيضا، ويطمئنها، وفى خضم صخب الشاحنات العنيف المروع، فإنه هو الوالد الوديع، وصوت الأمل.

وأخيرا، كانت هناك محركات الطائرات، ولاشك فى أن موقعنا كان قريبا إلى حد ما من نهاية مدرج الطائرات التى تعبر سماء نهارنا وليلنا. فهى حينا تكون طائرات نفاثة، وفى أحيان أخرى تكون المروحيات تحمل الأنفاس التى تغفو أو تتحمس، الرجال الأحرار الذين يجيئون ويرحلون أو حتى يعبرون. إن هذه المحركات هى دون شك السبب الرئيسى فى إثارة فزعى المؤلم فى هذا الثلاثاء، لأننى عندما انسللت من وحدتى هذا الصباح، وحينما لم أعد أسمع أصوات "ماتى" و"بليفيه" تحولت فى مسمعى كل طائرة رحلت هذا الصباح أو مساء الليلة الماضية إلى الطائرة التى حملتهما أحرارا بعيدا عن هنا، بعيدا عنى، وأصبحت بدءا من الآن وحيدا منسيا. انخرطت فى البكاء حتى ساعة متأخرة من بعد الظهيرة دون حتى أن أمتلك القدرة على الصلاة، ودون أن أعبر عن ضيقى بوسيلة أخرى غير البكاء. وأحسست بالخجل لدخول الحارس فجأة وأنا فى هذه الحالة، أتقلب على السرير، اقترب منى، وكان شابا نظيفا يرتدى اللون الكاكى الفاتح. ربت بهدوء على كتفى، وجلس بجانبى على حافة السرير، وأحاطنى بذراعه، وطلب منى برعونة أن أدله على سبب اضطرابى. غمغمت خلال دموعى «زوجتى، أولادى، ماذا فعلوا بهم؟ أنا لست مهما، ولكنى أريد أن أعرف عن أحوالهم»

وأجهشت فى البكاء، واندفعت بين ذراعيه، أردد الكلمات نفسها وأئن وهو يدعونى للتماسك والأمل بأية وسيلة.

خرج، وعندئذ رأيت ما كان قد يحمله لى، كوبا من الشاى وثمرة من اليوسفى علقت فى غصنها، يا للمعجزة، ورقة خضراء. قشرت برقة الثمرة لأعيد تكويرها من جديد، وعندما نزعت الثمرة، تأملت فى الكرة الصفراء المنبثقة عن هذه الورقة الخضراء الغضة التى احتفظت بها فيما بعد حتى يوم الرحيل، وغالبا بطريقة غريبة غرابة ما تم هذا المساء. وقد منحتنى النظرة المريحة إلى خضرة الورقة الحاملة رسالة العالم الحى إلىّ، نوعا من الهدوء النفسى جعلنى أخجل من نفسى، وحتى من هذه الكآبة التى لم أستطع إخفاءها.

وعلى الفور، حالما عاد إليّ الهدوء هذا المساء، استعدت الأمل على أثره، وهو ليس أمل ما وراء اللحظة التى كنت أريد بلوغه، ولكن مجرد الأمل البسيط فى استمرار الحياة مهما كان الثمن، مجرد تشبث بالنباتات العشوائية، بالبقاء، بعد أن كنت مع تلك النباتات أبذل جهدا كبيرا لاقتلاعها، مادام لم يعد لها، من الآن فصاعدا، أى مبرر للوجود. ولكن عندما أبلغ هذه الدرجة الثانية من الهدوء الذى يبدو لى أكثر تماسكا من حالة الهدوء الأولى، فإنه لم يعد لدى هدف آخر سوى الموت. فقد كنت أحس أسفل قدمى أن الوضع المهيمن ينحنى من جديد شيئا فشيئا من خلال تصدعات جديدة، حيث تنمو من جديد النباتات نفسها، وهى دائما حيوية ونشطة، ولا يمكن استئصالها. كان الصراع يبدأ، تصحبه الصلوات ذاتها، والاضطراب ذاته، حيث يتصارع باستمرار داخلى الأمل فى الصمود والرجاء فى انبعاث القليل من القوى الباقية التى كنت قد ألقيت بها فى المعركة.

كان لابد إذن، كما حدث هذا المساء، من الانفصال عن أى شىء، والاعتماد على النفس، والتخلى عن الذاكرة والمشاعر والماضى، والحب، والروابط والصلات. ولكن أن تقطع أنت كل هذه الأوصال وتمزقها، فهذا يعنى أن تردد مائة مرة فى اليوم أن الآخرين سيتولون أمرهم، وأننى لا يجب أن أنشغل بأحد سوى بنفسى، فإما علىّ أن أعانى أكثر، وإما أن يأتى اليوم الذى اختفى فيه وأموت. كلا الأمرين صعب فى عالم يعتبر أبسط حدث إشارة، فى عالم ينتحر فيه العقل والأعصاب عندما تعطى دلالة معينة لكل ظاهرة بسيطة من ظواهر الحياة اليومية فى السجن، أن تتأخر الفولكس فاجن؟ أن تذهب دائما إلى مبنى المخابرات وقت الغروب؟

إن الواقع المألوف بدأ يتحسن أم إن الأمر على النقيض، وأصبح الحراس أكثر غلظة؟ تنحل صرة التخمينات، وتنسل منها، ولكن، تنسل منها أيضا محطات الصمت والخوف. أتذكر، على سبيل المثال، أننى يوم الأحد عندما ركبت السيارة الأمريكية الكبيرة سألت نفسى طوال الطريق عن سر المعاملة المتميزة؟ لكن ماذا؟ فمنذ ذلك

الوقت لم يحدث شيء؟ ومع ذلك فإننى مثل تلك القطة التى كانت قد ألفت درجة حرارة الماء التى تعذبت بها، كنت قد تعودت على تلك الإشارات، والأحلام والكوابيس المسممة التى احتلت شيئا فشيئا عقلى منذ خمسة أيام.

منتصف ليلة الأربعاء ٢٩ من نوفمبر

هل كنت محقا هذا الصباح فى إحساسى باليأس وخيبة الأمل بسبب قضاء يوم الأمس بأكمله فى هذه الزنزانة التى دخلتها للتو؟

فى هذه اللحظة، تزرعت لنفسى بكثير من الأسباب حتى لا أغادر الزنزانة، حتى أظل هنا فى حماية، بعيدا عن هؤلاء الوحوش المتربصين لكل جديد.

مضت الظهيرة بهدوء، كنت أنتظر وجبة الفاصوليا اليابسة، فى الساعة الثانية، وهى إشارة على أن اليوم قد مر دون أية أحداث كالأمس، وعلى أننى محبط أن شيئا لم يحدث حتى سمعت محرك الفولكس فاجن، وصوت الباب وهو يُفتح ليس بعيدا:

– «ما اسمك؟»

– «هنرى موتن»

ركعت على ركبتى من فرط سعادتى. لست وحيدا، لست وحيدا، إنهم لم يرحلوا. آه! كم هو جميل ومؤثر. ومن هذه اللحظة تعرفت على صوت سعال ماتى، وصوت نحنحته، الصادر من زنزانة أخرى والتى منها هذه النبرات التى لم أعد أتعرف عليها. خجلت من تهمة ادعائى الوحدة.

من أعماق قلب مرتجف، متلهف، يترقب حدثا جديدا، أجبت عندما فُتح باب الزنزانة، ونودى على اسمى، لأستقل سيارة الفولكس فاجن فى الخارج. كانت عيناى معصوبتين، انتظرت برهة، واستمتعت بدفء الشمس بالقرب من شجيرة، امتدت يدى لمداعبة أوراقها، وتنفست بعمق.

الجديد الذى كنت أنتظره هو أنهم سلكوا طريقا آخر معى. عندما صعدت إلى الطابق الأول، وجدت نفسى أمام رجل ذى شارب صغير فى غاية الأناقة، والوسامة، يحيط به عدة محققين، ويبدو واضحا أنه رئيسهم. حاول التحدث بالعربية الفصحى، وهو يضغط على مقاطع الكلمات ببطء، ويجتهد فى محاولة صياغة عبارات قابلة للترجمة. هجم علىّ بأسئلته دفعة واحدة، وكان الآخرون يحلون محله من وقت لآخر.

– ميكيل، لقد أكد لنا الطبيب ما كنا نعرفه من قبل. أنت مختون، وأنت يهودى.

– مع أنه فى نظرى كون المرء يهوديا لا يعد نقيصة، لا، أنا لست يهوديا. هناك آلاف الأوروبيين مازالوا يمارسون هذه العادة، ويختتون أولادهم لأسباب صحية، وهو الأمر نفسه الذى يفعله اليهود وأنتم المسلمون، لأسباب دينية.

– أنت يهودى.

– لا، بدليل أن ابنى ذا السنوات الست غير مختون.

– أنت يهودى.

– لا.

– بلى، نحن نعرف ذلك.

– اعتقد ذلك إن شئت.

– كل شيء، نحن نعرف كل شيء، أصولك، اسمك الحقيقى، نشاطك السرى، نحن نملك كل البراهين، اعترف.

– اعتبر ما لديك دلائل إذا كان لديك شيء أصلا.

– أما ما أعرفه جيدا أننى لا أستطيع أبدا أن أعترف بما تفكرون فيه، كل ما كنت أقوم به من عمل هنا ذكرته لكم ليس لدى سر أخفيه.

– اكتب لنا كل شيء بالحبر السرى، نحن لن نقول شيئا عنك، بالتأكيد أنت تعرف ما هو الحبر السرى؟

- أنا أجهل هذا الشيء.

- قذر، خنزير، أنت ظابط بالمكتب الثانى.

- أنا ضابط احتياطى، نعم، فى سلاح المشاه.

- أنت حلقت فوق مصر.

- يا لها من حكاية، أبدا، فقط عندما كنت ضمن ركاب طائرة، وجهتها أثيوبيا.

- ألم تشارك فى حرب السويس؟

- لا.

- أنت كنت تستنكر هذه الحرب؟

- نعم استنكرتها.

- إذن أنت تعارض بلادك.

- فى بعض الأحوال.

- كيف تكون موظفا فرنسيا حكوميا، وأنت لا تتفق مع حكومتك؟

- إنه شرف لبلادى أن تكون العقول فيها حرة. يا إلهى، فليكن هذا صحيحا، فضلا عن أننى فخور أن أنتمى إليها فى السراء والضراء.

- كلام.. كلام.. إن بلادك هى التى ساندت إسرائيل، وهى التى تعذب المساجين الجزائريين وتنكل بهم.

- صمت.

- هل تعرف عدد المساجين الجزائريين فى فرنسا؟

- لا.

- لا أحد يعرف عددهم بالضبط، هل عذبتهم؟

- هل تعرف ما يفعلونه بهم فى السجون الفرنسية؟

- سنفعل بك كل ما يفعلونه بهم.

- أنا لم أعذب أحدا قط، أنا أعترض دائما على كل ما يحط من كرامة الإنسان أيا كانت الشريحة التى ينتمى إليها، العنصر أو البلد أو الديانة

- ولكنك تكره هؤلاء المساجين؟

- أنا غير قادر على كره أحد أيا كان، حتى أنتم. هؤلاء المساجين أصبحوا الآن إخوانى مثل كل السجناء الذين يسلب منهم العالم حريتهم بسبب أفكارهم.

المترجم الذى كان حضوره لهذه الجلسة مفيدا لى عوض ما كان يمكن أن يريحنى من نظرات تزيد على الحقد فى مناخ من القسوة الجافة.

- لخص الآخر «الرئيس» الحديث قائلا :

- على أية حال، لقد حصلنا منك الآن على ما يكفى نحن...

- ماذا صنعت لكم؟ ولكن قل له إن...

- اخرس.

- ماذا صنعت لكم؟

ردَدْتُ صيحتى الممزوجة بالأنين عشر مرات، عشرين مرة بينما هو يكرر، اخرس. وأخيرا صفعنى صفعة مدوية بكل قوته، هو الذى كسب الجولة، وسكت أنا.

- بدءا من هذه اللحظة يا ميكيل، سوف نغير طريقتنا، لقد خضعت لفحص طبى، وقد تم تصويرك، والتقت بك الصحافة، وانتهت المسرحية. الآن سننتقل للعمل الجاد، سترى أننا أخيرا سنتولى أمرك.

- اقتلونى إذا أردتم

– سيكون ذلك شديد السهولة، سيلحق بك قبل هذا كثير من الألم.

إذن، سأتألم، يا إلهى إلهى. أنا الذى لم أخف أى شىء، ماذا بوسعى أن أفعل؟ هل سأظل أصرخ وأصرخ حتى الموت؟ أو أختلق قصة خيالية محكمة من الروايات البوليسية لأنعم إما بالهدوء أو بالراحة المؤقتة، ولكن لا ستجتذبهم روايتى، وأضع بذلك أصابعى تحت أضراسهم. يا إلهى! إلام سيؤول أمرى؟

– ليس هذا فقط، أعطنى خاتمك.

– لا.

سواء صمدت أم لا، سيقتلعونه منى، توسلت إليهم.

– ردوه إلىّ .

– لا عندما ستراه، فستكون زوجتك هى التى ستعطيك إياه، سنظهره لها، وستكون مضطرة لمتابعتنا هى وأولادك.

– من جديد، آه يا إلهى، انها بشاعة مفرطة، وظلم فادح. يبدو أنه لابد من اختراع الرواية البوليسية، ولكن مساوماتهم لا تنتهى. فى بادئ الأمر، يجب إبعاد «جانين» والأولاد عن هنا، ولكن كيف؟ ولكن.. ولكن... ولكن... لماذا قال «إنها ستكون مضطرة»؟ لم أنتبه عندما قال ذلك فى المرة الأولى. وهذا معناه إذن أنهم لا يستطيعون اصطحابها بالقوة، وأنها تحت الحماية السويسرية؟ آه، صغيرتى الوديعة، يا بريقا يومض فى الليل. حسنا، سوف يتألمون، سوف يموتون أبرياء، أكثر براءة منى إذا كان هذا ممكنا. فزت أخيرا، فزت، فقد أعادوا إلىّ الخاتم.

كانت فرحتى عارمة رائعة مدوية كنهر مترقرق فى الربيع، وأتمنى ألا يكون قد ظهر أى أثر على وجهى.

انتهى المشهد، اصطحبونى إلى الخارج، شىء غريب... لقد صرت تقريبا غير مبال. مكثت فى حجرة مكتب مع حارس. دخل محقق وقدم لى كوبا من الشاى،

ومنحنى سيجارة، ثم غادر المكان، وبعد عدة لحظات، جاء محقق آخر وأخذ منى الشاى والسيجارة.

دخلت إلى حجرة المكتب من جديد مع عدد من المحققين

إذن؟

هززت كتفى.

– قلت لكم كل شىء.

– لا، انتهى الأمر يا ميكيل، انتهى الأنين، وهز الأكتاف والرأس بحركته ذات اليمين وذات اليسار تعبيراً عن الرفض خنوه.

هبطنا إلى القاعة الموجودة فى أسفل، وكانت عيناى ويداى حرتين، وضعت يدى فى جيب معطفى، وهذا مناسب. أوقفونى فى ركن، وبعد برهة، اصطحبونى إلى قاعة أخرى لم أكن قد رأيتها من قبل، يتوسطها مقعد خشبى مرتفع، وتنتهى قوائمه بجانب حلقات حديدية، وسلاسل ملتصقة بالأرض. وأمام المقعد الخشبى المرتفع منضدة سوداء فى الخلف. تستند على الحائط مدفأة تعلوها مرآة. كان هنالك أيضا جهازان لتصوير الأفلام السينمائية، وكشافان ضخمان متوهجان يشخصان إلىّ. بينما كنت أجلس على المقعد الخشبى المرتفع، وأغض الطرف، تتعالى فى صخب أوامر الحراس الموجودين فى محيط جهازى التصوير السينمائى.

– ميكيل أنت لست دبلوماسيا.

– مهنيا، لا، ولكنى موظف فى وزارة الخارجية، وأتمتع بكل حصانة يتمتع بها الدبلوماسنيون.

– تقول هذا، ولكننا نعرف أنك ضابط فى المخابرات الفرنسية.

– أنتم الذين تقولون هذا.

دخل المترجم إلى المشهد، يرافقه عدة محققين، ووقفوا خلف أضواء جهازى التصوير السينمائى. خمنت الآن وجودهم من أصواتهم.

- هل تريد أن نسمعك صوتك وأصوات زملائك؟ حينئذ ستكون مجبرا أن تعترف بنشاطك السرى.

- لم أعترض أبدا.

يتخذون ذلك ذريعة. حدثت جلبة، أوقفوا جهازى التصوير السينمائى، وبعد عدة دقائق، استعادت عيناى تركيزها، وميزت وجود جهاز تسجيل، مرة ثانية آلة العذاب هذه.

أنصت، أنصت جيدا، وتم توصيل قابس الجهاز، وبدأت أنصت، وجدت «شوشرة» واضحة، كان التسجيل سيئا، سيئا جدا. قلت لهم هذا. طلبوا منى أن أكون مهذبا. أصوات متباينة وضوضاء. يا للدهشة. بدا لى فجأة، أننى ميزت وسط ركام الأصوات المزدحم حوارا بينى وبين "ماتى" حول إثبات الصفة الدبلوماسية أو لا، لبطاقة إقامتنا. ومع ذلك، فإن كان هذا هو صوت "ماتى"، فهو واضح ولكن ثمة غلظة لم أعهدها فيه.

- هل تعرفت على هذا الحوار؟

- نعم أعترف بأن هذا النوع من الحديث قد دار بينى وبين "ماتى".

- شيء طبيعى أنك تعترف بهذا الحديث لأنه لا يحتوى على أى عداوة تجاه مصر.

- لقد قلت لكم آلاف المرات أننى لم أرتكب أى فعل عدائى تجاه مصر.

- هل تعترف بشريط التسجيل؟

- أنا لا أعترف بأى شريط، فضلا عن أننى أرى هنا عدة تسجيلات، وقد كان لى بالفعل، أولا وأخيرا حواران أو ثلاثة مع السيد "ماتى"، وهى حوارات تتصل بالعمل، وكانت فى مقر اللجنة ولا أريدكم أن تلصقوا بى هذه التسجيلات.

- وماذا عن بائع الكتب فى الإسكندرية؟

- لقد سبق أن أعطيتكم أسماء الشخصيات التى قمت بزيارتها فى الإسكندرية، وقد كان ذلك فى إطار وظيفتى.

- كل هذا، الواجهة والشرف والاحترام.

- أنا لا أعرف أى بائع كتب فى الإسكندرية.

- أثبت ذلك.

- أثبت أنت العكس.

- لماذا ذهبت إلى بورسعيد؟ أمر غريب أليس كذلك؟

- إننى أول من أخبركم بذهابى إلى هناك لزيارة الأساتذة الفرنسيين الذين يدرّسون هناك، وقد أعطيتكم جدولى هذا اليوم تأكدوا من ذلك.

- وماذا عن هذه العاهرة التى تقابلت معها فى الطائرة أثناء رحلتك إلى القاهرة؟

- لقد جئت إلى القاهرة مع زوجتى وأولادى الذين كانوا مرضى تحروا من مضيفة الطائرة

- حسنا هل ستكون على استعداد أن تعترف كتابيا بالتسجيل الذى سمعت فيه صوتك؟

- أنا لم أعترف بالتسجيل، ولكنى أعترف بأننى قمت بهذه المحادثات، هذا كل ما فى الأمر.

- أيها العنيد.

إنه المحقق الرئيسى الأنيق الذى رأيته من قبل من يتكلم.

- أنصت من جديد.

تكرر المشهد مرة، مرتين، ثلاث مرات، ثم صفعني الأنيق صفعة مدوية، تألمت، تفاجأت بأنني لم أستطع أن أكبح دموعي.

- أنت لست في قسم من أقسام البوليس المحلية يا ميكيل. أنت في مبنى المخابرات. ونحن يمكننا أن نفعل بك ما نريد. ستظل هنا واقفا أمام أجهزة العرض حتى تتكلم، يوم، يومين، ثلاثة، أسابيع، شهور، حتى تتكلم.

رحلوا عن المكان، وأنا واقف إذن، ذراعاي متدليتان بطول المعطف، على بعد مترين من جهازي العرض. سمعت خطوات الحارس يقترب مني، ثم يبتعد، يتمخط، يبصق، يقترب:

تكلم يا ميكيل، حتى تصبح هادئ البال بعد ذلك. أنت تثير ألمي.

هذا صحيح، فوجهه صادق، فنحن نتحدث من وقت لآخر عن موضوعات أخرى، عنه وعني. يمر وقت طويل، ثم ينفتح الباب، وتُضاء أجهزة العرض، إنه محقق ذو شارب ورأس مستدير.

- يا ميكيل، المدير آسف لصفعك.

- هذا لطف منه.

- ولكنك أيضا تخرجه عن طوره بإنكارك، لذلك ستكون لطيفا، وسنصعد معا، وستوقع على الاعتراف.

خيم صمت. صعدنا بالفعل، يصطحبوني من ذراعي. كان الأنيق موجودا في حجرة المكتب مع مترجم واثنين أو ثلاثة آخرين.

- هل أنت مستعد للتوقيع على إقرار مكتوب تعترف فيه بمحادثاتك؟

- لا، سأسمع هذه التسجيلات، وسأعترف شفويا بمثل هذه المحادثة أو بأخرى، ولكن ليس بشيء آخر.

هز كتفيه مذعنا للأمر. فتح درجا، وأخرج منه ورقة، «منشورا» كما قال هو، أنكرت حتى قبل أن أراه. دخل فى ثورة غضب:

– قذر، لقد بعت نفسك. لماذا تنكر قبل أن تراه؟ أنت تعرف إذن «هذا المنشور»؟

– ولكن يا إلهى! هذا بالضبط لأننى لم أكتب أى منشور حتى يمكننى إنكاره من قبل أو الآن أو فيما بعد جملة وتفصيلا.

– اقرأ !

– قرأت بيان رقم ٢٦ مكتوبا بفرنسية مبهمة، حيث استطعت أن أفك رموز فقرة منه، وكانت تحمل سبابا وصيحات مناهضة للحكم. أرجعت إليه الورقة.

– أنا لم أكتب أبدا أى منشور.

كان هنالك ورقة أخرى، وكانت عبارة عن نص مدون فيه محادثة كما ذكروا بين "بليفيه" و"موتن". إنه لأمر لا يصدق. قرأت بوضوح أن "بليفيه" قال إننى أترجم هذه المنشورات. قلت لهم إنه لا يمكن أبدا. إنهم لا يستطيعون إلا الخداع ولا أحد يمكن أن يقول ذلك عنى مادام غير صحيح. هز أكتافه من جديد، وقال: «خذوه». ذهبت إلى حجرة مكتب أخرى، جلست تحت مراقبة حارس ساذج حصلت على فترة راحة وأغلقت عينى، حققت نصرا من جديد. سمعت صوت الفولكس فاچن. كان الليل قد حل، دون شك، وكان الوقت متأخرا لأن صوت السيارات بالخارج قد خفت ولم يتبق منها إلا القليل على الطريق. لم يحن الوقت بعدُ للرحيل إلى السجن، إلى الزنزانة إلى الملاذ. قادونى إلى مكتب آخر. هذه المرة، كان من الواضح أنهم جميعا هنا، الرئيس يجلس خلف المكتب، لم يكن هو الرجل الوسيم، لأنه كان يقف بجانب رجل بدين جلس فى الصدارة فى ركن، جلس رجل على مقعد وثير، هو محقق أمرد أجرد، له شفتان رفيعتان، يمسك بيده مسبحة من تلك المسابح التى نجدها فى كل أرجاء الشرق. دخل البدين إلى قلب المشهد بمعاونة المترجم:

– وماذا بعد؟

هززت كتفى، أنا منهك وفى غاية الاستسلام والإجهاد.

- شيء واحد فقط. افعل ما تريد، نحن لدينا الوقت كله، اعرف ببساطة أن كل زملائك اعترفوا عليك. (وهم الذين سمعوا أيضا عنى البذاءات نفسها التى قيلت عنهم).

- هذا ليس ممكنا، إلا إذا كنتم قد عاملتموهم بنفس الطريقة التى عاملتمونى بها. ولكن فى هذه الحالة أحضروهم إلى هنا، لأراهما ولألمسهما إذا كان هذا صحيحا. وإلا لماذا لم تحضروهما؟

- وإذا أحضرناهما، واتهموك أمامنا؟

- أنا هادئ مطمئن، ولكن إذا مر الأمر على هذا النحو، فإننى سوف أخنقهما بيدى هاتين.

- نحن الذين سنخنقك يا ميكيل ولن يتأخر ذلك.

ضحكوا جميعا، وأعطوا إيماءة بالرأس للحارس. انتهت الجلسة المسائية. هذه هى الكلمات التى قلتها لنفسى. لقد خرجت تقريبا منتصرا عندما صعدت إلى الفولكس فاچن. تركوا عينى حريتين، واستطعت أن أرى، عقب جلوسى على المقعد الخلفى، «بليفيه» معصوب العينين. وعندما تحركت السيارة، جعلنى الحارس أمدد جسدى على ركبتيه، ووجهى نحو أرضية السيارة، ومهما أحاط بهذا الموقف من شك، فإنه بدا لى أنه آت من صديق.

الخميس ٣٠ من نوفمبر منتصف الليل

اليوم هو ٣٠ من نوفمبر، منذ أسبوع، وتقريبا فى الساعة نفسها، كنت قد دلفت إلى عالم جديد. منذ أسبوع، قالت لى «جانين» : «بعد ثمانية أيام سيكون يوم القديس «سان أندريه»، لقد أحضرت لك سروالا قصيرا للتنس، جربه ولا تخبر الأطفال، فهم الذين سيقدمونه إليك».

حبيبتى الغالية، أطلب منك الصفح لأننى لا أفكر فيك كثيرا. كان علىَّ أن أفكر فيك، لكن كان ينبغى علىّ أيضا أن أكافح ضد هذه الهجمة الوحشية الموجهة إلىّ. وعلى الرغم من كل ذلك، فقد ورد على خاطرى هذا السروال القصير الذى كان يناسبنى تماما. مسكينة هذه الخاطرة الحمقاء، ماذا تريد أن تفعل هنا الآن؟

بكيت كثيرا، وشعرت بالقهر من هذه السعادة التى تخلت عنى، وأصبحت عدوى اللدود منذ ثمانية أيام. لو كنت تعلمين، حبيبتى الغالية، ما الذى ادخروه لى فى عيد «سان أندريه»!

مضت نصف ساعة تقريبا بعد عودتى من مبنى المخابرات، وكنت مندهشا، ومضروبا، ومشمئزا أننى مازلت على قيد الحياة.

وكنت قد غادرت محبسى بعد وقت قصير من دقات جرس المعسكر، غير المؤكد والوهمى، معلنا أن الساعة الرابعة. بعد وصولى لمبنى المخابرات، وعندما أزالوا العصابة من فوق عينى، وجدت نفسى فى الحجرة التى بها كشافا الإضاءة. قال لى المحقق ذو النظارة ذات العدسات المستديرة، وهو أحد الذين قبضوا علىّ:

– يا ميكيل أنت لا تريد أن يراك أولادك مقيدا، والأصفاد تكبل يديك. هل تفضل أن يروك محكوما عليك، مدانا، مشنوقا؟

ساد صمت.

– حسنا، كما تريد. ستظل هنا واقفا فى ركن، تحت أضواء كشافات التصوير السينمائى، الوقت الذى يلزمك أيام، أسابيع، شهور، الوقت الضرورى، دون طعام، دون شراب، أنت عنيد، وستنتهى بأن تتكلم.

– لقد قلت لكم كل شىء.

– حسنا، حسنا !

غادروا المكان، بعد أن أوضح للحارس الذى يرافقنى أنه سيتبدل فى الساعة التاسعة والنصف. إنه تفصيل ذو أهمية. أنا إذن هنا فى ركنى. ذراعاى متدليتان على

طول معطفى، ومن وقت لآخر أغير وضعهما وكذلك وضع ساقى، تماما كما يحدث فى المتحف، ويطول الانتظار أمام لوحة. كان ضوء كشافى الإضاءة المسلط علىّ هو الأكثر ألما. فمنذ عشرة أيام كنت أعيش فى الظلام بعد انفجار شعلة سخان المياه فى وجهى، وعلى الرغم من طمأنة طبيب العيون بعد فحص أولى وسريع، فإننى كنت قلقا على حالة عينىّ. وتحسبا لكل طارئ، فقد أعلمت الحارس بالأمر، وهو الحارس الذى أعرفه من قبل، فهو ذلك الشاب الأسمر الذى قلت له يوما إننى رجل مؤدب. نشأ بيننا نوع من العلاقة. ولكن التعليمات هى التعليمات، لا حركة ولا ضجيج. يجب أن أظل فى محور كشافى الإضاءة، وأجعل عينى مفتوحتين.

كان الضوء أمامى، ومن حولى. يلفنى ظلام الليل. يجلس الحارس، ويعبث بسلاحه. يصدر الزناد صوتا. ثم يمر هو أمامى. تختفى الأضواء للحظة. يبتعد، ويجلس خلف المنضدة. يفتح الباب المطل على الممر، ثم يعود، تحدث كل هذه الضوضاء فى الظل، حول هذه الدائرة العمياء التى تفترس جفنى. يظهر من جديد أمامى، يدعونى إلى الكلام، أهز كتفى، يرحل. كسبت عشرة سنتيمترات مبتعدا إلى اليسار. هو لم ير شيئا. يا له من انتصار. لم أعد مركز كشافى الإضاءة الموجه مباشرة إلى عينىّ. أستطيع أن أحدده. أصبح قرصا زجاجيا منيرا، ولم يعد تلك الشمس المفترسة. عاد الحارس، يجلس على مقعده، وبعد دقيقة يقف، يمر أمامى، يتحدث إلىّ، يهز كتفيه ازاء صمتى ثم يذهب مبتعدا. هيا، أحاول أن أحرز تقدما ثانيا، كسبت عشرة سنتيمترات أخرى مبتعدا إلى اليسار، بينما كان يبتعد هو. إنه نصر جديد. يجب أن تظل حزم كشافى الإضاءة متقاطعة فى مكان على جسدى وجنتى، الأكتاف، الحائط، الخلف، لا يهم، ولكن المهم أن تظل عينك خارج دائرة الضوء الحارق. فى ذلك الوقت، أخذت أتفحص كشافى الإضاءة، أحدهما من زجاج مصقول، والآخر من زجاج مخدوش، وهما فى النهاية من قياس صغير. هيا، بزغ الأمل من جديد، فالحارس لا يلاحظ شيئا.

ثمة ضوضاء وجلبة، ثم خيم صمت، الحارس يأكل، هذا إذن كل ما في الأمر. ولكن هذا المساء لا وجبات غذائية لي. هل الساعة الثامنة؟ أم السابعة؟ انتهى من طعامه، طوى اللفافة، وسألني إذا كنت أريد الكلام، أجبته بأنني أريد ماء، فإنني أؤدي عملا شاقا. يضايقني معطفي لماذا ارتديته؟ وشيئا فشيئا غدا وجهي جامدا، وكان جسدي يغير ناحية ارتكازه من وقت لآخر، أما يداي، فكانتا حينا تجاه الأمام وحينا في الخلف، وحينا داخل جيب المعطف. أكاد أسقط في مكاني، ولكن أن أتكلم؟ كي أقول ماذا؟ أقول ما سبق أن قلته لهم من قبل؟ سواء كانوا أشرارا أم أغبياء فهم لن يصدقوا ما أقول. وفي هذه الظروف، بقدر ما لم يذهبوا في معاملتي إلى أبعد مما يدخرونه لي، وبقدر ما أحافظ على صمتي، الذي هو نقطة قوتي الوحيدة في مواجهتهم، فمن يستطيع أن يفعل أي شيء؟

ضوضاء جديدة وجلبة، تغير صوت وقع الخطوات في الحجر. إذن هي التاسعة والنصف. مكثت أكثر من خمس ساعات. هنا بدأت أستعيد حركاتي، ومع ذلك بقدر قليل جدا، حركة الساقين واليدين. عندئذ جاء الحارس الجديد، ووقف في منتصف المسافة، بين كشافي الإضاءة وبيني، واضعا يده على سلاحه. كان طويلا، يحمل وجها أسمرَ يعكس الضوء منه عينان أكثر سوادا، خاليتان من أية حرارة. قال بالإنجليزية :

- لا تتحرك.

- أنا لم أتحرك.

- نعم، أنت تحركت، انتبه.

ثم قال بالعربية:

- ممنوع منعا قاطعا أن تحرك ذراعيك وساقيك ياميكيل

وجلس قبالتي، يا له من أحمق. عيناي تستريحان. ثم اعتبرت أنني أخذت راحة. غادر الحجرة وهو يلقي عليّ نظرة منوم مغناطيسي. هل أدار ظهره؟ حاولت أن أرتكز

على ساقى اليسرى، ولكنه كان موجودا، وعندئذ صفعنى صفعة مدوية، وشرح لى أنه لا يتم التسامح هنا مع أى مخالفة، هذا الحارس الذى لم يتح له أن يعرفنى من قبل، بدا سعيدا لأنه استطاع أن يظهر الشدة معى، وهددنى بأنه سيتسلى بى.

هل عاد؟ لم تعد لى أى رغبة فى الحركة. ملعونة هذه السراويل الضيقة، فمن فى داخلها لا نستطيع أن.... ولكن بلى، إذا تحركت القدم بلا صوت، أستطيع ثنى الركبة سنتيمترين أو ثلاثة سنتيمترات، ثم أمدها من جديد دون أن تلمس ساقى نسيج السروال وتخوننى. أثنى الركبة اليسرى، أثنى الركبة اليمنى. ثبات، أثنى الركبة اليسرى، أثنى الركبة اليمنى، ثبات. انتبه، سمعته يجلس عن يسارى، على مسافة قصيرة منى. ثبات، ثبات. ربما سأفقد وعيى قريبا، إنها الحرارة، الظمأ، والاشمئزاز والتقزز، كان اليوم هو ٣٠ من نوفمبر.

إنها الحادية عشرة الآن دون شك. انفتح الباب، أطفئت أضواء كشافى الإضاءة. فى صحبة المترجم، دخل محقق، له شارب، ورأس مستدير، ووجه يوحى بالثقة فعلا.

ألصقنى فى ركن، وأحكم قبضته علىّ من خلال طية المعطف، وقال :

– سوف نذبحك مثل خنزير الفرنسيين، وأنت خنزير فرنسى، مثلما ذبحت الجزائريين.

– أنا لم أقتل أحدا. لم أعد أحتمل أكثر من ذلك، افعلوا بى ما تريدون. أخرج مسدسه، وبدأ يضغط به على ضلوعى، وتوقف عند قلبى.

– انظر إننى أضع خزينة المسدس يا ميكيل.

هذا صحيح، لطمنى، فتأثرت أذنى، وطأطأت رأسى.

– انظر ثانية، هل ترى؟ لقد أزلت زر الأمان، أنا أضغط على الزناد.

هذه المرة بالتحديد، سأموت. حياتى، حياتى المسكينة، اثنان وثلاثون عاما وشهران ستنتهى تحت رحمة ملليمتر واحد، تحت رحمة رجل متوتر الأعصاب.

«جانين»، «كلود»، «بيير» اغفروا لى اصطحابى لكم إلى هنا. أين أنتم يا ملائكتى؟ يا حملانى؟ كل هذه الكلمات الحانية مثل: أنتم رائعون، أو مثل أنتم كنتم رائعين، لا معنى لها وهى كلمات لن أمنحها لكم. أيها المسيح، الصفح والغفران، الرحمة من أجلى، استقبلنى، البشر أشرار جدا.

- سنعد معا حتى ثلاثة. واحد....

خيم صمت، وتلقيت صفعة على وجهى.

- واحد.

هل هذا صوتى الذى أسمعه، بقبقة الماء القبيحة الناضحة بالخوف؟ أيها المسيح أتوسل إليك فى هذا الوقت، فى هذه اللحظة، بكل الأروح فى هذه اللحظة الوحيدة لا تفكر إلا فى روحى التى ترغب فى النجاة.

- اثنان.

- اثنان.

هل هذه هى الشجاعة، وعدم المبالاة، هذه القدرة الجديدة على الحديث، وكأن شيئا لم يحدث، هذه الإرادة المضيئة الواثقة من عدم الموت، مهما يحدث؟

- ثلاثة.

لم أستطع أن أقول ثلاثة بأى صوت؟ ما الذى يمكن فعله حتى لا ترتكب هذه الأعصاب الثائرة فى وجهى أى جنون لا يمكن إصلاحه؟ "جانين"، "كلود"، "بيار"، وأنتما يا والدى العزيزين، وداعا والآن من جديد أنا، أنا وحدى. بللنى العرق، وانسحب الدم من خلاياى غائرا، أشعر به الآن، منذ أمد طويل، غاض من وجهى، ولكن أهدأ. وأخيرا أيها المسيح، أيها المسيح الوديع. أظن أننى مستعد الآن.

- أنا برىء، أفوض أمرى إلى عدالة الله.

أظن أننى لم أعد أنظر إلا إلى عينى الرجل، ولكن بأى شعور؟ ما الأحاسيس التى قرأها فى عينى لإقناعه؟ أنا أعرف أن كل ذلك بلا أمل.

انتهى الأمر بأن أنزل مسدسه، ولم أتمكن من التقاط حركته تلك إلا بعد عدة لحظات، لأننى كنت قد انتهيت إلىٰ إغماض عينى. الرصاصة تتجه مباشرة إلى القلب؟ هل ستسبب ألما؟ كيف تكون تلك اللحظة الأولى من الأبد السرمدى؟ ظللت واقفا خلال خروج المحقق. أعيدت إنارة كشافى الإضاءة من جديد. أى شىء يمكن أن أنشغل بإظهاره، وأنا فى هذه الحالة المزرية، رأسى خاو، وعيناى تذرف الدمع مدرارا دون توقف؟

دخل المفتش الآخر الذى سبق أن رأيته واقفا فى بداية التحقيق إلى المشهد. أجلسونى فوق مقعد خشبى مرتفع، يستقر أمامه منضدة، وجه إلىّ الأسئلة الطقسية ذاتها، والتهديدات نفسها.

– أنت لا تريد دائما أن تقول شيئا؟

خارت قواى ولم أستطع النطق بكلمة بدءا من الآن. لم تعد لدى طاقة، فقد رحلت إلى مكان آخر. كنت قد اعتقدت فى بعض الأوقات أننى استطعت إقناعهم، أما الآن، فإننى أستسلم· يا إلهى.

– سوف نبدأ من جديد غدا، يا ميكيل، وكل يوم، حتى يفيض الكيل، ونقتلك فى النهاية. دائما لا شىء لديك لتقوله؟ حسنا! إلى الغد!

انصرفوا، انصرفوا، الى الغد! ليلة من الراحة إذن! يا للروعة، راحة، لا بأس فمازلت شابا، وسأستعيد قواى. أخذت أتنفس بعمق فوق مقعدى الخشبى العالى.

جاء حارس جديد محل جلادى، وقدم إلى كوبا من الماء لم يكن شركا، كانت بالفعل مياها عذبة. شربت كوبا آخر، ثم قدم إلى شطائر، رفضت تناولها، ولكنه قال: «لا، خذها معك فى جيب معطفك، سوف تأكلها هذه الليلة».

هذه الليلة؟ هل ستكون أخيرا ليلة الرحيل، الابتعاد، تلح هذه الفكرة على ذهنى منذ أتيح لى التفكير فى أى شىء آخر عدا المقاومة أو التقاط الأنفاس؟ ولكن لا، هذا الحارس هو نفسه ذو العينين الحالكتين السواد الذى كان ينظر إلى بحدة فى الردهة، ببساطة شخص طيب يحزر أن الليالى فى السجن يمكن قضاؤها فى شىء آخر غير النوم.

الفولكس فاجن، لتحل عليك البركة هذا المساء. عدت من بعيد جدا. عيناى معصوبتان. وكان هنالك دائما هذا الموكب الصاخب نفسه فى الظلمة المدلهمة. السجن نفسه. صيحات الحراس ذاتها، المصباح الكهربائى. السرير. المنضدة. الأربعة أمتار طولا، والأربعة أمتار عرضا. ولكنى مازلت حيا، مازلت حيا.

الجمعة الأول من ديسمبر منتصف الليل

بعد عودتى ليلة أمس، استغرقت في النوم بملابسى. وبقدر ما أستطيع الظن، فإننى لن أذهب الآن إلى مبنى المخابرات. سيكون إذن يوما هادئا، مريحا. سأستعيد نفسى، وسأصبح على أتم الاستعداد من جديد. أنا فى الانتظار.

اليومَ تذكرت ما قاله لى "ماتى" يوما قبل أن أغادر فرنسا، إنه كان قد قرأ فى مجلة أسبوعية واسعة الانتشار، أن مُنَجِّما كان قد تنبأ بطريقة دقيقة بانفصال سوريا، وأنه سيتم الإطاحة بالنظام، فى الأول من ديسمبر. فكرت طوال اليوم فى ذلك الأمر، وظننت أننى سمعت بالفعل أصوات المدافع. وبين حجتى الزاخرة بجنون الأمل، وحجتى العاقلة المبرهنة، وقعت صريعا تتنازعنى الحجتان. ولكن ماذا بعد؟ بالتأكيد ولحسن الحظ تغلبت الحجة الثانية. وفى حالة عدم وجود سلام آخر فإن لدى، على الأقل هذا المساء ذلك السلام الذى يمنحنى سخرية صائبة لأحلام عبثية. وفى عالم الكوابيس، فإن هذا السلام، هذا الجمود، هذا الاستقرار، أخيرا يوجد شىء صحيح، يمر دون ثمن.

وبقدر قناعتى بذلك، انتابتنى نوبات جنون أخرى إذ تركت نفسى نهبا لها. فى ساعة متأخرة من الليل، أيقظنى الحارس، ارتديت ملابسى وذهبت إلى نهاية الممر، فلم أر شيئا، ولكن خارج السجن، بعد المرور على حديقة صغيرة بممرات تحفها أحجار بيضاء، دخلت إلى غرفة رأيت فيها رجلا يرتدى نظارات، وهو الرجل نفسه الذى استقبلنى فى هذا السجن فى مساء السبت وليلة الأحد الماضيين. كانت حقا مفاجأة، إذ وجدت حقيبتى القديمة التى اشتريتها منذ زمن طويل من أسواق دمشق وقد تبعتنى فى كل مكان ذهبت إليه، فى إثيوبيا، وفى القاهرة. وهنا كانت ممتلئة بالملابس، تناولت منها «بيجامة»، ومنديلاً ثم منديلين، ومشطًا للشعر، وقميصين وجوارب، وملابس داخلية، وأبدلت بدلتى الصيفية ببدلة أخرى سوداء أكثر دفئا، وكذلك استبدلت بجواربى الخفيفة زوجا من الجوارب الثقيلة، كما أخرجت منها نعلا أصفر بائسا، ولكنه أثير لدى، فقد ابتعته فى الربيع الماضى عندما كنت أقضى إجازة نهاية الأسبوع فى مورتانى أو برش. أنهيت عملى، وقال الرجل ذو النظارات بالإنجليزية:

- هل تريد شيئا آخر؟

- نعم، الحرية

- الحرية فى الطريق!!

عدت إلى الزنزانة، أحمل ملابسى على ذراعى. بدلت بما كنت أرتديه ما أخذته من ملابس جديدة إن جاز لى أن أقول ذلك، أما الحقيبة فقد ظلت هناك.

فى البداية، من خلال هذه النبرة الساخرة بأن الحرية فى الطريق، تساءلت، إذا أقررنا بصحة ذلك، فلماذا لم أستطع إحضار الحقيبة إلى هنا لأجهز نفسى؟ فهم لم يريدوا أن يقولوا إن الحرية ستأتى فى غضون أيام؟ ولكن لا، أى جنون هذا يا إلهى، هذا الأمل الكاذب، هذه العوائق التى تنبت، كلها لم تكن سوى مزحة، وقد اقتنعت بذلك، ويجب أن يقتنع المرء بذلك. فهناك، إن جاز القول، ما يشبه الانتفاضة، وهى محاولة مرة أخرى للسلام.

رتبت الأغراض الجديدة فى حقيبة «أير فرانس» الصغيرة، وارتديت قميصا نظيفا، وهذه البدلة السوداء التى صنعت فى أديس أبابا، إنها مضحكة وتقريبا للاحتفالات، وتتنافر تلك البائسة مع الحذاء الذى اشتريته من مورتانى، وهذا القميص الذى بدون رابطة عنق. مشطت شعرى، يا لها من بهجة، فبعد هذه الأيام الأخيرة أصبح المشط عاجزا أمام الشعر الطويل جدا. يا له من أمر مضحك، إذ يبدو عند تلمسه أنه نما أكثر من المعتاد. هل ينمو الشعر سريعا تحت تأثير الخوف؟ يا له من غباء. غسلت أسنانى، ونظرت إلى نفسى بإعجاب. مشيت عدة خطوات، ثم علقت البدلة على المقعد، ووضعت الحذاء أسفله، وفوق قائمه الوحيد أسندت الجوارب. استغرق ذلك عدة دقائق، ثم ارتديت «بيجامتى» الزرقاء الجميلة، وانزلقت تحت الأغطية. حامت حولى بعوضة أو بعوضتين ولكنى كنت قد دلفت إلى مملكة النعاس.

فى مورتانى، وقد كان ذلك يوم الأحد بمناسبة الاحتفال بيوم الصداقة الفرنسية الكندية، كان ثمة موكب يرتدى فيه العارضون أزياء من عصور قديمة، وفى الكنيسة يعزف الصيادون ومروضو الخيول على آلة البوق.

على المنضدة، ترقد ثمرة اليوسفى وحيدة. تتغضن شيئا فشيئا وتهبط قشرتها، وحدها الورقة العالقة بساقها مازالت صلبة متشبثة، هازئة بالحياة، متطاولة عليها.

السبت ٢ من ديسمبر مساء

لم يحدث شىء اليوم، وبدأ القلق يتسلل إلىّ مادام أنه صحيح أن الاختيار بين عذاب الاستجواب وعذاب الوحدة والصمت أصبح أمرا عسيرا. فحصت جسدى هذا الصباح من جميع النواحى، من النظرة الأولى، لا يوجد شىء على معصمى وكاحلى من آثار السلاسل الحديدية. تريضت قليلا، ووجدت نفسى مجبرا على السير مائة مرة بين المنضدة والحوض، وتقدر المسافة بحوالى ستة أمتار تقريبا. أعدت، بصورة منتظمة، قراءة الكلمات المكتوبة على الحائط والمطالبة بالحرية والتذرع بالإيمان.

قضيت الجزء الأكبر من النهار ممددا على السرير، واضعا يدى أسفل ذقنى. أسترق السمع. ولكن لم يكن هنالك سوى الضوضاء المعتادة. فى الخارج، حركة العساكر، الشاحنات والجرس. أما فى الداخل، فجلبة الأبواب التى تفتح وتغلق، والأصوات المشوشة غير المميزة. آه، بلى هناك صوت يتحدث بالعربية، وصوت مخالب الكلاب البوليسية. فى نهاية فترة بعد الظهيرة، بينما يتخفف الحراس، فيما يبدو، من مراقبتهم، تحاورت مع رفيقى المجاور لى على يسار زنزانتى من خلال لحن أغنيتى "المادلين"، و"فى جوار شقرائى".

نعمت اليوم ببهجة جديدة، فقد استطعت هذا الصباح أن أغسل ملابسى فى غرفة صغيرة جدا بجانب دورات المياه. غسلت قميصى، وملابسى الداخلية وجواربى، ووضعتها على عارضة السرير لتجف. حاولت تثبيتها بين الفراش والعارضة المعدنية.

قضيت عدة ساعات أتأمل الملابس، استعدت أبياتا شعرية من مسرحية "ميثرا" (واليوم حاولت شرح بعض النصوص بدرجاتها المختلفة من الصوت). تلوت الصلوات القليلة التى أعرفها، باختصار كما قال المحقق أنا أحيا.

الأحد ٣ ديسمبر مساء

يا إلهى يا إلهى النجدة لماذا هذا الصمت المطبق؟ لماذا لا يهتمون بأمرى؟ هل سأظل فى قاع هذا السجن المطبق حتى أقرر، كما قالوا، أن أتكلم. قليلة هى سيارات الفولكس فاچن، إلى حد الندرة، وهذا يعنى أن عددا قليلا هم من يغادرون المكان. وعلى الرغم من ذلك، فقد بدا لى أن الصمت يخيم على الزنازين الأخرى، وأن الأبواب لم تعد تقرع كسابق عهدى بها. آه ، كل شىء، كل شىء، ليتها لم تكن خالية، ليت الرجال مازالوا هنا معى.

ظلت "المادلين" صامتة دون جواب؟ قضيت جل النهار فى الفراش فى حالة من البلادة. التسلية الوحيدة التى وجدتها كانت البطاقة التى فى الحقيبة الصغيرة المدون عليها «أير فرانس». أى خط هذا؟ هو خط منتظم، ولكنه ليس محكما، لقد خطته يد

سعيدة؟ بالتأكيد ليست "جانين". هل «جانين» هى التى رتبت هذه الملابس القليلة والأغراض الأخرى التى سلموها لى يوم الثلاثاء؟ عندما فتحت الحقيبة، احتضنت محتوياتها، وضممتها إلى صدرى حزمة صغيرة، وكأنها ترمز إلى سعادتى المفقودة. انخرطت فى البكاء طويلا على هذه الحطام المتناثرة الناجية من الغرق. وأسفاه، فهذه الشذرات البسيطة من المجاملة والتعاطف هى التى تجعل المرء يتعلق دائما بنفحة من ماضيه.

«جانين»، طفلاى الاثنان، لقد تجاوزنا نحن الأربعة الاعتذار، وأصبحنا أبعد من ذلك، ولكن أين أصبحنا؟ إنها المرة الأولى التى ليست فقط تفرقنا الحياة فيها، وإنما تجبرنا على الصمت، ولا نستطيع أن يخبر كل منا الآخر من أجل أى شىء، ولماذا؟ آه، يا لعار العبودية، أى أحمق هذا الذى لا يعرف حتى إذا ما كان لابد أن يموت.

أحبائى الوحيدين، "كلود" و"بيير" و"أنت" "جانين"، هل تلومونني؟ أين أنتم؟ هل تتذكرون مثل هذه الترهات الرائعة فى منطقة "ليكوس"، وهذا الطريق الحجرى الذى انحدرت عليه سيارتنا فى اتجاه القصر القديم؟ يا لها من صور مسكينة. ما ينبغى أن تعلموه أننى لا يجب أن أستمر فى التفكير فيكم، ويجب أن أتخلى عن الأنانية الوحشية القاسية. فعندما غادرت مبنى مدرسة الحقوق تبينت، من خلال هدوء أصوات السيارات وصوتك أنت يا حبيبتى الآتى من النافذة، أنك كنت وحدك. وأنهم لم يتركوا أحدا كى يتابعك. كان يمكنك إذن أن تهربى، ومادمت لم تفعلى، فهذا من سوء حظك، ومن سوء حظ "كلود" و"بيير"، فسوف تدركون عندما ينظر بعضكم إلى بعض كم كنتم أغبياء. أما بالنسبة لى، فما الذى كان يمكن لى أن أتوقعه؟ فأنا وحيد، ولم يمنحونى الفرصة التى منحوها لكم، ومن التعيس أنكم لم تنتهزوا الفرصة . والآن، دبروا أمر أنفسكم.

مساء الاثنين ٤ ديسمبر

اليوم رأيت الشمس. فى نهاية فترة بعد الظهيرة، بدا أن هنالك أمرا يحدث، إذ ظلت الأبواب تقرع دون نهاية. سمعت صوت الحارس أمام الزنزانة المواجهة يقول: "

خش" كده؟ أيوه". ترى من الذى يتحدث هكذا بالعربية مع الحارس؟ هل هو «بليفيه»؟ والى أين يأخذونه وهو يرتدى نصف ملابسه؟

جاء دورى، وخرجت مرتديا القميص، وعيناى غير معصوبتين. واستطعت وأنا فى حالة انهيار رؤية الحارس والكلاب. وعند اجتياز الجدار القصير لحرم السجن، ظهر جانب من هذه المنشآت العسكرية، ثكنات صغيرة مغطى سطحها بالأسمنت حيث يجلجل منها صوت المذياع، ترى هل هى مساكن الضباط؟ وصلت مع الحارس الذى قادنى من ذراعى إلى إحدى هذه الثكنات الصغيرة. بعد عبور شارع عريض مرصوف وصلنا إلى حديقة تخترقها ممرات، تحفها حجارة من الجير الأبيض، وهى نفسها التى تصورت رؤيتها مساء الجمعة الماضى، ولكنى لست متأكدا من أنه نفس المبنى نتيجة للاتجاه الذى اتخذناه.

كانت النوافذ مغلقة، وكان الأساس على الطراز البرجوازى الذى كان سائدا قبل الحرب العالمية الثانية. ترى من يمكن أن يعيش هنا؟ وهل يعيش هنا أحد بالفعل؟ كان الهواء راكدا فى حجرة الاستقبال الفسيحة التى وجدت فيها محققا وطبيبا. وبعد أسئلة سريعة حول حالتى الصحية، طلبوا أن يتدلى سروالى حتى كاحلى. عن أى شىء يبحثون ثانية؟ فحص الطبيب سريعا كاحلى وركبتى، وانتهى الأمر.

المسافة بين عتبة هذا المكان والسجن تبلغ خمسين مترا على أكثر تقدير، قطعتها بأبطأ سرعة ممكنة متأملا السماء، والسحب الصفراء وقت الغروب، والهواء الجاف العذب، والنهار الهادئ دون ضوضاء سيارة الفولكس فاجن، واليقين من جديد بأننى لا أعبر كابوسا منفردا.

اختفى صوت "ماتى"، وكذلك "موتن". ولكن خلتنى سمعت صوت "بليفيه" منذ وقت قصير، كما أن ثمة صوتا آخر سمعته هذا الصباح عندما انفتحت زنزانة ليست بعيدة عن زنزانتى، واعتقدت أن هذا الصوت هو صوت الأستاذ "فيرى". بالتأكيد أن زنازين العنبر الفرنسى كاملة العدد. ما الذى حدث بالخارج؟ ومن يعلم خبر هذه العملية

واسعة النطاق ذات الأسلوب المريب؟ على أية حال، فإن الأمر لا يهمنى، ولكن ما يهم فى هذا المساء وأنا أسير تحت الشمس، وأنا أشاهد البشر والأشجار، هو أننى مرة أخرى ومن جديد لم أعد وحيدا.

هل ستكون هذه الزيارة تأكيدا أخيرا لحالتنا قبل...... ؟ آه، يا إلهى، إذا كان هذا هو الأمل الذى يجب أن يولد من جديد، لا تكن قاسيا، وافعل أمرا حتى يصير حقيقة، وإلا فدائما هناك عائق لتقتلعه إذن.

لأفكر فى شىء آخر، طريق "جيناك" على سبيل المثال، وأشجار الدلب. وعند الخروج من "سيلونوف"، نجد الطريق الصاعد المنحنى تجاه "سان جورج"، والذى يدور تجاه اليمين، ثم بعد منعطفين واضحين ناحية اليمين، فناحية اليسار، ثم طريق مستقيم يتوسطه جسر محدب خفيف، وعلى الجانبين يسارا ويمينا، نرى أشجار الكروم. وفى النهاية على اليسار فضاء مترام تظلله أشجار الصنوبر. وفى خلفية المشهد قمة جبل سان لو. فى هذه اللحظة ستكون السماء صافية، والهواء منعشا، إن لم يكن يوما من تلك الأيام التى تضطرب الملاحة فيها. نعم، هذا هو الواقع، تهطل السماء أمطارا. ولأشجار البقس فى الأراضى الواسعة رائحة قوية، تنبعث منها، وتنضح الآبار الماء بجيرها عبر الفجوات الممزوجة بقليل من التربة الحمراء القادمة من أعماق الأرض.

توقفت فى نهاية الممر الأيمن، وتركت الطريق ينساب دونى، وانخرطت فى بكاء طويل أسفل شجرة الدلب.

الثلاثاء ٥ ديسمبر

كان النهار قد ولى منذ قليل، وأنا أحس أننى فى السجن، وأنا أعنى ما أقول. فحتى هذه اللحظة لم أكن أشعر أننى فى السجن، لأنه كان لدى أمل للخروج منه. لم أكن أحس به، على حين أننى الآن......

هذا الصباح، فى السجن الحربى، دعانى الحارس إلى قضاء الوقت الذى أريده فى دورة المياه، ثم جاء الحارس الحلاق. وكنت قد بدأت أعتقد أنه كان سيحدث شىء آخر (فدائما ثمة استحالة فى أن تستنتج شيئا من مثل هذه التفاصيل الحمقاء سوى بعض الإشارات). وكالعادة، أدنت نفسى بكل النعوت، ومع ذلك، فقد كنت على حق للمرة الأولى. فقد كان الأمر يتصل فعلا بإشارات دالة، ولكننى فقط أدركتها متأخرة، فقد حدث أن الأمر ذاته جاء بعد الظهيرة.

سمعت صوت الفولكس فاجن تصل كالمعتاد. كنت قد أعددت نفسى على المستوى الذهنى للذهاب لجلسة التحقيقات، بل لقد تمنيتها. الآن، كل شىء يحدث، يا إلهى، كل شىء، ليحدث شىء ما. فالأبواب، يمينا ويسارا تقرع، وأناس يتحركون. دخل الحارس ليخبرنى بأن أرتدى ملابسى. ثم سمعت أصواتا، وفهمت أن الزنزانة التى فى مواجهتى قد فتحت منذ قليل (وهى تكاد تقع فى مواجهتى بانحراف إلى اليسار قليلا) هرعت إلى ثقب الباب، وألصقت عينى به. فمن خلاله يمكن الرؤية قليلا، لدرجة أنه أمكننى رؤية شخص ينزع أغطية السرير. مرت ثوان، وخرج شاغل الزنزانة سريعا، واستطعت بصعوبة أن أميز رجلا يتأبط غطاء فاتح اللون وشعره أصفر : " بليفيه"؟

عدت إلى وسط زنزانتى، يا إلهى اجعلهم يأتون إلى أيضا، ويقولون لى إننى سأخرج، لأن الآخر قد خرج ما دام الباب ظل مفتوحا. فعادة عندما أخرج للذهاب إلى دورة المياه مثلا، فإن الحارس يغلق دائما بابى قبل أن يصطحبنى. هذه المرة إنه بابى أنا، وهذا هو الصوت المعتاد لصرير القفل.

– مستعد؟ ضع أغراضك فى الحقيبة، واحمل الغطاء الخاص بك!

كان ذلك حقيقة! بماذا أسمى هذا الإحساس الذى انبثق إذن؟، أمل وخوف فى الوقت نفسه دون شك. وبينما أقبض بانفعال على حقيبتى الصغيرة بيد، واليد الأخرى تتأبط الغطاء، ألقيت نظرة أخيرة على هذا المكان الكريه الذى قضيت فيه أكثر من عشرة أيام، ونظرة أخرى على ثمرة اليوسيفى وورقتها الثابتة التى سأتركها، عفوا يا رفيقتى فى الأيام السيئة؟

أى إحساس ينتابنى الآن فى الفناء الصغير؟ إنهم هنا ثلاثة من حراس المخابرات الذين كنت أعرفهم من قبل.

على طاولة ترقد الحقيبة الجلدية. جعلونى أتأكد أن شيئا لم يفقد. عثرت أو أعدت العثور على أغراضى، الحزام، ورابطة العنق الزرقاء، وحافظة أوراقى، ودعامتى ياقة القميص، والبدلة، والجوارب التى تركتها مساء الجمعة، وبعض الأدوية. طلبوا منى التوقيع على محضر تسلم هذه الأغراض. هل أوقع؟ كان لابد من ذلك هذه المرة، وبدا الأمر عديم الجدوى.

ولكى أتجنب الوقوع فى أى فخ ممكن، وضعت توقيعا ابتكرته فى لحظتها. كان الخط عريضا مستديرا. سيغدو توقيعى من الآن فصاعدا، وإذا وجدته أسفل ادعاءات أو اعترافات، فعلى الأقل سأعرف معنى فرحة النصر، وأنا أرسم توقيعا فى تلك اللحظة يطابق توقيع رجل آخر.

غطيت عينى بالعصابة، استقللنا الفولكس فاجن. وجدت عن يمينى على الأريكة جسما صلبا، وعندما لمسته وجدته حقيبتى التى عرفتها بسيورها. أما عن يسارى فيجلس شخص ساكن لا يتحرك، لمست ذراعه، وضغطت عليه. فكرت فى هذه الحقيبة. ماذا يعنى كل هذا؟ قاوم، قاوم التعلق بالأمل.

نعم يجب أن أفعل، وفضلا عن ذلك، فإن الفولكس فاجن قد توجهت نحو طريق مبنى المخابرات. الانعطافات نفسها، والمنحنيات ذاتها. توقفت السيارة، ولكن الأمل عاد يلوح فى الأفق من جديد لأننى لم أنزل من السيارة، ولأن حقيبتى ظلت هنا بجانبى، ولأن الفولكس فاچن أخيرا عادت للسير مرة أخرى. وبدءا من هذه اللحظة، أحسست بالضياع. قطعنا طريقا مستقيما، وكان هنالك كثير من سيارات الفولكس فاجن أمام سيارتنا. تناهى إلىّ صوت صفارة إنذار الشرطة من بعيد. يا إلهى، لم أعد أستطيع الصراع. هل هذا يعنى الرحيل؟ الرحيل الحقيقى؟ الخلاص؟ لا، لم يعد هنالك صراع. الاستسلام إلى هذا السباق المحموم. هل هذا هو المطار؟ هل نحن

ذاهبون إلى المطار؟ سواء كنت أرى أو لا أرى فأنا أحسه وأعرفه. نعم، أعرفه. توقفنا، وسمعت محركات الجرارات الصغيرة التى تسحب الطائرات إلى مرائب الطائرات. أحسست بكثير من الناس يلتفون من حولى. وشعرت، دون شك، أننى اجتزت بابا، وكان الحارس يقودنى من ذراعى، ودون سلاسل حديدية فى يدى. كل هذا يا إلهى، كل هذه الإشارات.

أزالوا العصابة من فوق عينى، فوجدت فناء سجن. أما المحرك الذى سمعته، فهو محرك ماكينة كبيرة كان موجودا بالفناء. فى كل بلاد العالم السجون هى نفسها، المبنى ممتد، طويل، ومرتفع. أناس يرتدون أسمالا خضراء، والحراس والضباط منتشرون فى كل مكان. وقفنا متخذين شكل نصف دائرة، وكل يقف بجانب أمتعته.

على يمينى، كان "بليفيه" يردد «هذه إثارة واستفزاز. سوف يسجنوننا هنا عشرين عاما». ثم رئيس تحرير مجلة لايفو دى كار، الذى كان شاردا. وعلى يسارى، «موتن» الذى بدا أنه لا يرى شيئا، أما «ماتى» فكان يلتفت ببطء يمينا ويسارا، وكل ملامحه تشى بالغضب. وكان "فيرى"بذقنه البيضاء المهملة لعدة أسابيع، بارد الأعصاب، وهو موظف مصرى استقبلنى مرة أو مرتين بمكتبه. كما كان هناك ثلاثة رجال آخرون لا أعرفهم، أحدهم طويل ونحيف، والآخران قصيران وبدينان. ماذا نفعل هنا؟ هل نحن جميعا معا، أم أن الصدفة هى التى جمعتنا هكذا؟ فى فناء سجن بالقاهرة؟ وعلى الرغم من إنهاكى، وعلى الرغم من ضيقى، وعلى الرغم من ذهولى، ومن هذه الدموع المخنوقة فى الحلقوم، فإننى لست وحيدا. و هذا بالقطع يبرهن إذن على أن السويسريين قد عرفوا بالأمر. لأحيا، لابد أن أحيا.

فتشوا «بليفيه» وأصبح بملابسه الداخلية، وسرواله مسدل إلى كاحليه. ولكن بدا أن هناك ضابطا يعترض على هذا الأمر. وبالفعل فقد أعفى الباقين من هذا الفعل. ثم كان علينا أن نعطى النقود الموجودة فى ملابسنا، أو حافظة الأوراق، وخاتم الزواج إلى الحارس الذى وضعها فى مظروف. فى هذه اللحظة، نظرت إلى "ماتى" الذى نظر إلى بدوره، وهو يحرك رأسه علامة على عدم الفهم والكآبة.

أزلنا معا من أصبعنا رمز علاقتنا بالسعادة. ثم اختفى الحارس، ولكن على الفور، وبأمر من الضابط نفسه ذى النجوم الثلاث على كتفيه، أعادوا إلينا خواتمنا. وفى لحظة محددة، ولأول مرة دون أى خلط أو صراع، وبصورة واضحة تمام الوضوح، ولد مرة أخرى وبشكل مؤكد الأمل فى الحياة. أوامر موجزة : كل يأخذ حقائبه. تأبطت غطائى بذراعى اليسرى، وأمسكت حقيبة إير فرانس بيدى اليسرى، وباليد اليمنى قبضت على الحقيبة الجلدية. تحركت خلف "بليفيه"، وخلف أحد هؤلاء الثلاثة الذين لا أعرفهم.

إلى أين نسير فى هذا التشكيل الهندى مساء الثلاثاء الخامس من ديسمبر؟ إلى داخل السجن بالتأكيد، ولكن ماذا بعد ذلك؟ تلح على هذه الجملة وأتذكرها: "إذا لم تتكلم، سنعلقك"، (هل تعرف السجون المصرية ياميكيل ؟ هذا ليس مزاحا، سوف تضرب فى السجن ضربا مبرحا).

سأتعرف إذن على السجن الحقيقى، أما الآخر فكان نزلا، أو مرفأ وملجأ بين جلسات التحقيق، صحيح أنه قبيح وخانق، ولكن بالمقارنة إلى هذا المكان، فالأمر مختلف. ففى هذا السجن لا يمكن أن نكون عابرين، ولكننا مقيمون. أما صوت "ماتى" الذى قال، بينما موكبنا ينطلق ببطء «هذا لا يمكن أبدا، هذا المكان هو مجرد محطة، مستحيل أن نظل هنا»، هذا الصوت المسكين لم يجد أى صدى لدى.

اجتزنا عتبة، أفضت بنا إلى الداخل الذى لا يوجد به شىء مختلف. قاعة داخلية وأبواب، نعم، فالسجون فى كل مكان تتشابه. الجدران تنضح بالرطوبة، وخشب درجات السلم لزج. نحن الآن بالطابق الأول. فتح باب دخل منه «بليفيه» ثم أغلق، فتح باب يبتعد عنه قليلا لآخر منا، ثم أغلق، وفتح باب لى ثم أغلق.

وضعت حقيبتى فى ركن، وأرحت فوقها المعطف. لم يكن هناك شىء سوى أرض من الأسمنت غير مستو، تطقطق أجزاء منه، وجدران يكسوها الجير الأبيض، ملطخة ببقع من بقايا الناموس المسحوق. أما فى الخارج، فقد استمر تسكين النزلاء،

وصاحبها تعزيزات كبيرة من الصيحات. لاحظت أن بالباب كوة صغيرة، أستطيع أن أرى من خلالها صفا من ثمانى زنازين مقابلة فى الجانب الآخر من العنبر. من بين تلك الأبواب الثمانية، هنالك بابان مغلقان على «ماتى» و«فيرى». فتح الباب، ودخل الضابط ذو النجوم الثلاث، ورجل يرتدى ملابس مدنية وبعض السجناء، و من سيكونون غير ذلك؟ يرتدون زيا واحدا أخضر. بعد عدة أسئلة عن هويتى، وضعوا فى ركن الزنزانة دلوا، وفى الركن الآخر إبريقا من الماء المتسخ، فعلا متسخ، ثم غادروا المكان. جلست على الحقيبة، فظهرت أربعة أغطية ملقاة على الأرض. ومن جديد أصبحت وحيدا. ألصقت عينى بالكوة، رأيت فى الجانب الآخر، بالقرب من زنزانتى «ماتى» و«فيرى» ولكن ليس فى صفهما، يدا تلوح خلف قضبان الفرجة التى تعلو الباب، أجبت على اليد الملوحة بتلويح مماثل، ويا لسوء الحظ إذا لم تكن الرسالة موجهة لى. ظلت اليد تلوح وكذلك يدى لفترة طويلة. ليباركك الله يا أخى من أجل هذا الترحيب والاستقبال.

على مقربة من زنزانتى، فتح باب، وتناهت إلىّ صيحات، وصخب خطْوات تتدافع. نعم، دون شك، لابد من الضرب فى السجون المصرية، وأنا جدّ خائف.

هذه المرة، هذا باب زنزانتى الذى فتح، والآن فهمت الأمر. كانوا يجهزون الزنزانة بالأسرة التى تماثل أسرة المستشفيات، يا للسخرية! ثم جاءوا بمقعد، وبحوض يستند إلى دعامة معدنية. والآن أعتقد أن هذا كل شىء بالنسبة لهذا المساء، فقد قال لى الضابط إلى الغد، كما أنه أشار قبل أن يغادر الزنزانة إلى إبريق مياه الشرب والاغتسال، وأن الجردل للتبول، و.....الباقى؟ الباقى؟ مرتان فى اليوم سوف يصطحبونى إلى دورة المياه، صباحا وبعد الظهيرة. عمت مساء!

لم أتعرض للضرب، وإذا كنت سأظل وحيدا فعلا حتى الغد، وإذا لم تأت وحوش الليل فعلا لتأخذنى، فربما أنام. أفكر؟ غدا أفكر فى «الباقى». الآن، أرتب فراشى. عندما نظرت إلى الكوة الأخرى المواجهة للباب، وجدت نوافذ مضيئة، وطاولة، وظلالا

تذهب وتجىء، ربما كانت أُسرة تقطن هناك فى هذه البناية. أحسست بالظمأ، تناولت الإبريق، وأغمضت عينى وشربت. عدت إلى الباب مرة ثانية، وألصقت عينى بالكوة الصغيرة، ورأيت الزنازين فى الجانب الآخر من القاعة هادئة. لاشك فى أنهم يفعلون كما أفعل، رفقائى، يجلسون، ويسيرون ويدورون دون أن يفكروا كثيرا بما سوف يحل بهم.

يَطُنُّ السجن على الدوام، أصوات فى كل مكان. حل الليل، وسأنام الآن، أحاول إغلاق عينى، ولكن يوجد مصباح بالسقف، ويبدو أن ضوءه أقوى من مصباح السجن الآخر. هناك كنت أعتقد أحيانا أنه كان يجب أن أموت، ولكن على الطرف الآخر من سلسلة الافتراضات الجهنمية فى ذهنى الخالى حينا والمضطرب حينا آخر، يظل أمل الخلاص.

أما هنا فإنهم لم يضعونى فى هذا المكان لأموت وفق كل الاحتمالات والتوقعات. ولو كانوا قد أرادوا لكانوا الآن قد فعلوها، وأنا مطمئن من هذه الناحية. ولكن علىّ أن أواصل الحياة.

عش أيها السجين، أستدير بطريقة دائرة، أحاول النوم... عش، عش. وهكذا ربما سيفضى بى الأمر إلى الجنون. أحاول النوم، أنام بالكاد، ولكن على أى حلم سوف أنهض؟ أجلس فوق الفراش، ويأتى هذا الصوت الصارخ من أعماقى «أنا فى السجن، يا أمى، يا «جانين» يا والدى يا أصدقائى، يا بلدى، يا كل العالم بأسره، أغيثونى»

مساء الأربعاء ٦ من ديسمبر، ليلة الخميس ٧ من ديسمبر

بعد منتصف الليل بقليل

استيقظت هذا الصباح على ضوضاء الباب وهو يفتح. بعد عدة دقائق، وكنت قد ارتديت ملابسى، اجتزت، وأنا أحمل حقيبتى، الجانب الآخر من البهو. يبدو، من خلال لعبة تحريك السجناء فى قلب ضوضاء هائلة، بين الأوامر والأوامر المضادة، أنهم على

وشك تسكيننا فى زنازنين متجاورة. نحن الذين كنا مساء أمس فى فناء السجن نلتقى جميعا هنا الآن. أستطيع أن أنتهز الفرصة لتبادل بعض العبارات الضرورية مع «ماتى» و«بليفيه» أثناء لحظات تخفيف المراقبة:

-"أنا لم أعترف بشيء عنكم".

- "وأنا كذلك".

- "فى كل مرة كنت أطلب المواجهة".

- "اتفقنا".

تم نقل الطاولات، والأسرة، والمقاعد، وأدوات أخرى، ثم دخل كل منا زنزانته. وهكذا إذن كانت زنزانة «بليفيه» هى الزنزانة الأخيرة فى نهاية العنبر، ثم «زنزانتى» ثم يأتى بعدنا «ماتى» وموتن» و«فيرى»، ثم.... فقدت التسلسل بعد ذلك. فى زنزانتى الجديدة، لم أجرؤ بعد على إلصاق عينى بالكوة الصغيرة فى الباب. ومن وقت لآخر فقط، سأحاول رؤية ما يحدث. حراس يتحركون، أبواب زنازنين مثل باب زنزانتى. بعد برهة فتح بابى، ودلف منه محقق المخابرات ذو النظارة مستديرة العدسات الذى كنت أعرفه منذ قبض علىّ فى منزلى. شكرته على مجيئه لتفقد مقرنا الجديد. فحلت عليه سخريتى باردة. بعد قليل اصطحبونى لأسفل فى الفناء، لالتقاط صورة. أمسكت بلوحة، أسندتها إلى ذقنى، وقد كُتب عليها رقم. وقد كنت رأيت هذا المشهد فى أحد الأفلام قديما. وصعدت إلى زنزاتى مهيض الجناح دون أن أتمكن حتى من تحديد مكانى، وتبين التفاصيل الداخلية للسجن.

ثم نزلنا مرة أخرى، واقتادونى فيما يبدو إلى مكتب مأمور السجن. وجدت مصورين، وكان هنالك رجل يحمل شيئا يشبه الشمعدان، ولكنه مزود بمصابيح كهربائية ضخمة وأسلاك. كما كان هناك مقعدان وثيران كبيران أمام مكتب مأمور السجن، جلست على أحدهما، وبجانبى جلس على مقعد صغير مترجم المخابرات الشاب الأسمر الوسيم بسماحته المتميزة الباردة الحادة. وخيم صمت على المكان.

وفجأة، وسط ضوضاء الكاميرات والفلاشات، دخلت «جانين» مهيبة، وعيناها ممتلئتان بالدموع، تحجزها أطراف أجفانها. ظننت أننى سأنهار. عندما ضممتها بين ذراعى ودفن كل منا وجهه فى عنق الآخر. استطعنا أن نبكى، وأن يمسح كل منا دموعه فى شعر الآخر، وعدنا للظهور أمام الكاميرا بوجهين مجهدين لكنهما غير مبللين بالدموع. وفكرت أننى بدءا من الآن لن أستطيع رؤيتها إلا على هذا النحو بعد أمر من المأمور بألا نتكلم إلا بصوت مسموع وبطىء فترة محددة من الزمن. كانت أيدينا متشابكة، ومع ذلك، فطوال فترة حديثى لها وسماعى إياها، كان هدفى الوحيد ألا يظهر منا أمام الكاميرا وجوه يبدو عليها اليأس. لقد تحدثنا عن ألف شىء: عن أننى لم أكن وحيدا فى أى لحظة، وعن أن زملائى ووالدى وأصدقائى يفعلون كل ما يمكنهم من أجلى، وعن أن سبب بقائها حية هو أنا، وعن أن نموذج صمود والدى خمس سنوات فى المنفى فى ألمانيا ماثل لكى يساعدنى، وعن أننى ينبغى أن أعتنى بنفسى عناية فائقة، وعن أن أيام الخلاص ستأتى.

كل هذا بالتأكيد كان طبيعيا، ولكن هذا الإشعاع وهذه البارقة من الأمل فى ليلى الحالك لم تكن متوقعة. عندما قالت لى : «سأسافر هذا المساء مع الطفلين بالطائرة التى تقلع بعد خمس عشرة دقيقة من منتصف الليل من أجل الطفلين، فهما لا يعرفان سوى شىء واحد، هو أنك والد رائع، رتب لهما قضاء إجازة الكريسماس فى فرنسا»، فكرت، على الفور، أننى لن أكون إذن كباقى السجناء مع الذين يحبونهم، فيلوحون لهم بأيديهم فى البهو من وقت لآخر من وراء القضبان، وهكذا، فسأكون وحيدا. ولكن لم يكن لدى الوقت ولا الرغبة لأقول ذلك، لأن هذه الفرحة العارمة قد برقت داخلى فجأة عندما تيقنت أن عائلتى قد نجت من كل سوء، وأن «جانين» هنا أمامى بخير، كما أنها يمكنها الحياة وحدها من أجل أولادها. ولهذا فقد قلت لها أنا أيضا بدورى ألف شىء: قلت لها لا السعادة ولا التعاسة دائمتان إلى الأبد، وإن وضعنا الآن يماثل تماما وضعنا أثناء فترة خطوبتنا الطويلة وعندما افترقنا، بدأ كل شىء. فقد وجدت اليقين، ومعه أحسست بالسكينة والرجاء....

كنت هادئا عندما أخبرنا المأمور أن المقابلة قد انتهت. نهضنا، وتعانقنا مرة ثانية، ولكننا كنا للأسف نبكي. همست في أذنيها قائلا دون خشية :«حبيبتي، أرجوك وأتوسل إليك، إذا كنت تحبينني، لا تيأسي أبدا، هل تسمعينني؟ أبدا مهما علمت، وقولي لنفسك، ورددي دائما في كل دقيقة إن البشر والأنظمة غير مخلدين». ثم ابتعدنا، وعبر دموعنا لاحت ابتسامة على شفاهنا. وحاول كل منا أن يسحب يده من يد الآخر، رويدا رويدا تنزلق كل يد من الأخرى، وتبقى الأنامل، ثم لا تلبث أن تبتعد عن الأخرى، أغمضت عيني، وانتهى الأمر. وابتعد كل منا، من جديد، عن الآخر. وانهار الجسر الواصل بيننا. وفي عباب الضباب، على بعد عدة أمتار مني، عبر ظل رمادي إلى الضفة الأخرى من النهر.

جلست، وتمخطت، وواجهت وحدي الكاميرات. هل حملت نظراتي قدرا من البغض والازدراء؟ أسامحهم؟ آه ! يا إلهي! أبدا، أنت يا حبيبتي هناك، وهناك أيضا "كلود وبيير". ترى من أي مكان أتينا حتى نغرق في هذه المغامرة الكريهة؟ منذ أي وقت، درجت في حياتنا؟ وأنت؟ من أين أتيت في هذه اللحظة؟ من أي حلم ظهرت في هذا المكتب حيث يحرص على إذائنا مصورو رئاسة الجمهورية ووزارة الداخلية منتصرين ومعتدين بأنفسهم، ويحملون عنفا.

نظرت من حولي، وقع بصري على الحائط، وفي ركن منه صندوق زجاجي، يترنح فيه بندول ساعة. إنها المرة الأولى التي أرى فيها الساعة منذ أيام طوال. كانت عقاربها تشير إلى الواحدة والثلث.هدأ اهتزازها من نفسي وأراحاني، وهدهدني. فالوقت إذن يمضي.

دخل مستشار السفارة السويسرية «جون ويبر»، واحتضنني، وبث إلى مشاعره، وأطلعني على التفصيلات الكثيرة للطريقة التي سيتم بها معالجة وضعنا الحرج. وَدَوَّنَ ما طلبته منه من أغراض للحياة اليومية، وكتب. كيف يمكنني أن أقول له ما يعنيه لي هذا الصوت الإنساني والوجه الصديق؟ كيف يمكن أن أطلب منه معرفة سبب هذا

الكابوس؟ ولكنه لا يملك الحق فى الإجابة عن هذه التساؤلات، وكلامه يدور حول العموميات فقط .

على أية حال لا يهم. عندما صعدت إلى زنزانتى بعد تغيب ربع ساعة تقريبا، كنت أحمل كتابا، الأمر الذى جعلنى سعيدا جدا، إذ إن هذه الرواية البوليسية لأجاثا كريستى التى تحمل عنوان «جثة فى المكتبة» قد جعلتنى أتصل بالعالم. ففى هذه اللحظة نفسها، أعرف أن هناك بشرا يتحركون هنا وفى فرنسا، كما أننى لست حزينا مادامت «جانين» سترحل هذا المساء.

قضيت فترة بعد الظهيرة أفكر فى المستقبل، وفيما سأفعله به حينما أعود إلى بلدى، كما فعل والدى بعد غياب طويل عندما كان يذرع الأماكن طولا وعرضا، ويدندن بالأغانى التى أعرفها. جاء ضابط ذو شارب كث، يضع نجمتين على كتفيه، وجعلنى أوقع على أوراق كثيرة، بدا لى أنها «عريضة الاتهامات» اتهام بأى شىء؟ ظل صامتا، وكذلك السجين المسن الذى اصطحبه ليتولى أمر الترجمة. وقعت لهم بتوقيعى الجديد الذى خصصته لهم، وهو رسم من خطوط عريضة دائرية. ثم طردت من ذهنى شواغل أخرى، حتى لا أفكر إلا فى «جانين» فى إحدى لحظات هذا المساء. طرق «بليفيه الحائط» من زنزانته المجاورة لى عن يسارى. قبضت على الأعمدة الحديدية للكوة الموجودة أعلى الباب، وعلوت بوجهى قدر ما أستطيع :

– "بليفيه".

– نعم يا ميكيل، هل تسمعنى.

– نعم.

– لنتكلم بصوت منخفض.

– لنسرع، لأن قوة يدى ستخور، ولن أستطيع الاستمرار على هذا الوضع كثيرا.

– ضع المقعد وراء الباب واصعد فوقه.

فعلت ذلك بأدنى قدر ممكن من الضوضاء، وناديت بالطريقة نفسها على «ماتى» الموجود فى زنزانة على يمينى. وبعد برهة قصيرة أصبحنا ثلاثة وجوه تطل من الكوة الصغيرة. واتفقنا على عمل إشارة خاصة تدل على اقتراب «الخطر»، وهى عبارة عن ثلاث طرقات، ثم طرقتين على الحائط. وعلى الرغم من الهرج والمرج اللذين كانا يسودان الزنازين الأخرى، حيث تصدر الصيحات المختلطة بالأغانى والسباب، استطعنا أن نتبادل بعض العبارات حول زيارات هذا الصباح. كان «بليفيه» يحتفظ «بساعة»، وسوف يطرق على الحائط فى الثانية عشرة والربع، وقت رحيل زوجتى مع السيدة "ماتى"، والسيدة "موتن"، وبدورى سوف أعرف «ماتى» بالوقت وذلك بالطرق على جدران زنزانته. ولكن كيف يمكن إشعار «موتن» الذى سيظل وحيدا لا يسمع جيدا؟ يقترب صوت الحراس، أنهينا الحديث على عجل، وتمنى كل منا للآخر ليلة سعيدة. وضعت المقعد مكانه، وجلست على حافة السرير، مشيت ثم انتهى الأمر بانخراطى فى قراءة روايتى ببطء شديد. وأخيرا، ركعت بجانب السرير على ركبتى، وتلوت صلواتى.

ذرعت من جديد الزنزانة طولا وعرضا، ظللت أفكر مليا. وأخيرا سمعت طرقا على الجدران من جهة اليسار، ونقلت بدورى الرسالة إلى «ماتى» بطرقات محكمة. ولاشك أنه كان مثلى فى هذه اللحظة، خائر القوى، يجلس على الأرض بجانب السرير، يتأرجح بين السعادة والدموع. أى حبيبتى فى هذه اللحظة، تحملين بين حنايا قلبك "كلود" و"بيير"، وتسافرين فى طائرة ضخمة، وأنت تستمتعين بالحرية. ليرعاك الله. ولكنك تلصقين وجهك بنافذة الطائرة الصغيرة، وتنظرين فى الأسفل، إلى الأضواء الكثيرة لهذه المدينة عديمة الإنسانية حيث يسجن زوجك هناك فى نقطة ضوء من هذه الأضواء الكثيرة. ترى فى أى نقطة منها؟ هذه؟ أم تلك؟ وأنت تعلمين فى هذه اللحظة، وأنا أقسم لك، أنه مهما حدث، فأنا أتمسك بحياتى وأؤمن بها من أجلك ومن أجل كنزى الاثنين. احمهم يا إلهى فى طريقهم، واجعلهم يَصِلُونَ سالمين مُعافين. ألم تقولى لى إنكم ستصلون فى الخامسة صباحا تقريبا؟ ترى من سيكون هناك

لاستقبالكم؟ دون شك كل أفراد عائلتنا، دون شك، و أول المنتظرين ستكون هذه السيدة المسكينة التى بعد أن انتظرت خمس سنوات زوجا سجينا، ترى اليوم ابنها بدوره سجينا، ولكن فى هذه المرة ليس بسبب الحرب الوحشية القاسية. لن أشكو أبدا. فأنا هنا الآن بعيد عن أى ضرب وتعذيب، وبصحبة رفقاء المحنة، وقد خرجت، أنت، من هذا الفخ. وسأنام هادئا قرير العين. لا يا حبيبتى، لن أكون حزينا مادمت قد سافرت هذا المساء.

الخميس ٧ من ديسمبر، مساء

هذا الصباح ما إن استيقظت حتى وجدتنى أفكر فيك. إذا كانت الأمور قد سارت على ما يرام، فأنت الآن وسط أناس يحبونك، وقد نجوت. لذلك سألتفت قليلا إلى نفسى، وإلى العالم الجديد الذى حللت به.

كانت ليلتى هادئة، إذا وضعنا الناموس جانبا. وقد وضعت قميصى فوق رأسى، وتركت فيه نفقا صغيرا للتنفس. كنت أظننى فى مأمن، لكن هذه الحشرات القذرة كان لديها كل الجرأة أن تتجمع حتى داخل مخبئى. فى البداية، كنت أحقق متعة الرضا من خلال قتلها، ولكنى بعد ذلك استسلمت للنوم. وفى هذا الصباح لمست فوق جبهتى سلسلة من النتوءات من آثار هجمات الليل.

زنزانتى طولها أربعة أمتار، وعرضها متران ونصف، يضاف إليها كتفا فتحة الباب بعمق أربعين أو خمسين سنتيمترا تقريبا. الباب لونه رمادى داكن مثل لون الجدران، وعتبته تبلغ نحو خمسين سنتيمترا، وسمكه أربعة سنتيمترات، وطوله أقل قليلا من مترين، وعرضه من سبعين الى ثمانين سنتيمترا. تعلوه كوة بنفس العرض، وارتفاعها ثلاثون سنتيمترا. وهى الكوة التى تم من خلالها حديثنا مساء أمس. وهى مكونة من شبكة حديدية بقطر سنتيمتر واحد ونصف، وهى عبارة عن قضيبين عرضيين يتقاطعان مع ستة قضبان طولية.

فى الجهة المقابلة للباب وعلى ارتفاع مترين وثلاثين سنتيمترا، وهو ما يعادل طول قامتى وأنا ماد ذراعى إلى أعلى، توجد كوة أخرى تطل على فناء السجن. وهى أعلى من الكوة المواجهة بخمسين سنتيمترا، وعرضها تقريبا ثمانون سنتيمترا. تضم خمسة قضبان رأسية، سمك كل قضيب سنتيمتران. ويبدو من ورائها شق من سماء زرقاء، وركن من بناية بيضاء على اليسار، ومن بناية صفراء على اليمين. تنعكس عليهما أشعة الشمس. وأستطيع أن أقدر أن زنزانتى تطل بصفة عامة على الغرب. وإذا تراجعت قليلا ناحية الباب، أستطيع رؤية نخلة من أعلى الكوة، وحينئذ تجول بخاطرى أبيات "فيرلين" فى سجنه فى "مون".

وتغطى جدران الزنزانة من حدها السفلى الرمادى طبقة من الجير الأبيض. تلطخها بقع من الناموس المسحوق، وقد أضفت إلى هذه المجموعة مجموعة أخرى منذ الأمس. انتهيت من قراءة الكتاب، وانخرطت فى تتبع تفاصيل الناموس المسحوق، فبعضها مات ملتصقا بالأنف، والبعض الآخر مازال يتأرجح فى تيار هواء الزنزانة الدائم، وبعضها بقى منه جناح. والمجموعة الأخيرة لم يبق منها سوى بقع متناثرة أحيانا أو متجمعة أحيانا أخرى على الحائط. كانت أكبر بقعة على الحائط فى حدود خمسة سنتيمترات. وفى الوقت نفسه، حاولت أن أتلهى بتقدير أطوال من سبقونى فى الزنزانة من خلال أعلى بقع على الحائط. وهنالك بجانب الحائط، خطوط تتقاطع طولا وعرضا توحى أنها بالتأكيد تقويم حفره السجناء. حاولت عدها، هل يمكن أن يقضى الإنسان خمسة وثمانين يوما فى السجن؟

وها هى مفردات عالمى التى سترافقنى بدءا من الآن: السرير، الأغطية الأربعة الرمادية، أما الخامس فهو ذو خطوط مربعة مثل الوسادة، المقعد، إبريق المياه، إناء الاغتسال، دلو التبول، الطاولة ذات الصينيتين المتداخلتين، ومساحتها خمسون سنتيمترا فى أربعين سنتيمترا. رددت ذلك على نفسى، وكررته دون توقف: كان لديك حياتك من قبل مع أطفالك وعائلتك وبيت ووسائل مرح ورحلات وعمل، انتهى كل هذا وولى. الحياة، الحياة العادية الآن. هل هى التى ينبغى على أن أحياها هنا؟ والذكريات

القديمة تمر الآن كأنها حلم. وفي كل لحظة، يتشكل لدى وعى بواقع الحياة التى أحياها اليوم، بواقع هذه الجدران وبواقع الوحدة. تماسك، تماسك من أجل اللحظة القادمة. متى تحين؟ وهنا رفض للمناقشة والجدل من جديد. أنا منعزل فى هذا النمط من حياة البشر الذى يمكن أن يكون حياتى أنا، فى هذا السجن المؤقت الذى يحبس بين جدرانه الأمس واليوم وربما الغد.

نمت جيدا إلى حد ما على الرغم من إضاءة المصابيح. لم يأت أحد يسحبنى من فراشى لكى يقول لى، ما اسمك؟ ارتد ملابسكياميكيل، تكلم. لا، فالليل يمر هادئا عدا تلك الصيحات غير المحتملة التى تشق هذا السكون، والصادرة عن الزنزانة الواقعة على يمينى، دون أن تتم الاستجابة الواضحة لها صيحات بلغة غامضة، متقطعة مسحوقة، وطرقات على الباب. ولكن ثمة صوت يحتج، يطلب المساعدة، يبكى، ويئن، حتى إنه يعوى من وقت لآخر. هل هو إنسان، يا إلهى، ماذا يعانى؟

وها هو صوت غناء قوى ينبعث من الناحية اليمنى ليهدأ من روع هذا التعيس. يغنى الأناشيد: "المجد لله فى الأعالى، ولد الطفل الإلهى يأتى خالق الروح منتصف الليل لمسيحى؟ هذا صحيح يا إلهى! سيأتى عيد الميلاد قريبا. وسيغنى هذا النشيد من أناشيد كنائسنا فى تلك الليلة دون شك. وعلى الرغم من قراراتى الحازمة، ومهما أفعل، فقد انبثق الماضى من داخلى، تماما كما حدث هذا المساء، واجتاحنى وطوانى، حين لاحت لى ابتسامة «جانين». تثير شجونى عبارات الأغانى التى تغنيت بها يوما تحت سماوات أخرى.... فرساى، المتنزهات، قصور البروفانس، لالوار، سانسير.... وبعد دقائق أصبحت غارقا، فى رؤى تلتف حولى وتحيط بى.

فى الصباح الباكر، فُتح باب الزنزانة، بعد أن سمعت جلبة على يسارى فى زنزانة "بليفيه" دخل حارسان، وسجينان شابان تتراوح أعمارهما بين السادسة عشرة، والسابعة عشرة فقط. يرتديان سروالين، وقبعتين. ملابسهما متسخة، وأقدامهما عارية.

أحضرا المياه المستعملة، ودلو التبول. ومررا فوق أرضية الزنزانة ممسحة مبللة كانت قد تم وضعها من قبل في دلو ذى لون رصاصى مملوء بالماء.

وبرفقة الحارس الذى سار بجانبى، ذهبت إلى دورة المياه التى تقع فى نهاية البهو من الجهة الأخرى. ويقدر طول البهو بحوالى مائة متر. فى منتصف الطريق، اجتزنا ردهة صغيرة للعبور إلى الجانب الآخر حتى لا نحاذى الزنازين العشرة أو الاثنتى عشرة الواقعة على امتداد زنازيننا، ولكنها تختلف عنها. ففتحاتها ذات شبكات تحتل جزءا كبيرا من الباب، تعلو الباب كوة شبكية أيضا. كما أنها مضاءة من الخارج من خلال مصباح مثبت فى مواجهة شبكة الكوة. خلف هذه الأبواب، رجال يرتدون لباسا أحمر.

تحتوى دورة المياه من جانب على ست أو سبع مراحيض تركية، وفى الجانب الآخر ماسورة مياه تنبثق عنها ثلاثة صنابير للمياه الباردة، ثم أربع حجرات صغيرة للاستحمام. يبدو أننا يمكننا استخدامها مرة واحدة فى الأسبوع، يوم السبت. يرتفع جدار بطول مترين تقريبا يفصل بين دورات المياه وحجرات الاستحمام، والمكان فى مجمله على درجة معقولة من النظافة بالنسبة إلى قدمه. وجدت هنا منشفتى الاستحمام الخضراوين.

عندما خرجت من دورة المياه، أحطت بطرفة عين معالم البهو. فى الأسفل توجد الزنازين، كما أن هنالك بهوا فى الطابق الأول، وبهوا آخر فى الطابق الثانى، ولا يبدو أن ثمة طابقا ثالثا. المكان فى الطابقين المشار إليهما خال ونظيف، يشابه السجون التى نراها فى السينما. تعبره دعائم حديدية تصل فيما بينها أعمدة معدنية ضخمة تثبت هيكل البناء. يلف بهوى الطابقين درابزين من الحديد. ولكن الأمر العجيب أن امتداد الفراغ ينتهى فجأة فى الطابق الأول عند ثلث طول البهو، وتبدأ أرضية أسمنتية فى الظهور، تصل من هذا الجانب ومن جانب الزنازين، بين جانبى البهو.

والناظر من هذا الموضع، يستطيع رؤية زنازيننا الواقعة فى نهاية طرف هذا العالم من السقالات المعدنية، ومن الداربزينات، ومن الأسلاك الكهربائية، المستوحى من المدرسة البرناسية الحديثة.

فى طريق العودة، كنت قد تبينت الآن الجانب المقابل للزنازين باعتباره يضم زنازين مميزة، عبر الردهة وجدت زنازين أخرى، ثم زنازين "فيرى"، و"موتن"، و"ماتى"، وعند الزنزانة رقم ١٤ ، دلفت إلى الداخل، فهذه هى زنزانتى، وأغلق على الباب من جديد، ولم تدم هذه الجولة سوى خمس دقائق.

بعد برهة، جاءوا حاملين إلى وجبة الإفطار فى قصعات، وكانت تحتوى على القليل من اللبن البارد، وقطعة جبن، وخبز، وزيتون أسود. ثم ران صمت حتى الوقت الذى بدا لى أنه الواحدة أو الثانية ظهرا. جاءوا بجفنات أخرى تحتوى على خبز، وأرز، وبعض خيوط تشبه براعم فول الصويا، وقطعة صغيرة دهنية من اللحم، وسلاطة خضراوات، وصحن من الخضراوات المطبوخة، وقطعة جبن، وهى وجبة كأنها جالون من الشمبانيا جاء بعد كوابيس هذه الأيام. فى نحو الرابعة أو الخامسة من بعد الظهيرة، وبعد الذهاب الى دورة المياه، جاءت وجبة المساء وكانت عبارة عن خبز، وزيتون أسود، وقطعة من الجبن الأبيض. بعد هذه الوجبة يتم إغلاق الباب إغلاقا مزدوجا طوال الليل حتى الصباح.

كنت سعيدا إلى حد ما بهذا النظام. أن يأكل المرء فى هدوء وسلام، ولا يقع تحت طائلة التحقيق أو يتعرض للضرب. وقد أتاحت لى هذه السعادة أن أتحمل قضاء اليوم بأكمله فى الزنزانة. ومع ذلك ومن حين لآخر، كنت أعيد قراءة بعض فصول رواية «الجثة فى المكتبة» وأنا ألوك الكلمات فى فمى بتلذذ كلمة كلمة.

فى الليل، يصبح السجن هادئا، وتسكن خطوات الحراس، والصرخات، والأغانى والشتائم. وعلى الجانب الآخر، تنبعث، لحسن الحظ، من الكوة ضوضاء المدينة وأبواق السيارات، والعربات التى تجرها الحيوانات ذات الأجراس، ونهيق حمار كما حدث ليلة أمس. إنه بالتأكيد فى فناء ما مثل ذلك الحمار الذى كان يصيح تحت نافذتك فى

مستشفى دار الشفاء، هل تذكرينه يا حبيبتى؟ وقد حرص حمارى على مصاحبتى كما كان الشأن بالنسبة لك. هذا الحيوان الذى أحبه كثيرا، على عكس الحصان، هذا الحمار الذى ينظر إليه على أنه دابة سوداء قبيحة بليدة، أجده هنا وفيا ذكيا. وسأنام الآن على خليط مزدوج من نهيق الحمار، وصرخات جارى التعيس الذى يقرع على بابه، ويصرخ، ويصرخ حتى الموت.

الجمعة ٨ من ديسمبر

لن أضربهما أبدا. لن أضرب هذين الطفلين الذين منحتهما لى، عندما أعود. لن أصفعهما أبدا، ولكنى سأحتضنهما بين ذراعى، وأهدئهما وأواسيهما، وأجعلهما يعيشان فى عالم يحوطهما، بعيدا عن عالم الأشرار. ولكن لا، فإنه من الصعب أن تبنى إنسانا، ولكن من السهل أن تحطمه بأن تمنحه حياة بديلة. فصناعة الرجال الأحرار تتم من خلال تعرضهم للصدمات. لقد كانت طفولتى شديدة الاستقامة والسعادة، وكانت الفضائل زاخرة بالأحلام فى ذلك العصر، وتتحقق من خلال وحدتى وصمتى، وامتناعى عن الأخطاء الصغيرة. سأعلمهما أن يخوضا مثل هذه التجارب، وأن يتعلما كيف يحميان نفسيهما.

يا إلهى، لقد بالغت دون شك كثيرا فى نشدان المستحيل، وهذا المستحيل هو صداقة بلادى والعرب بعدما شاب العلاقة من آلام وتباريح. كنت أعتقد، بمجيئى إلى مصر، أننى أقدم فى إطار التبادل الثقافى بين البلدين تصورا مسبقا للسلام الذى وجدناه أخيرا، من سيجرؤ على قول ذلك؟ أنا؟ هل سأجرؤ على قول النقيض؟ حتى الآن، حتى لو كانوا يشتبهون فىّ، يسخرون منى، يعتدون على بالضرب. نعم، ولكن هل ستستطيع أنت أن تسيئ إلى العقول، وتقول إن هذين الشهرين والنصف اللذين تمتعت فيهما بالحرية قد مرا سدى؟ المقابلات، والنظرات، كل هذا لا يمكن أن يجعلنى أخطئ. وعلى الرغم من ذلك، وعلى الرغم من صحته، أنا هنا ولا يستطيع أحد أن يهب للدفاع عنى.

واليوم، أنا أتوسل إليهم. لو كانوا يعرفون ما تركته. ما تعهدت به للمجيء إلى هنا. ما نسيته أيضا من أمر الفرنسيين الذين قتلوا، ومن أمر ابن عمي الشاب ذي العشرين ربيعا، الذي أطلب من طيفه الذي يلاحقني كل مساء أن يعفو عني، أن يسامحني، وقد راح هو أيضا ضحية لهذا الصراع العبثي الذي دفع حياته ثمنا له. كل هذا يا إلهي، ثم ينتهي بي الحال في زنزانة. ولكن هنالك على الأقل نتيجة في حال عدم وجود نتائج أخرى، وهو أنني كنت قد جئت إلى هنا بقليل جدا من حسن النية، وربما كنت مولعا بالتسامح مع سلوك نظام كانت غاياته، ومازلت أعتقد ذلك، أسمى هدفا من غايات النظام السابق عليه.

إنني أطلب العفو منك يا إلهي ومن الناس، لكن لا ينبغي أبدا المساومة، لا هنا ولا هناك، ولا في هذا الأمر، ولا في غيره، حول الوسائل، وحول الفرد، وحول أي فرد. بلادي الجميلة والوديعة التي انتقدت بشدة، واعتبرت قابلة لمزيد من النقد، نعم هي كذلك، ولكن ليس من قبل هؤلاء. لتكن هي أعلى شأنا من ذلك، ولتكن جديرة باعتزازك أنت، وبالصورة التي قدمتها عنها يوما للعالم. وهي تلك الصورة التي سوف تستمر مهما بلغ الأمر. وأنا أعلم أنهم سيواصلون هنا المحافظة على ما يعتقدون عن بلادي. إن الأمر لمضحك، فبالأمس في سبيل الدعوة للحرية، كنت أنتقد بلادي. لكنني الآن، ودائما تفرض عليّ انتماءاتي الوطنية الواضحة أن أستمر في ممارسة هذه الحرية ذاتها لكن بحذر شديد.

اليوم هو يوم الجمعة، وهو يوم صلاتهم. أصعد على مقعدي، خلف الباب، وأتبين فيما وراء الدرابزين، في الدور الأرضي، المساجين وهم يصلون خلف الإمام. فالصلوات وترديد الأدعية والخطبة التي تفيض بالموعظة، وأقوال النبي المأثورة، ونهيه عن السرقة والمسكرات، كل هذه الأمور تثير في النفس، عند رؤيتها وعند رؤيتهم على هذه الحال من الخشوع، الشك في فهم هؤلاء لطبيعة الدين، وهي تختلف عن الفهم الصحيح لأولئك الذين وجد فيهم «ماسينيون» أشقاءه الروحيين. وعلى الرغم من ذلك،

فإننى أدرك أن إيمانهم مخلص، وأن كل إنسان منهم وهو يتفوه بالبذاءات ضد المقدسات الدينية، فهو يعود لنفسه، ويتخلص من تلك القوى غير القابلة للتواصل التى لا توصف ولا يمكن تحديدها، ولا يمكن محو الحوار معها، أعلم أن كل إنسان منهم، تنوب روحه ـ دون وسيط فى هذه القوة السامية التى هى بالنسبة لنا، نحن المسيحيين، تتجسد فى المقابل فى حلول الإله بيننا. وتحضرنى الآن صورة هذا الفلاح الذى رأيته فى غوطة دمشق والذى كنت رأيته من قبل ذائبا مستغرقا فى صلاته من خلال إحساس مقدس يكتسبه عبر تواصله مع القوة الإلهية الأخرى. وفى المقابل فإن العجائز فى الديانة المسيحية يقطعن، لكى يصلوا إلى ذلك الآخر، طريقا واضحا وسهلا من خلال قدر من الوسائط مع الاحتفاظ فى النهاية بالجانب الإلهى فيما وراء ذلك.

أين الصفاء؟ أين السفهاء؟ ما الفرق إذن بين رئيس الحراس الذى يفرغ من وضوئه وغسل قدميه بعناية قبل أن يدخل إلى الصلاة، وبين الفلاحة العجوز المسيحية التى تتأهب للذهاب غدا للاعتراف داخل الكنيسة بخطاياها؟ إنهما دائما وجه واحد؟، وعلى الرغم من غضبى الشديد ومن هذه الرغبة التى تجعلنى أريد أن أصرخ ببراءتى وهم منخرطون فى صلاتهم، ويجنون هذا الكابوس، فإننى لا أجد نفسى قادرا على إصدار حكم عليهم.

فى نهاية اليوم، وعندما كنت أمشى داخل الزنزانة فى خطوات متعرجة وفقا للمسار الذى أصبح مألوفا، سمعت طرقا على الباب، ألصقت عينى، بالكوة الصغيرة، فرأيت عينا كانت تنظر إلىّ، ثم فما يهمس ببعض الكلمات غير المفهومة. اعتليت المقعد فى الناحية المقابلة للباب. رأيت حارسا شابا طويلا، يظهر حزلقات ثقافية. أوضح لى أننى استعمارى قذر، وأننى يجب أن أتذكر «جميلة» الجزائرية (ولم أكن أعرف شيئا عن هذه القصة. لكن من حيث المبدأ، فقد وضحت له أننى لست الاستعمارى الذى يتحدث عنه، وأن إعلامكم يحكى لكم ترهات) وقد أشار لى وهو يبتسم إلى باب زنزانة الإعدام التى لم تفتح منذ أسابيع، وبداخلها بئر صغيرة ـ كما قال ـ إن هذه البئر

تسقط فيها جثة المحكوم عليه بالإعدام، وتظل بها عشرين دقيقة حتى يأتى الطبيب ليعلن الوفاة رسميا.

تركته ينساق وحده مع حلمه بقتلى دون أن أرد ردا سريعا حتى لا يظن أنه يخيفنى. ومع ذلك، فإننى كنت فى الحقيقة خائفا لأنه كريه ومثير للاشمئزاز. لماذا يقول لى أنا هذا الحديث؟ هل فعل ذلك من نفسه أم إنه ينفذ أوامر رئيسه؟ هل هو تهديد حقيقى أم هى وسيلة جديدة للضغط؟ يفعلون أى شىء يا إلهى ولكن ليس التحقيقات. ليقتلنى هؤلاء الأغبياء. سوف يقدمون تبريرات للفرنسيين الذين لم يفهموا الأمور كما فهمتها أنا هنا فى مصر، وسيحرصون فى تبريراتهم على الانتصار.

سأهجر دراسة اللغة العربية، إنهم حقا لحمقى، يريدون أن يبعدوا هؤلاء الذين كانوا يبحثون فى سبيل فهمهم واستيعابهم، ووقتى.... وقتى الذى يتبدد سدى فى تعلم هذه اللغة التعيسة (لكنها جميلة، لابد أن تعترف بذلك، كن صادقا) سأكرس كل وقتى لجانين، ولأبنائى، ولأبناء فرنسا ولمهنة التدريس التى أهملتها كثيرا وللكتابة.

السبت ٩ من ديسمبر

لطيف هذا الحلاق. يبدو أن الملابس الخضراء الرثة تقريبا، تخبئ بين طياتها نفوسا قوية. رمق الحلاق الحراس بنظرات أقل لطفا، ثم حدثنى بلهجة عربية مصرية لا تفهم بوضوح، ويبدو كان أنه شجعنى. وهو يعاقب بالسجن بسبب جنحة، وسوف يخرج خلال خمسة عشر يوما. وفى أثناء حديثه كانت تغريدات الشكر تصدح داخلى من أجل هذه البساطة! رجل...رجل حقيقى، أخيرا يتحدث وأتبادل معه الحديث. المرء لينسى كل شىء عن هذه الجدران، عن هيئة هذا الباب المغلق بعناد وعن تعاقب الخطوات الستة أو السبعة التى أطويها فى الزنزانة، عن بقايا الناموس على الجدار الملطخ، وعن هذه الفرشاة التى تمر على وجوه كثيرة للحلاقة، وعن هذه الأدوات المتسخة، وعن هذه الأيدى التى تلامس كل شىء، وتمتد مثل يدىّ الآن لتصافح هذا الأخ.

بعد جلستى مع الحلاق، اصطحبونى إلى المقصف فى الطابق الأرضى، عدت محملا بعبوات المربى المصرية، والسردين اليوغسلافى، والرنجة البولندى، والماكريل اليابانى، والبسكويت والسجائر الشرقية بمذاق أمريكى.

زارنى اليوم السفير السويسرى، والسكرتير الأول فى السفارة السويسرية. كانت زيارتهما مثل زيارة «جانين» فى حجرة مكتب مدير السجن، ولكن بدون مترجم وبدون مصورين، أعطيانى صورة تذكارية، التقطت فى إحدى المتنزهات فى شتاء العام الماضى فى شهر يناير، وفيها تظهر "جانين" و"كلود" و"بيار" وهم واقفون، وأذرعهم ممتدة، يلعبون بالطائرات. كما أعطونى مجموعة من الكتب التى كنت طلبتها، يا للروعة. الكتاب المقدس، وكتاب الصلوات، كتب لشكسبير وسرفانتس فى طبعة «البلياد»، وثلاث أو أربع روايات، وسجائر، وغليونين، وثلاث علب من التبغ، وأغراض للحلاقة، وجوارب، وقمصان، وسترات صوفية، ومنشفة حمامى القديمة، ومعطف كبير جدا يصل تقريبا إلى منتصف الساق، وهو معطف السفير.

استطعت أخيرا، أن أقرأ سريعا، بعد استئذان مأمور السجن، الجريدة التى أحضرها صديقانا السويسريان يا له من أمر يصعب تصديقه. فى الصفحة الأولى «مانشيت» كبير يتحدث عن مؤامرة التجسس الفرنسية، ثم قائمة المتهمين، أنا الرابع فيها، يسبقنى "ماتى"، و"بليفيه" و"موتن"، ثم يأتى أومال (وهو متغيب) ، وفيرى، ثم أسماء لا أعرفها ما عدا اثنين منها. قرأت، وكأننى فى حلم، الاتهام والاعترافات المدونة، ويبدو أن الاتهام الموجه لى ولقائمة المتهمين هو محاولة قلب نظام الحكم، ومحاولة اغتيال رئيس الجمهورية. وأنا على نحو خاص متهم بأننى استقبلت بتعليمات من باريس معارضين وعسكريين، وبأننى أحرر منشورات. وأنا على يقين، كما قالى لى السفير السويسرى، أنه لا أحد فى أوروبا يصدق ذلك، وأن صرخات الاستنكار فى العالم كله تتعالى من جميع الأرجاء وكل هذا لن يغير من واقع الأمر شيئا. قد أكون مهددا بالحكم علىّ بالأشغال الشاقة المؤبدة، وقد تطالب الصحف هنا، بعد عدة أيام من اعتقالنا، بالحكم علينا بالإعدام، لا يهم. أريد أن أعرف، أن أعرف، أن أعرف من فعل كل هذا؟ ولماذا؟ ولماذا أنا؟ ولماذا اختاروا لى المنشورات؟

لقد وضعوني في وحل، وأنا كنت أريد أن تكون الثقافة خالية من أي نزعات سياسية، يا لها من مأساة كريهة! هل مازلت أريد ثقافة خالصة؟ هيا، إذن، إلى الكوابيس، إلى الاتهامات، إلى القانورات نعم، تلك التي أغرقونا فيها. أية أسباب أخرى سوى أن تكون عملية سياسية؟ لا يمكن أن يكون الأمر إلا كذلك، إلا كذلك، إلا كذلك، مادمت بريئا، ولا أفهم شيئا على الإطلاق من لائحة الاتهام الموجهة إليّ والتي أقرأها، وأعيد قراءتها، فيصيبني دوار الرأس الذى أصابني خلال التحقيقات. هذا غير ممكن، هذا غير ممكن. فمنذ الرابع والعشرين من نوفمبر تتردد الكلمات ذاتها : السويس، الجزائر، إسرائيل، هل هي نفسها الموجودة هنا في الجريدة، وتتوارى خلف الكلمات الرسمية للائحة الاتهام : «نحن، على نور الدين، رئيس جهاز أمن الدولة.....نطالب.....القانون الجنائي..... جرائم ارتكبت أثناء الحرب.....المتهم رقم ٤ ...... منشورات.....أشغال شاقة؟» طالبت فرنسا كما قال السفير، باللجوء إلى التحكيم الدولي، ولم ترد مصر بعد على هذا الطلب. وفي الجريدة نفسها، وبجانب مانشيتات شبكة التجسس، كان ناصر يصافح مبتسما وزيرا من جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

عدت إلى زنزانتي، ورتبت علب الأغذية، وكتبي، وقبل أن أشرع في القراءة، وفي قراءة بعض أجزاء الكتاب المقدس، وتلاوة الصلوات، أرجأت الانخراط في كل هذه المتع. ذرعت الزنزانة طولا وعرضا، حاملا بين ذراعي المتشابكتين فوق صدري صورة «جانين والطفلين». حاولت أن أهدهدهما بأغاني الأطفال التي يحبونها، ولكن أظن أن النجاح لم يحالفني. جلست على الأرض، بجانب السرير أبكي بكاء متصلا. هل اكتفيت الآن؟ وماذا يعني هذا؟ تدثرت بمنشفة الحمام الكبيرة، وارتديت فوقها معطف السفير. دخل حارس الزنزانة على حين غرة، وقام بما قام به عسكري السجن الحربي. جلس بجانبي، وأحاط كتفي بذراعه، وقال لي تلك الكلمات التي بلا نسق، والتي يحاول أن يتعزى بها السجناء في كل سجون العالم. شاب؟ نعم، أنا مازلت شابا، ولكن ما الجدوى إذا قضيت حياتي كلها في السجن؟ فإذا كان الأمر كذلك، فإن المرء يموت في السجن مائة مرة، بعيدا عن الشمس، قبل أن يحل صباح ما، ويساق فيه المذنبون لتنفيذ حكم الإعدام. ولكن الحارس قد غادر الزنزانة.

بينما كنت أقرأ فى كتبى، والتهم عباراتها التهاما، ظلت هذه العبارة تتردد داخلى، ويستمر صداها، وهى تلك العبارة التى كانت كابوسا، وغدت الآن شيئا فشيئا نصرا..... لا يمكن، لا يمكن. فى نحو السادسة مساء، وقد أصبح لدى ساعة الآن، أعطانى إياها السفير هذا الصباح، وهى ساعة ابن زميل لنا، فقد أخذت جانين ساعتى معها إلى فرنسا، فى ذلك الوقت، حصلت حقا على متعة حقيقية.

قبل أن أنام، تطلعت إلى وجهى فى مرآة صغيرة، هدية جميلة جاءتنى هذا الصباح، وكانت المرآة عبارة عن ظهر غطاء علبة أدوات تجميل «جانين» لحظة! انتبه! لا تندهش، هذا هو الوجه الذى ستراه دائما، هل ستتعرف عليه بعد مرور هذين الأسبوعين؟؟ كيف يكون شعورنا عندما نفاجأ بأن ملامح وجهنا قد تغيرت فجأة، وأن نظرتنا قد تبدلت، وأن شعرنا قد اختلف.

أنا دائما أحمل نفس الوجه. يخلو فودى تقريبا من الشعيرات البيضاء. فلم تزد عما كانت عليه من قبل. فى كل الأحوال، أنا فى عمر الثانية والثلاثين. من سيصدقنى عندما أعود إلى فرنسا؟ ولكن من الآن وحتى عودتى إلى فرنسا، ربما ستكون بعض الشعيرات قد تسللت إلى شعرى، وتغيرت آرائى. يا لتعاستنا وغفلتنا!

لقد أكدت للسويسريين ألا يحضروا لى كتبا عربية، فلقد صنعت من الكتب التى جاءت إلىّ ركنا صغيرا للثقافة الأوروبية، وخسرت العربيّة مكانها فيه.

الأحد ١٠ ديسمبر

اليوم انتهى إمساك البطن الذى كان قد حل بى منذ أسبوعين بسبب نظام الذهاب إلى دورات المياه مرتين فى النهار، مهما دعت الحاجة، وتحت مراقبة، مما أثر على نظام عمل الجسد فى هذا العالم الذى سيغدو من الآن فصاعدا عالمى، وهو عالم يضم كثيرا من الأماكن، ولا تنتهى لحظات الصمت المقلقة التى تحل فيها.

ففى هذا الصباح أيضا، عندما جلست على مقعد المرحاض فى الطقس الصباحى المعتاد، تركت نفسى بطبيعتها تتمتع بتحرر البطن من علتها. وفى طريق العودة إلى الزنزانة، عبر الردهة الحزينة المظلمة، فوجئت بالتفكير، يا عقلى البائس الذى يهذى، فى أن متعة يوم الأحد، عطلة الأسبوع، قد اختزلت فى أمور تتعلق بالذهاب إلى دورة المياه.

ارتسمت على وجهى ابتسامة بينما أنا فى الزنزانة أفكر أن اليوم الذى يبدأ بداية جيدة ينتهى سريعا

وبالفعل، انخرطت فى القراءة بنهم، إلى أن داهمنى الليل وأنا أقرأ كتاب «هنرى الخامس». أنار الحارس، فى الخارج، المصباح الليلى فى الساعة الخامسة تقريبا.

وسألنى إذا كنت أحتاج إلى شىء، أجبته، وأنا أضحك، وكنت ممددا على الفراش «نعم ! الحرية »، رد ضحكتى بضحكة مماثلة من الجانب الآخر للباب.

زارنا هذا الصباح الكابتن، (هكذا أطلقت على الضابط ذى الثلاثة نجوم الذى أعاد إلينا خواتيم الزواج مساء الأربعاء الخامس من ديسمبر عندما وصلنا إلى هنا) الأبواب الكائنة على يمين زنزانتى هى أبواب زنازين فيرى؟ موتن؟، نعم، موتن، ثم ماتى، ثم زنزانتى. إلام أحتاج؟ إلى أشياء كثيرة....إلى أوراق، وإلى أقلام، وإلى كتب أخرى وإلى الحرية. وهكذا قررت أن أرد بدءا من الآن، على كل سؤال من هذا النوع.

لم يضحك الكابتن، غمرنى بعبارات المواساة الخالدة المألوفة فى الشرق: "معلهش، ربنا موجود، إن الله مع الصابرين". قطعت قراءاتى وصلواتى، ذرعت الزنزانة مشيا، وأنا أدخن : ٤متر × ٢٥٠سم = كيلومتر واحد. وكنت إذا قطعت يوميا كيلومترين أو ثلاثة مشيا، أحس بالراحة، لكننى اليوم لم أقطع سوى كيلو متر واحد ونصف. وفى الحقيقة، فإنه بجانب حركة المشى ذهابا وعودة كان البحث عن إشعال السجائر يستغرق وقتا غير قليل. وبما أن أعواد الثقاب كانت من الممنوعات فى السجن، فكان

يجب على أن أصعد فوق المقعد وراء الباب، فى انتظار مرور أحد الحراس ليشعل لى السيجارة. وقد نجحت بسهولة ثلاث أو أربع مرات هذا اليوم فى تنفيذ ذلك، ولكن المشكلة فى هذا المساء كانت تكمن فى الغليون الذى كان سريع الانطفاء مع مرور تيار الهواء المار بين الكوتين. وقد منحنى الحارس بيسر علبة ثقابه، وكنت أنتهز الفرصة لاختلاس عودين أو ثلاثة. وهكذا تكون لدى رصيد صغير وضعته فى علبة فارغة، دسستها فى جيب المنشفة الكبيرة التى تفلت عادة من التفتيش. وأصبح لدى نحو عشرة أعواد ثقاب، وبعض الأشرطة القادحة سوف تمكننى من التدخين فى الساعات القادمة القدر الذى أريد تدخينه من السجائر.

غادرتنى حقيبتى الجلدية، كان ينبغى على وضعها فى حجرة "الأمانات"، وهى عبارة عن زنزانة بجانب دورات المياه، حيث توضع الحقائب مع حقائب رفقائى الأعزاء " أعضاء الشبكة "، إلى جانب حقائب أخرى لسجناء آخرين. وقد أخبرونى أن باستطاعتى أن أضع أغراضا فى الحقيبة أو آخذ منها ما أريد (مرة أو مرتين أسبوعيا). بقى أن أقوم بما قام به الآخرون حتما قبلى، وهو ألا أترك حقيبتى الجلدية هنا دون أن ألقى عليها نظرة أخيرة، ودون أن أحتفظ منها بذكرى أخيرة منذ ذلك السباق المجنون الذى حملنا فى الفولكس فاجن إلى هنا مساء الخامس من ديسمبر، حيث تلاقينا نحن الاثنين داخل هذا السجن. ولكنى نجحت فى عدم التفكير فى تلك اللحظة عندما آتى إلى هنا لتسلم الحقيبة القديمة. حينما بلغت زنزانتى كنت سعيدا أننى استطعت تحمل فراق حقيبتى إلى حد ما.

ثبت صورة أسرتى فوق حقيبة "أير فرانس" الصغيرة التى وضعتها فى ركن مواجه للسرير. امرأة فى صحبة طفليها، يضحكون لدب فى قفص، يدور.. يدور.. كان الدب يشبه ذلك الدب الذى رأيناه فى حديقة " الأكليمانتاسيون" عندما كنا سعداء. إلهى! أنا وحدى فى هذه العزلة، فإذا لم يكن الأمر لا يتطلب إلا مزيدا من الشجاعة، فسوف أبذلها، وإذا لم يكن الأمر لا يحتاج إلا مزيدا من الأمل، فأنا أطمع كثيرا فى رحمتك، وقد وجدتها. وإذا كان من المحتم على أن أموت، فأنا متأهب لذلك. ولكن إذا كان الأمر متعلقا بالتفاؤل، فأنا أقل ثقة فى قوتى، وفى الاعتقاد بصواب رأيى.

تمنيت هذا الأحد، وقد آلمنى ذلك كثيرا، أمام هذا الباب، من داخل هذه الجدران الصلبة، وسط هذا التراب، أن نفحة من الصحراء تهب على السجن من داخله. يا لها من ذكريات فى الصحراء و فى سوريا حيث كان الحب يجمعنا، وفى العراق وفى آشور وبابليون... مع "جانين" والأصدقاء. متى سوف أستطيع أن أغنى أنا أيضا نشيد العودة من المنفى؟

عندما أعاد إلينا الإله أسرانا

كما لو كنا نحلم

امتلأ فمنا بالضحكات

وشفاهنا بالأغنيات

أعد إلينا، يا إلهى، أسرانا

مثل تيار دافق فى الصحراء

فالزارعون الذين يبذرون وهم يبكون

يحصدون وهم يتغنون....

الاثنين.

هذا الصباح، ركبوا مصراعين خشبيين فوق الكوة التى تطل على الفناء. كنا هنا، يقف كل منا أمام زنزانته أثناء انخراط العمال فى عملهم (وهم دائما من المساجين). لم يكن لدينا الحق فى الكلام، ولكن "ماتى" قال بصوت مرتفع: "سنستقر هنا..."

الثلاثاء.

تابعوا اليوم أعمال التركيب، وهى بلا شك بناء على مبادرة من أصدقائنا السويسريين. كما تم تزويد أسرتنا بدعامات خشبية امتدت عليها ناموسيات. وغدا السجن فاخرا. فضلا عن أنه تم استبدال الدلو الصحى ذى القماش القوى الذى

لا ينفذ منه الماء بدلو آخر كبير بلاستيكى بغطاء. وحل محل إبريق الماء دلو ثان من نفس نوع الدلو الأول. علق عليهما لافتة صغيرة كتب عليها "أير فرانس" واسمى. تماما كما كان مدونا من قبل على الحقيبة التى ما زلت أحلم باليد التى خطت اسمى عليها.

هذا الصباح، فى الطريق إلى دورات المياه، بدأت أتبين بوضوح أكثر تفصيلات الطابق الأول. على اليمين، ونحن منطلقون، وجدته يقف على المقعد خلف كوة بابه، يبدو الهزال على ملامحه، يغطى رأسه بقلنسوة موشاة بشريط زينة، إنه "ماتى". تبادلنا ابتسامة، ثم رأيت "موتن" يرتدى القلنسوة نفسها. عيناه وأنفه وفمه منهكة وعابسة، يدخن غليونه، تبادلنا نظرة تعنى كل شىء على ما يرام؟ وكانت الإجابة من خلال ملامحه التى غامت وانخسفت قليلا. ثم مررت أمام عدة زنازين، من بينها زنزانة " فيرى "، كانت أبوابها بلا كوة ، ولكن كان هنالك فى الجهة الخلفية زنازين تضم " أعضاء شبكتنا " (وبدءا من هنا ؛ فإن الزنازين كلها تتشابه مع زنازين الرجال الذين يرتدون ملابس حمراء).

طالعنى وجه عريض يرتدى نظارات ، وصوت جهير تمنى لى الشجاعة "تشجع يا ميكيل" ! ، مَنْ هو هذا الشخص الذى يعرفنى، ورأيته لأول مرة مساء الثلاثاء الخامس من ديسمبر؟ بعيدا، بعد اجتياز جسر صغير، وجدت زنازين أخرى، ووجوها تطل من الكوَّات، وسمعت كلمات بالفرنسية مثل: "صباح الخير" و"وتشجع!".

فى طريق العودة رأيت من الجهة المظلمة لدورات المياه، الطرف الآخر من البهو (الرواق) كان الجانب الذى تقع فيه زنازيننا منيرا على مسافة مائة متر من هنا، من خلال ثلاث نوافذ عالية، ذا قضبان حديدية وشبكات سلكية تمتد من الطابق الأرضى حتى الطابق الثانى.

حمدا للعناية الإلهية التى جعلتنا نقيم بجانب ضوء النهار. قبل الدخول إلى زنزانتى، ألقيت نظرة خاطفة على الزنازين المواجهة؛ فكانت إحداهما مفتوحة؛ ورأيت رجلا مسنا تلفف فى عباءة بدوية واسعة يتحدث إلى رئيس الحراس ، كما رأيت أبوابا

أخرى ثقبها الأسود يشى بأن عينا بشرية وراءها ، وهنالك أبواب تتحرك من خلف كوّتها يدٌ تلوّح ... إخوتى، لا، أنا لن أنسى أبدا. فى نحو الحادية عشرة بعد أن انتهيت من الاغتسال دخل حارس ليقول لى:

– طابور!

– "طابور؟

– الشمس.

هل هى نزهة ؟ لا يمكن! بلى يمكن! سرنا، هو وأنا جنبا إلى جنب، اجتزت بعد الجسر الصغير بابا خشبيا دواراً، ميزت الدرج ، وهو خشبى أيضا، رطب ولزج، تصورت أننى رأيته من قبل كحلم مر بى يوما، لم أكن أصدقه، ربما رأيته مرة عندما أتيت إلى هنا، أو بعد جلسة التصوير الفوتوغرافى، بعد نزولى إلى المقصف بعد زيارة "جانين" والسويسريين.

بعد عبور المدخل ذى القنطرة الحجرية الرمادية، راقبت العالم الذى عرفت جزءا منه، وحددت ملامحه ، هذا الفناء الضيق الطويل الذى ظننت حينما وصلت إلى هنا أنه السجن. يزخر الفناء برجال منشغلين، يرتدون زيّا أخضر، يذهبون ويجيئون، ورجال يرتدون ملابس مدنية، كما أنه يعج بالصياح ... وهنالك أيضا رجال يرتدون زيّا أحمر، كلُّ اثنين منهما مكبلان معا بأصفاد حديدية : السروال أحمر، والقميص أحمر، والقلنسوة حمراء. سألت حارسى عنهما، وعرفت أنهم المحكوم عليهم بالإعدام .فالزى الأحمر دلالة على أنهم استنفدوا كل سبل الطعن لإلغاء الحكم القضائى أو تعديله وهم الذين يقطنون فى الزنازين الخاصة بالطابق الأول، وهى الزنازين التى يجنبوننا إياها، وكأنها موبوءة بالطاعون. نظرت إلى هؤلاء الإخوة الذين يتحركون وسط إخوتى، وهم متأكدون أن حياتهم ستنتهى فى هذه الزنزانة وهذه البئر التى سبق أن عرفت أن بابها فى الطابق الأرضى فى مواجهة زنزانتى فى الجانب الآخر من البهو. كانوا مسرورين يغنون ويضحكون ... أتطلع إليهم ... هل أملك القدرة على الحديث معهم ؟ ولكن ماذا

أقول لهم ؟ فهذا المحكوم عليه بالإعدام الذى يقف هنالك قتل بهدف السرقة. وحينما سيق إلى حبل المشنقة، فإن أمراً بتأجيل تنفيذ الحكم قد صدر، ولكن منذ ذلك الوقت ؛ فإن هذا القرار هو شبحٌ موقوف التنفيذ. وفى الواقع أننى رأيت قبل شهر من إلقاء القبض عليَّ مقالات كثيرة فى الصحف وبجانبها صور لمحكوم عليه بالإعدام. كانت عيناه تتطلعان إلى حبل المشنقة، وصورة أخرى له وسط الحراس وهو سعيدٌ فرِحٌ بعد النطق بإرجاء الحكم عليه .

كان هنالك أيضا مسجونان مقيدان معًا على غرار الذين ينتظرون حكم الإعدام ، يرتديان زيًا أبيض، ابتسما لى، وبثا إليَّ عبارات التشجيع بصوت منخفض أثناء مرورهما أمامى، وهما ينتميان إلى شريحة السجناء العاديين مثلى .

وفى أثناء ذهابى وإيابى سمعت أصواتا تهمس : "جاسوس فرنسى، جاسوس..."، وبعد قضاء هذه الدقائق العشرة والنصف فى الهواء الطلق، وتحت هذه السماء الزرقاء الصافية تحسنت حالتى النفسية قليلا. كما أن نظرات إخوانى السجناء وحتى الحراس الذين كان الفناء يضج بخطواتهم ذهابا وإيابا، كانت خالية من أى بغض وعداء، نعم كان ثمة تعليمات ينبغى أن تنفذ بحذافيرها، ولكن كان هناك أيضا تواصل لا يمكن إنكاره. فضلا عن أننى استطعت أن أتحدث عن بلادى مع ملاكى الحارس، وعن مهنتى، وعنه أيضا بعد صمت هذه الأيام الأخيرة، فكانت نشوة حقيقية.

إذا انطلقنا من بوابة الدخول من هذا الجانب، الجانب الغربى، فإن الطابق الأرضى للسجن، وفق ما تشير اللافتات، يضم حجرة مكتب الكابتن، حيث تحتوى على خزانات كبيرة يضع فيها السجناء أغراضهم الشخصية لحظة دخولهم إلى السجن وهو ما يطلق عليه اسم "الأمانات"، ثم تليها حجرة مكتب "مأمور السجن"، فقاعة استقبال، وهى معدة أيضا للضباط فى ورديات الليل، ويليها مقصف صغير لإعداد الشاى، ثم حجرة مكتب السكرتيرة ، فقاعة أخرى للاستقبال صغيرة، ثم رواق بوابة الدخول، فالمسجد (وهو عبارة عن بناية صغيرة كانت توجد من قبل داخل أسوار

السجن، ثم ضمت إلى البناء، على يمين الباب من الداخل لوح رخامى يشير إلى أنّ الضريح الذى يبجَّل ويُجلُّ هو ضريح الإمام الشافعى أحد سلالة الإمام على، يحيط الباب إطار من شريط يتعاقب طلاؤه بالأصفر وبالأسود). ثم تلى المسجد غرفة تمريض، فحجرة مكتب السكرتير العام، ثم قاعة صغيرة فى نهاية المبنى يرى فيها السجناء نويهم خلف نافذتين صغيرتين ، وكان حارسى يجيب طواعية عن أسئلتى المتعلقة بتخطيط الأماكن وتوزيعها.

أما البنايتان البيضاء والصفراء اللتان أراهما من زنزانتى، فهما على الترتيب محافظة القاهرة ، ومحكمة الاستئناف القديمة التى استمد منها هذا السجن اسمه. وأمام البناية الصفراء يقف حارس فى برج يشرف على هذا الجانب من فناء السجن، يرتدى زيا أسود، ويباشر نوبته فى برج المراقبة. فى الطرف الآخر من الفناء أمام حجرة " مكتب قائد السجن " تنتشر بضع شجيرات، يضم كلا منها أصيص ، وهناك تنتصب مواسير الصرف عمودية على جدار دورات المياه، تنبعث منها رائحة قذرة تنتشر فى أرجاء المبنى .

قبل أن أدلف إلى الزنزانة ألقيت نظرة أخيرة على الشمس. أما الطابق الأرضى من الداخل فكان يتألف من أرضية أسمنتية، وهى تلك الأرضية التى توجد فى الطابق الأول بجوار دورات المياه، ومن فناء داخلى يميز كل السجون يحتوى على قاعة كبيرة يتجمع تحت سقفها السجناء لحظة وصولهم وقبل ذهابهم إلى زنازينهم .

تمتد مساحة هذه القاعة من جدار السجن حتى خلف حجرات مكتب الكابتن ومأمور السجن، والسكرتارية، والأمانات، وخلف قاعتى الاستقبال، والمقصف. قبل صعود السلم، ثمة باب فى الواجهة فى نهاية السجن يطل على فناء طويل وضيق، تصعب رؤيته، ينشرون فيه ملابس السجناء لتجفيفها. على اليمين حجرة صغيرة يوجد فيها ضابط دائما، وعلى اليسار المقصف وبعض الزنازين، ثم زنازين من ينتظرون الإعدام فى نهاية المبنى. أما على اليسار دائما من ناحية الغرب مخزن المواد الغذائية،

وهو موجود خلف غرفة التمريض، كما توجد حجرة مكتب السكرتير العام، وفى النهاية قاعة لاستقبال الزوار. ويبدو أن الطابق الثانى يضم إليه فقط زنازين ذات مساحات كبيرة وهو التصميم نفسه للطابق الثالث، بالإضافة إلى مكان الحارس. وهكذا هنالك إذن طابق ثالث بخلاف ما كنت أعتقد، وهو بدون بهو مادام الطابق الثانى له سقف يغطيه بأكمله، ولكنى سأظل دائما لا أعلم ماذا يخبئ هذا السقف الذى يُعدُّ الحدود القصوى لعالمنا المرئى داخل السجن.

قليلة هى نقاط التفتيش داخل السجن إذ يوجد مكتب صغير عند بوابة الدخول يجلس إليه حارس وأمامه دفتر. وعند مدخل بناية السجن ثمة مكتب آخر صغير يجلس إليه حارس وأمامه دفتر، وهو يسجل بصورة ملحوظة كل التحركات التى تتم داخل السجن. ولا توجد أية آثار للأسلحة، ولكن هناك خمس قطط أو ست تتجول فى كل الطوابق، ويتركونها تعيش فى سلام ، ولكن الأمر الغريب أننى أجد فى كل هذه الملامح هدوءا وسكينة.

وشيئا فشيئا نسيت كابوس السجن الآخر ، فهو لا يعود إلا فى المساء قبل الوجبة الأخيرة، عندما نعتلى مقاعدنا ونحاول أن نقيم ما يشابه المحادثة بيننا، "ماتى" و"بليفيه" وأنا، ولكن الدائرة تحكم قبضتها وتتغلق علينا، وعلى ذكريات تلك الحادثة المزعجة التى ألمت بنا جميعا، وعلى مستقبلنا وتوقعاته .

ومع ذلك فإننا، فى أعماق اضطرابنا، نتبادل لدقائق قليلة بضع كلمات مع الرفقاء، تعدُّ راحة اليوم وسلواه على الرغم من صعوبة تحققها على الوجه الأكمل بسبب هذا الصخب الدائم الصادر من زنازين الطوابق الأخرى، وبسبب جولات الحراس التى تقطعها. هذا اللقاء هو ما ننتظره بطريقة مبهمة فى أعماقنا منذ الصباح، ونتطلع إليه عبر القراءة، والتمشية ذهابا وإيابا، وعبر الصلوات، والتأملات الجوفاء، والأغانى. ولكن أين "موتن" الذى لا يسمع جيدا، من كل هذا ؟ فإن دائرة الحديث تنقطع من ناحية اليمين، أين منها "فيرى" الذى تلى زنزانته زنزانة "موتن ".

لقد أمضى "فيرى" أكثر من ستين عاما فى مصر التى كانت بالنسبة له وطنا ثانيا يضم عملا وبيتا وأصدقاء .

أجلس الآن بملابس النوم فى زنزانتى التى ينساب إليها الضوء من فتحات الكوّة التى تطل على الفناء المغلق، ترتكز ذقنى على أعلى الباب أمام القضبان الحديدية. أتاحت لى هذه الجلسات المسائية اكتشاف هدية من رفقاء الزنزانة السابقين ملتصقة بإطار الباب، عبارة: "يارب اعف عنا ، فإنك عفوٌ كريم" وإذا عفوت عمن ظلمني؟ ربما أسامحهم يوما من الأيام، ولكن هل لى الحق فى ذلك، وإذا لم يسمح لى مَنْ يحبونى بذلك، فإذا سامحت أنا نفسى وعفوت، هل معنى ذلك أننى أخونهم فى حبهم ؟.

منذ أيام وأيام تمنيت تقريبا أن أكون وحيدا، وفكرت دائما فى بطل رواية "الوضع الإنسانى "[٢] الذى رفض أن ينضم لأصدقائه الثوار، وعندما عاد إلى منزله وجد أهله قد ذبحوا، فجرى يبحث عن أصدقائه ليلحق بهم حاملا هذا الإحساس المتوهج والمهيب لحريته.

كم أحبكم يا مَنْ أنتم بعيدون عنى ، كم أنتم متشددون فى مطالبكم ! أنتم تطالبوننى، وأنا أعرف ذلك، بأن أعيش وبأن أكرههم. نعم أنتم تطالبوننى بألا أعيش إلا من أجلكم ، فماذا تمنحوننى فى مقابل ذلك ؟ ذكرى تقتلنى وأملا غير مؤكد. أصعد كل مساء فوق المقعد ، وغالبا أثناء النهار عندما يقودنى تجوالى داخل الزنزانة إلى هذه الكتابة التى خطَّها الرفقاء السابقون ، أحس بالحنق تجاهكم وأشعر أننى أحبكم، ثم أبقى وحيدا لفترة وجيزة على الأقل، ثم أنساكم .

هذا المساء على سبيل المثال استطعت أن أتبادل، بالإضافة إلى " بليفيه "، مع جيراننا المواجهين بعض الكلمات البسيطة العادية، والتى مع ذلك، كما يقولون لأنفسهم هنا، لا يمكن استبدالها. إنهم مسجونون منذ ستة أو سبعة أو ثمانية أشهر – كما أخبرنى الحارس– دون أىّ اتهام موجه لهم، ودون أى قضية منظورة أمام المحكمة،

---

(٢) رواية لأندريه مالرو.

لماذا ؟ هم أنفسهم لا يعرفون ، ولكنهم سعداء مثلنا أنهم وصلوا إلى هنا فى نهاية المطاف بعد أن كانوا فى قبضة جهاز المخابرات. كان من بينهم المتزوج والأعزب، إننى أقدر شجاعتهم... فهم لا يستسلمون، ولا تجد لديهم حدة فى الحديث أو فظاظة... كل ما لديهم شجاعة.. شجاعة حقيقية... يرتكزون إلى إيمان عميق أيًا كانوا مسلمين أو مسيحيين، لم يتحدثوا إلا إلينا، ودعونا للتحلى بالشجاعة، كما أنهم بيَّنوا لنا فائدة كوننا أجانب فى مثل هذه الظروف .

وقد فكرنا مليا فى أعماقنا فيما قالوا، وفى حسن هذا الحظ. كان جميعهم تقريبا يتحدث الفرنسية، وبلادى بلاد الحرية - كما يطلقون هم عليها - تجد فى هؤلاء المساجين نوعا من المجد والفخر (كان ينبغى علىَّ الاستماع إليهم لأفطن إلى حماستهم وحيويتهم لصورة بلادى)، هذه الحرية مطلبهم الأول، هى ثروتهم الوحيدة. قال لى أحدهم : (إن المرء يموت حرًا أفضل من أن يكون ثريا). لقد علمونا إياها، فهل أحسنا تطبيقها؟ لست متأكدا من ذلك، فأين ذَوَى هذا القدر من الإيديولوجية الذى تنادى به هذه الكلمات التى أطلقناها يوما ؟

إننى لا أضمر فى نفسى شيئا لمصر، ولا لشعبها ولا لحكومتها، فكل هؤلاء الذين رأيتهم فى فترة وجيزة جدا، وهو الوقت الذى نعمت فيه بحريتى، أحبهم جميعا. أما بالنسبة لهذا النظام ، فإننى ما زلت أريد أن أؤمن بإخلاصه وأعتقد فيه. وقد رأيت قدرا من إنجازاته القادرة على إقناعى اليوم - على الرغم من الألم الذى سببه لى هذا النظام - بأنه يحقق بلا شك لبلده أكثر مما حقق السابقون. ولكن هل أغض الطرف عن هذه الإجراءات التى اتخذوها تجاهى؟ لا أظن أبدا أنه يمكننى ذلك سواءً هنا فى مصر أو هنالك فى فرنسا .

إن هؤلاء المساجين الذين يقبعون أمامى فى زنازينهم هم بلا شك كغيرهم من أبناء مصر الأوفياء المخلصين ، فلماذا إذن هم هنا فى السجن ؟ من أجل أية جرائم ارتكبوها؟ لا يمكن أبدا... من أجل أفكارهم ؟ هذا أمر لا يمكن احتمال تصوره. إذن من أجل لا شىء، وماذا عن هذه الكلمة التى نقشت على عدد كبير من الزنازين

"تجسس" على زنزانتي، وعلى زنزينهم أيضا، ما المقصود بها؟ بماذا تقر؟ ألفة وتجانس أم صداقة بين العرب والغرب ؟.

وإذا كان الأمر كذلك، نعم، فأنا أُصرُّ كلية على لقب "جاسوس" لأنني صدَّقت هذا الحلم، كنت أريد هذا المساء عندما أراهم، هؤلاء القابعين أمامي، هؤلاء الذين أحس – أنا من كان يدعى بحماقة تمثيل هذه الثقافة الخرقاء – بقدر من المسئولية عنهم، كنت أريد أن أضيف إلى عبارة "لأنني صدقت الحلم" عبارة "وهذا الجنون".

هذا المساء بعد تبادل بعض الكلمات معهم كلمات مثل: تجلدوا كلُّ شيء سيكون على ما يرام ، الله أكبر من كل شيء. انسحبت وأنا أشعر باليأس يعربد في أعماقي، ليس من أجلي يا إلهي، وإنما من أجل هذه المجموعة، إنه لأمر مخيف، أيُّ مستقبل في انتظارهم ؟ .

وإذا لم يكونوا قد فعلوا شيئا، وإذا لم يكونوا قد تحايلوا أو غشوا؟ وإذا كنا نحن بأسلوب حياتنا ونمط تفكيرنا الذين ورطناهم في اعتقاداتهم؟ وإذا لم تكن هذه الأفكار -على وجه الخصوص – لا تتلاءم معهم؟ وإذا كان ينبغي على العرب – في الواقع – أن يدعموا أولا اتحادهم الداخلي ويرسخوه قبل أن يتجهوا صوب الخارج؟ إذا كانوا هم، الآخرون الذين بالخارج، الذين يقودون الأمر، مَنْ منهم على صواب ...؟.

لم أعد أعرف، لم أعد أعرف... لم أعد أسمع " ماتي" ولا "بليفيه"، أرى أمامي هذه الظلال التي لا تتحدث إلا لبرهة، وهذه الأيدي تتحرك وتلوح ... غادر الحارس للتو مكانه في وسط البهو، وهو المكان الذي يجلسون فيه أثناء وردية الليل (في الصباح في طريقنا إلى دورات المياه نمر أمام سرير أو سريرين من أسرة المعسكرات لم يزالا على حالهما بعد، ولم يطويا)، مشى في اتجاهنا إذ رأى على جدران الزنازين المواجهة لنا ظلالنا التي تعكسها المصابيح الكهربائية المثبتة أمام الزنازين الأخيرة للمحكوم عليهم بالإعدام، فمرَّ أمامها. طرق"ماتي"على الجدار وهي الطرقات التي تعني: انتبه هناك خطر يقترب ، نقلت هذه الطرقات إلى "بليفيه"، تبادلنا تحية المساء سريعا، وانتهت المحادثة.

نزلت من فوق المقعد... انخرطت فى القراءة لمدة نصف ساعة ، دخنت الغليون ، استخدمت الدلو الجديد كمرحاض، "بليفيه" يطلق عليه اسم "الجرة " وقد صرَّح لى أنه يحدد له وقتا – تماما كمل أفعل – كل مساء لاستخدامه .

أتاحت لى القراءة إعادة تأسيس بنيان عقلى متوازن تفضى به بوعى كل مساء هذه المحادثات وهذا الهذيان والهزر وسمومْ الذكريات والمستقبل إلى التدمير. بسطت الأغطية والناموسية ، أديت صلواتى، طبعت قبلة أخيرة على الصورة المثبتة على الحقيبة الصغيرة، تسلل إلىَّ ضوء المصباح الكهربائى خافتا واهنا...، فبدأت أقرأ مرة ثانية... وشيئا فشيئا استسلمت إلى مملكة النوم.

الخميس

أخبرونا أن قضيتنا سوف تعرض أمام المحكمة يوم ٥ من يناير الخميس ، أخذت بعين الاعتبار الدقائق العشر التى أذرع فيها الزنزانة ذهابا وإيابا، وبلغت فى ذلك ثلاثة كيلو مترات يوميا. واتخذت إيقاعا وهيئة فى المشى فى المسار الذى فرضته داخل الزنزانة، وقد جعلنى ذلك أحصى تقريبا خطوات الذهاب والإياب دون ضجر، وفى كلِّ مرة يميل بى المسار ناحية اليسار، ألقى نظرة على الصورة المثبتة على الحقيبة الزرقاء الصغيرة .

وإذا نحينا المشى جانبا ، فإننى قد عدلت عن القيام بالتمارين الرياضية التى كنت قد فرضت ممارستها على نفسى يوميا بسبب العشر أو الخمس عشرة دقيقة من المشى. إن قواى تخور سريعا، ويبدو لى أن جسدى يخفى متاعب كثيرة لم أكن آمل فى السيطرة عليها إلا بالخروج من دائرة الخمول ، فقد كنت أعانى من دوار وتنميل. ونخز ، وزيادة فى نسبة الدهون ، أى شىء، يا إلهى، بدلا من أن أعود أكثر هزالا.

قرأت كثيرا هذا الأسبوع فى الكتاب المقدس وفى روايتى بلزاك (بيارت pierette، الثوار النبلاء les choyans)، وهما حافلتان بالشخصيات وبالمشاهد، وبالأشجار

وبالكروم، وبالنباتات الورقية ، أين أنتم ؟ أقرأ آيات من المزامير هل هو محظور عليَّ أن أضيف إلى قراءاتى هذه التراتيل المتوهجة ؟

إذا كان أبى وأمى قد هجرانى

فإن الربَّ لن يتخلى عنى

أرشدنى يا إلهى إلى طريقك

حينما يتبعوننى

ولا تسلمنى لأهواء أعدائى

لقد نهض ضدى شهود زور

يتنفسون العنف

وأنا أعتقد أنهم يتنفسون العنف

وسوف أنتظر رحمة الله

فوق أرض الأحياء.

اطمع فى الرب أن يهبك قلبا وأن يهبك شجاعة

أما الترنيمة الأخرى، فهى تتعلق بالعودة من المنفى ، وبالحصاد وتشكيلات من الثمار.. تخطر بغتة على الذاكرة المحاصرة:

نحن ذاهبون، ذاهبون فى عيوننا الدموع

نحمل البذور

وسنعود وسنعود وعلى شفاهنا الأغانى

نحمل الثمار.

هذا الصباح حدث خلل فى التنسيق بين خروج كلٍّ من زنزانته، ففى أثناء عودتى من المقصف انتظرت أمام الزنزانة فى صحبة ملاكى الحارس حتى يتمَّ العثور على

سلسلة مفاتيح الطابق، كان "ماتى" عائدا من نزهته، يضع يديه فى جيوب معطفه، مهمل الذقن، تبدو على ملامحه كل سمات الحزن العميق.

فى البداية قال لى: مسكين يا ميكيل، هل تمتعت بنزهتك؟ وجه لى سؤاله وهو يتكئ بسخرية على كلمة "نزهتك"، قلت للحارس "مصافحة بَسْ"، واندفعت بين ذراعى "ماتى" ثم تطلَّع كل منا إلى الآخر، وبعد ذلك جُذب كلٌّ إلى زنزانته.

نجحت أن أفلت من مراقبة الحراس وأدخل صناديق كرتونية إلى الزنزانة، كان السويسريون قد أتوا بها مرتين أسبوعيا، وكانت مملوءة بالكتب والمواد الغذائية. وهكذا أصبح لدى تحت سريرى كنزٌ احتياطى.

السبت ٢٣ من ديسمبر.

تتوالى أيام، وأيام... وأنا الذى كنت أعتقد أنه لا يمكن قضاء أربعة، أو خمسة، أو ستة أيام فى محبس، وها أنا لا أصدق أنه قريبا سيكون قد مرَّ علىَّ عشرون يوما بين جدران زنزانة. أى حياة أعيشها؟ لقد هجرت كل شىء، تخليت عن كل شىء، وددت لو أمحو صورة زوجتى وأمى ووالدى وطفلىّ، ليس فقط من صلواتى، ولكن من أيامى الباقية. بدأت أعيش تجربة الجنون، وعلى الرغم من الحلول الجيدة التى توصلت إليها، ومن جداول الوقت التى حاولت أن أخططها، فإن رأسى ما زال يدور... ويدور....

أحيا؟ من أجل أى شىء ؟ من أجل هذا الوجود المادى النامى؟ من أجل نزهة الصباح؟ من أجل الطرود التى تصلنا؟ من أجل لقاء المساء وحديثنا المتقطع والصعب غالبا؟ وتظل الساعات، وتظل الجدران، وتظل القراءة بلا جدوى، فلا يوجد ورق ولا يوجد قلم للكتابة، لماذا مازلت هنا؟ ماذا سيفعلون بى؟ ومتى سأعود إلى بلادى، وفى أى حالة سأكون وقتئذ؟ هل سأكون أكثر هزالا؟... سوف يفتك بى الجنون تماما كذلك "الآخر" الذى أسمعه دائما يصرخ على يمين زنزانتى فى المساء بين ترنمى بتراتيل التمجيد Gloria وأنا الخالق Veni creator3.

لا تتساءل بينك وبين نفسك عن أى شىء فى الواقع هو الأفضل، فقد يكون هذا التساؤل هو الوسيلة الوحيدة لتصبح مختلا. لا تكن ظالما: أيها المسيح، أنت وحدك القريب منى، أنت وحدك الموجود هنا معى، فمن أين يأتى السلام والهدوء حينما أتوسل إليك وأجدك من الآن فصاعدا مخلصا فى لقاءاتى؟ أن أشكرك وأرتجف من رؤيتك وأنت تنسحب من داخلى، أنت يا صديقى الوحيد. ولكن لا، إننى أبتسم الآن فهذا لم يعد ممكنا، لم أعد وحدى، ولكن ثبت يقينى.

أنقذت رجائى كما أنقذته من قبل فى السجن الحربى، إنه الأمل وتلك النباتات الطفيلية، كما أطلق أنا عليها، هى المسئولة عن جنونى. وإذا كنت بانعزالى وانسحابى داخل نفسى قد استسلمت فى الواقع، وتنازلت عن كل شىء، فكم وددت أن أكون فيما وراء هذه الجدران .

ولكننى أدرك جيدا مهما فعلت، أننى لا أستطيع خيانة هؤلاء الذين ينتظروننى، وأننى لا أستطيع أن أستدعيهم لأحلامى، ياله من مرض، ذلك الأمل، فهو من ناحية ذلك الرجاء الذى يملأ السماء، رجاء موتى ورجاء هدوئى وسكينتى وسلامى، ومن ناحية أخرى فهى وريقات لبلابية تلتف دون تواصل ممكن داخل روحى الممزقة. إنه هذا السم، هذا العفن الذى ينبغى علىّ يا إلهى أن أحيا فيه! "أنا أحيا". نعم، فأنا أيضا مثل "ليلى بعلبكى"، ولكن لم يعد عندى عشرون عاما، فالأمر لا يتعلق بالحياة من أجل الحرية، أو لا يتعلق بالحرية نفسها، ولكن الموضوع مختلفٌ تماما بالنسبة لى فأنا أحيا، وهذا الجهاد أكثر فظاعة من الآخر. فأنا سجين نفسى، سجين مشاعرى، سجين علاقاتى، وأنا أخيرا سجين شخصيتى. ودون هذا السجن سيكون متاحا أن أهجر كل شىء للأبد، وأستسلم لنوم طويل تمهيدا لسكون أبدى.

إننى أتماسك من خلال الأمل، وأنا سجين ذلك المرض، فقد أحسست به هذه الأيام أكثر من أى فترة أخرى كما يحدث من قبل. عندما عاد السويسريون لزيارتنا ذات صباح شتائى معتدل ، وعندما وجدت فى حجرة مكتب مأمور السجن رجلا طويلا

وبودا، أخذنى بين ذراعيه، وحكى لى عن الجهود التى يبذلها كل أحبابى، وجعلنى أفهم أن هذه القضية الشهيرة لن يتم الاستمرار فيها إذا وافقت مصر على اللجوء إلى التحكيم الدولى الذى اقترحته فرنسا. كما أنه أحاطنى علما بالاحتجاجات التى تثيرها قضيتنا.يا سيدٌ ثورب، ما الذى لست مدينا لك به؟ ومع ذلك كم أتمتنى! لقد قضيت عشر دقائق إنسانية تخللتها لحظات الدفء والصداقة، وعلى وجه خاص نبرة الأمل والثقة. كل هذا، هل تفهمنى؟ فى عشر دقائق بائسة كانت جرعة الأمل فى أقصاها مركزة متفاقمة. كنت تتكلم وأنا صامت تماما، مُشتت، فبعد لقائنا ستنتظرنى الزنزانة، الزنزانة نفسها، أما الأمل فقد ولى فجأة مثل برميل أزيلت سدادته. ما الذى أثرانى بعد هذا اللقاء ؟ بعض علب السجائر، وعبارات الخطاب الذى أعطته "جانين" للسيد ثورب، ولم تسمح لى إدارة السجن بالاحتفاظ به، فكان علىّ أن أترجم فحواه بصوت عالٍ إلى مأمور السجن....

هذه الكلمات... كلماتك غائمة فى ذاكرتك تطفو بعض عباراتها...ويدك هى التى خطتها، ثبت صورتك بمسمار فوق الباب، ويبدو لى أنك كتبت لى خطابك من ذلك السجن الآخر حيث أنت تقيمين فيه من الآن فصاعدا، كتبته بابتسامتك نفسها ، وبجانبك الطفلان نفسهما. حكيت عن رحلتك، وعن الأربعين شخصا الذين كانوا باستقبالك، وعن عائلتى، وعن عائلتك، وعن شجاعتك، وعن هؤلاء الأصدقاء والإخوة الذين يتحركون فى كل اتجاه من أجلى. آه! يا إلهى! إلى أى حد تثير الآمال فينا الآلام، فلم يكن هناك مبرر لحالتى فى هذا المساء الحزين الذى زارنى فيه المحامى. كم كان مريحا أن أعرف على البعد طيبة مشاعر الناس. كم غنيت هذا المساء !

الأحد ٢٤ من ديسمبر.

غدا عيد الميلاد! فكرت بالتأكيد فى صور الاحتفال التقليدية، ولكن فى موطن طفولتى فى سهول الإيرول التى تمتد أسفل المنحدرات الأخيرة للطريق. لا تعرف هذه المنطقة الثلوج ولا أشجار الميلاد وبجانب هذه القرية الصغيرة الأخرى الغارقة بين

أشجار الزيتون والكروم، وسط وادٍ سرى، يلفه غموض مساء شتوى مبكر، تطل كنيسة سان جيوم الرومانية الصغيرة . فى هذا المساء، وتحت إحدى هذه السماوات الصافية التى تشبه ليالى ديسمبر فى قريتى، حيث الوادى هادئ تحت موجات الهواء التى تمر فوقه، وهى تواصل سباقها فى الأفق منطلقة فى قفزات، قبل أن تلقى حتفها فى مكان ما فوق البحر.

فى سان جون، سهرت ذلك المساء مع عائلتى فى مدرسة القرية الصغيرة، فقد كان يحدث أحيانا فى الصباح، وأحيانا أخرى قبل النوم قبل أن أهرع إلى المدفأة وأجد عجائب وعجائب من الألعاب ، لم تكن ألعابا فاخرة بالتأكيد، ولكن كم كنت أحبها . وفى أعياد الميلاد الأخيرة كنت أقوم بدور جديد علىَّ أمام طفلىَّ "كلود" و"بيير". ترى إلى أى شىء صار أمرهما؟ فطفلاى وحيدان، وسعادتى محطمة، وزوجتى يائسة، ما الذى يحملنى أن أخاطر بالجرى وراء الحلم؟

لم أقرأ اليوم شيئا على الإطلاق وبينما كنت غارقا فى أحلامى وذكرياتى فتح رئيس الحراس الباب، ودعانى للذهاب إلى البهو، وكانت مفاجأة! فقد كنا جميعا خارج زنازيننا: "بليفيه" و"ماتى" و"موتن" و"فيرى"، وآخران لا أعرفهما من "الشبكة"، وبينهم الرجل ذو الوجه العريض الذى حيانى هذا الصباح فى الطريق إلى دورات المياه. ودلفنا جميعا إلى زنزانة "بليفيه" نفسها التى كان السرير فيها موضوعا بطريقة سريرى نفسها، ولكنه وضع الطاولة فى الركن أسفل الكوة ، وجلسنا فوق سريره أو على مقاعد حُمِلت من زنازين أخرى .

كان هنالك أيضا قس من الدومنيكان سمح له – استثنائيا – بزيارتنا بناء على طلب من سفارة البابوية لمشاركتنا ليلة عيد الميلاد، تبادلنا النظرات، وكان حقا شيئا رائعا، كما حضر معنا اللقاء رئيسان للحراس ولكن لا يهم، ثم بدأنا نستمع إلى هذا الصوت الرائع الذى هو أكثر الأصوات تعبيرا عن الأخوة. نعم، أنا أعتقد، كما قال، إنَّ المعاناة نعمة على الرغم مما تحدثه من ألم.

لقد نطق بكلمات أخرى دقيقة، ووضع الأصبع على الجرح جيدا. فالأمل حتى وإن أحدث ألما؛ فإنه لابد أن يترعرع كنبات حيّ، إن صوته يتطابق مع تفكيرى، كما أنه يعثر على الصورة نفسها التى أعثر عليها.

ثم تواصل كلٌّ منا بدوره مع الآخر فى الزنزانة نفسها التى معنا فيها قس وليلة عيد الميلاد . وخارج الزنزانة فى البهو المقابل، بينما كان الآخرون ينتظرون، تركنا الحراس نتحدث إلى بعضنا فى سلوك منهم يصعب تفسيره. مَنْ يستطيع أن يفهم ما يحدث ! الكلمات بيننا سريعة متلاحقة نهمة، نتحدث عن الاستجوابات فى القضية التى يعدونها، وكل هذا دون أن تزداد الأمور وضوحا لنا عما كانت عليه .

لم يدم لقاؤنا سوى هذه اللقطات المتتابعة، ثم افترقنا بعد أن عانق كلٌّ من الآخر، وعيوننا ملأى بالدموع. عزيزى " موتن " المسكين كم أنت وحيد، أنت الذى كنت أول مَنْ عانقنى منذ قليل، فلم أستطع أن أمنعهم من اصطحابك مرة أخرى إلى هذه العزلة التى لا تغادرها إلا عدة دقائق فى الصباح، تدخن فيها خلف قضبان الكوة لتتمكن من رؤية رفاقك وهم يعبرون الطريق الحزين الذى يقودهم قبلك إلى نهاية البهو.

قضيت يوما سعيدا، قرأت طويلا صلواتى، ومشيت كذلك وأنا أدخن وخاصة على مشارف المساء، وأنا أرى الشمس تسقط على الحجارة الصفراء لمبنى محكمة الاستئناف، وبعد ذلك غنيت بعض الطقاطيق والرباعيات وأغنيات عيد الميلاد التى استعدتها من طفولتى، ثم بدأت ليلة عيد الميلاد فى نحو العاشرة .

الاثنين ٢٥ من ديسمبر

استطعت أن أنام قليلا، لم أتمكن من الاستسلام إلى النوم إلا فى الثانية صباحا، كان السجن هادئا، ولم يكن ينبعث أى ضجيج من الزنازين سوى سعال "ماتى" أحيانا. كدت أفضل أن أبقى واقفا طوال الليل. لم تكن ليلة عيد الميلاد بالنسبة لى شديدة التعاسة لأننى تابعت الطقوس، فقد قرأت شكسبير أولا حتى منتصف الليل، ثم

قرأت صلوات القداس، وفى نحو الواحدة تناولت عشاء عيد الميلاد : علبة سردين ونصف، وقدرا من لحم البقر المعلب، وبرتقالة، ثم تمشيت قليلا وأنا أدخن، هل كان من المفيد أن أفرض على نفسى كل ذلك؟ لقد تبينت فيما بعد أننى قد تجاوزت الحد.

توالت اليوم الاحتفالات، فجاء السويسريون لزيارتنا وأيديهم محملة بالهدايا السويسرية والفرنسية والألمانية والهولندية والإيطالية والأمريكية والإسبانية والإنجليزية... وكانت عبارة عن مواد غذائية من جهة.... وكتب من جهة....، ومن جهة....، ومن جهة....، ووجدتنى بطريقة أنانية اعتدت على التدليل، ومع ذلك، فإن هذه الكتب التى حصلت عليها اليوم جاءت من زملائى ومن المدرسين الذين كنت مسئولا عنهم، وتقف كلها شاهدة على مؤازرتهم لى، ومن بين كل ما وصلنى من رسائل كانت الكتب أكثرها بعثا للارتياح فى نفسى. اعترانى الخجل أن أصعد هكذا محملا بهذه الهدايا الكثيرة وسط تهانى المسجونين الذين كانوا منشغلين هنا وهناك بأداء ما هم مكلفون به من مهام التنظيف اليومى، واستطعت أن أدس فى بعض الأيادى بعض السجائر وبعض الأطعمة الصغيرة.

كان اليوم موسوما بيوم الإفراط والإغراق، فبعد التعود على تناول الأرز واللحم السيئ والخضار غير الناضج، وبعد قطعة الجبن الأبيض الخالدة، وفول الصباح الذى طلبنا أن يستبدلوا به اللبن، وبعد علب الأغذية الأسبوعية المحفوظة، فإنه كان ميلادا جديدا أن نرى لحم الرومى، ولحم الخنزير البارد، والشيكولاتة، والمارون جلاسيه، والمربى الحقيقية، والسجق الألمانى، والجبن الإيطالى، وماذا أسرد أيضا؟ وعلقت الانخراط فى السعادة برهة، ونظرت إلى كل هذه الأشياء، ثم أخذت فى تنظيمها (أسفل الطاولة، وفى الحقيبة، وفى العلبة الكرتونية أسفل السرير) حتى أتجنب أن يلزمونى بتسليم كل هذه الثروات إلى "الأمانات". علقت فى عروة ياقة سترتى قرنفلة كانت تصاحب هذه الهدايا، وجلست إلى طاولتى هذه المرة باكيا، وانخرطت فى البكاء بغضب شديد، وفى ساعة متأخرة من المساء. وبعد تناول العشاء فى السادسة والذى

أجهزت فيه على ما بقى من لحم الديك الرومى والخنزير والشيكولاتة، شربت زجاجة كبيرة من عصير الكرز، وكانت هدية ألمانية. كان النظام فى السجن يقتضى أن تكون فتاحة الزجاجات فتاحة جماعية، ففى الأيام المسموح فيها بالذهاب إلى غرفة الأمانات، يتم حمل خمس أو ست زجاجات، وفتحها مرة واحدة بفتاحة ملقاة على الأرض فى أحد الأركان ، وفيما عدا هذا اليوم المحدد للفتاحة الجماعية يتم فتح الزجاجات بوسائل متنوعة ، ولم يكن لدينا لا سكاكين ولا شوك معدنية، ولكن لكل منا كوبان من البلاستيك، وملعقتان معدنيتان، دُرتُ مرارا حول هذه الزجاجة مثل كلب أمام عظمة، ممنوع عليه الاقتراب منها. وفجأة وجدتها! ثنيت مقبض إحدى الملعقتين حتى انكسر، وعلى الأرض الأسمنتية شحذته ودببته، ومع إحساسى بالنصر أحدثت ثقبين فى الغطاء وكان قوام العصير كثيفا، فلم ينصبّ منه شىء، وانتابتنى نوبة من الغضب، فعاودت إحداث ثقوب أخرى فى كل أرجاء الغطاء، وشيئا فشيئا استطعت نزع هذا الغطاء اللعين، وخلعه، وكسره، وتعبيرا عن إشباع انتقامى تجرعت عصير الكرز مرة واحدة. وعندما نظرت إلى الساعة، كان الليل قد انتصف، ونمت تقريبا بعد ذلك مباشرة وأنا مفعم بنزعة الرضا لأننى أكملت مهمتى .

الثلاثاء ٢٦ من ديسمبر

ليلة مضطربة وقعت فيها صريع مرض شديد وتقيأت حتى عصارة المعدة. وجدت نفسى اليوم أمام الوجبة المعتادة: قطعة من هذا الدجاج الصلب الذى لا يوجد إلا على الأرض المصرية، اكتفيت بها، وفى المساء استعدت عافيتى، وهدأت أحشائى. وقد طمأننى تأكدى من صلابة حالتى الجسدية وسلامتها، خاصة بعد خروجى من مرحلة الاستجوابات المقلقة فى الأيام الأخيرة.

ودخلت اليوم فى محادثتين: أولهما فى الصباح مع أحد ضباط السجن، شاب برتبة ملازم أول، ذى شارب وعينين وديعتين، كان يمر ليسألنا عما نحتاج إليه، فرددت عليه كعادتى الحرية، فشرح لى بلطف، أن السجن مغلق على الحراس والمساجين على

حدٍّ سواء، وأنه أيضا كان سجينا مثلى، وكان يقول لى ذلك بأقصى درجة ممكنة من الجدية، وبعبارات مشجعة تركت فى نفسى أثرا طيبا.

فى نحو الثامنة مساء سمعت ضجيجا أمام بابى، صعدت إلى الكوة ، فوجدت حارسا يضع موقدا يعمل بالسبرتو أمام إطار الباب بعيدا عن تيار هواء البهو، مرّرت إليه عبر القضبان علبة من الكعك، وتبادلنا الحديث لعدة دقائق حول مصيرى على وجه الخصوص، وتبعا لكلامه فالأمر سوف يسوى قريبا، كما تحدثنا عن أسرته وعن أسرتى، ثم ذهب يتحدث مع "ماتى" و"بليفيه".

عدت مرة أخرى إلى اللغة العربية ولكنَّ الأمر صعبٌ دون ورق وقلم، ولدىّ انطباع، كما هو الشأن بالنسبة لكل شىء هنا، أنَّه جهدٌ لا طائل منه. طلبت مصحفا، وشرعت فى القراءة، كم هى بديعة السورة الثانية (سورة البقرة) المشهورة بتقريعها الحاد والطويل للكافرين بوصفها هذه القوة الجبَّارة للعقيدة، بأحرفها المتأججة وبتجسيدها للأرواح المشبوبة بقوة الدين حتى داخل تنظيم الحياة السياسية. فهذا الإسلام – وفقا لقول ماسينيون – يهتم بأصغر الدقائق كما تهتم البروستانتية، وبأوسع دوائر الاتصال كما تهتم الكاثوليكية. لم وضعونى هنا، إننى لم أطلب سوى البحث والفهم؟ إنى أراهم هذا المساء منتصرين من جديد، هؤلاء الذين لم يفهموا لماذا ذهبت إلى "البربر"، أظن أنه لن يتحقق لى الانتصار معهم. أعتقد، يا إلهى، أننى أسعى إلى الحقيقة، وأواجه من أجلها نفسى، كما أواجه كل الأشياء، أريد السلام، وأريد صيانته وحمايته، فقلبى قلب طفل يدق من وقت لآخر بحثا عن الحقائق.

إحباط فى حياتى... طموحاتى تبددت وتولدت المعاناة بينى وبين هذا البلد الذى أحبه، أن يُطلب منى الغفران، فهذا صعبٌ، ومع ذلك فإننى فى هذا المساء، وأنا أعزف نفسى جيدا، بدا لى أننى أقاوم تمكن الحقد داخلى الذى بدأ يفقد مكانه شيئا فشيئا. ومن سوء حظى أننى اخترت منذ زمن طويل كما اختار غيرى، أن أقف إلى جوار المخدوعين بدلا من المنتصرين. هذا الصباح أبدى رئيس الحراس تأففا عندما وزعت

سجائر على شباب المسجونين الذين يقومون بأعمال تنظيف الزنازين، وقال لى: يا أخى! وضحكوا هم من أجل هذا النداء التقليدى، فالأمر يختلف عما كان يحدث فى جهاز المخابرات عندما قال لى حارس هناك: "لا يوجد هنا إخوة، يوجد فقط جواسيس وحراس"، جاسوس... هكذا كتب على باب زنزانتى وصمًا لى بتهمة لا دليل عليها، تمايلت زهرة القرنفل تدريجيا خارج الكوب الذى وضعتها فيه هذا الصباح.

انتهيت تقريبا من قراءة "دون كيشوت"، وكانت هذه هى المرة الأولى التى أقرأه فيها من الألف إلى الياء، وهو كتاب معطاء ثرى، إنسانى، أوربى، حديث، وكل ما تود من الصفات، لكنه ممل.

الجمعة.

نفطن إلى أننا فى يوم الجمعة عندما يذهب المسجونون إلى القاعة الموجودة فى الطابق الأرضى لأداء الصلاة بدلا من النزهة اليومية. نحن الآن قاب قوسين من عقد الاجتماع الأسبوعى للمسلمين، فيوم الجمعة فى العربية معناه عقد اجتماع، وهو عكس حالة العزلة التى نعيشها فى الزنازين. لم يحدث شىء، فحواراتنا فى المساء تدور فى حلقات مفرغة تؤججها الأكاذيب والإشاعات التى تدور فى السجون، والتى نجح "بليفيه" فى التقاطها. فالحديث يدور حول إرسالنا إلى الواحات فى الجنوب للحاق بالشيوعيين والإخوان المسلمين والقيام بالأعمال الشاقة، أعمال شاقة؟ يا إله السماوات! نعم وخاصة أن المسرحية قد تستمر فصولها شهورا وشهورا.

وفى ليال أخرى أفزعتنا الأحاديث عن شبح حُقن غسيل المخ، وهو هاجس بدا لى طبيعيا إذا فكرت فى الاتهامات العنيفة الموجهة ضدى، فليس هناك فى الواقع قضية حقيقية. فالبراءة ستظهر حتما جلية، وأقول هذا وأعيده دون توقف، هذه الاعترافات الابتزازية التى تزعم أن آخرين اعترفوا علىّ زائفة، ودون قيمة، ويعرف رجال الشرطة والقضاة ذلك جيدا. إنَّ هذه النوايا الدنيئة السيئة لا تُلحق أذى إلا بمن أطلقوها...،

أين الحقيقة؟ إنَّ رجال المخابرات يسخرون منا، فلماذا رفضوا مطلبى بعقد مواجهة مع زملائى الذين يزعمون أنهم اعترفوا علىَّ ؟ لماذا لم يستجوبوا العاملين فى منزلى وأفراد سكرتاريتى الذين كانوا سيقولون لهم إن الراديو الوحيد الذى أسمعه هو راديو مصر، وإنَّ الصحافة الوحيدة التى أقرؤها هى الصحافة المصرية. لماذا لم يجروا معهم هذا التحقيق؟ أجيبونى أيها الأوغاد فهل تخافون من إظهار الحقيقة والبراءة.

ما فائدة الجهود المبذولة إذن؟ لا فائدة ، الجدار دائما هو الجدار فى وجهى...، وهناك جدران أخرى...، فالعقول المتبلدة، والأرواح الزائفة المسممة، والنوايا السيئة وعدم الفهم حسب اعتقادى، أنا المسكين الأحمق، قد وصلت إلى الحافة فى كل اتجاه.

لنفكر فى أنفسنا الآن... من الناحية المادية، فإن وضعنا ليس شديد السوء، فهناك الغذاء والسجائر... ومن الآن فصاعدا فلدى منها رصيد، وبفضل المسجونين الذين يقومون بأعمال النظافة فى الزنازين لدى رصيد من أعواد الثقاب التى حصلت عليها بالمقايضة، وأكثر ما يقايض به هو قطع الشيكولاتة أو عبوات الطعام الفارغة التى تشكل أكثر الأشياء قيمة؛ ولذا تتم المساومة عليها.

ولقد تمكنت من الحديث قليلا مع الحراس، وعرفت من بين أشياء أخرى أنَّ هذه الشتائم التى نسمعها فى المساء تصعد إلينا من الطابق الأرضى، وتصدر عن المساجين الذين يحتجزون فى زنزانات جماعية بالعشرات، ويفتعلون لعبة هذه الشتائم التى لا تنتهى من وراء القضبان بين فرق متنازعة، وعندما يعلو مؤشر الضجيج تحتج الزنازين الأخرى والحراس، ويدعون الفرق المتشاتمة إلى الصمت، لكن هذا الاحتجاج نفسه يزيد مؤشر الضجيج بطريقة ملحمية.

قال لى السويسريون إنَّ الحكومة الفرنسية فى إشارة احتجاج منها على ما حدث، قامت باستدعاء كل مدرسيها وأساتذتها الفرنسيين فى مصر، وفى المساء أثناء التمشية المعتادة فى الزنزانة قبل النوم وجدتنى أترنم داخلى وألحن غناء رائعا ممتنا لما

قامت به بلادى. ولكن هل هم هنا يستطيعون فهم هذه الإشارة. إنَّ إشارة كهذه لم تكن لتحدث لو كانت قد جرت لنا محاكمة عادلة. فأيا ما كان الأمر فلو كانت هناك محاكمة فلن أصارع من أجل نفسى، ولكن من أجل قضيتى ومن أجل السلام، وبسلاح واحد فقط هو الإقناع، فليواصل هؤلاء الأغبياء لهوهم بأسلحتهم، وبدءا من الآن فإنَّ الأمر سواءً بالنسبة لى، والشىء الوحيد الذى يهمنى هو أن أتكلم.

الأحد.

مرَّ " بليفيه "هذا الصباح يصحبه حارس على زنزانتى؛ ليجعلنى أوقع على الاحتجاج الموجه إلى مأمور السجن يطالب بطعام عادى وليس ذا جودة عالية، أكثر جدارة بكونه طعاما. صحيح أن كمية الأرز اليومية كبيرة وأصبح تدريجيا لا يؤكل، كما أن اللحم أيضا سيىء دائما، فإننى شيئا فشيئا لم أعد أكترث بالوجبات.

وأسفاه! ففى هذا الصباح فى الطريق إلى دورات المياه، رأيت المساجين القائمين بأعمال النظافة، والحراس يتقاسمون بود ما بقى من طعامنا ليلة عيد الميلاد، فاعترانى خجل وخزى. ما الذى يمكن فعله أفضل من هذا؟ وما الذى يفضلونه؟ إنهم يسخرون - دون شك - من تحرُّجِى، ويفضلون أن يأكلوا، وعلى أية حال فقد قمت بتوزيع كل المواد الغذائية المخزنة لدىَّ، ولم أبق منها سوى بعض ثمار البرتقال وعدد من السجائر.

وما يزال بث الأكاذيب والشائعات مستمرا، فالقضية المثارة الآن تتعلق بالخوف ألا تتوقف فرنسا عن إعلان احتجاجها، وتقوم بطرد المصريين المقيمين فى باريس اقتصاصا وأخذا بالثأر. ولم نكن قديسين - "بليفيه" و"ماتى" وأنا - إزاء هذا الأمر، فقد تمنينا هذا المساء بعد لحظات من التردد ألا يحدث شىءٌ، وأنه إذا قدِّر لهذه المحاكمة أن تعقد بمكان (ولم يكن هذا النوع من الانتقام ، وهو وسيلة مشينة فى كل الأحوال، هو الذى سوف يمنعهم إذا أعيد الالتزام بمبدأ المعاملة بالمثل)، فإن الأرض التى أريد أن أصارع فوقها على الأقل لا تسحقنى تحت الأقدام. يعتقد الحراس فى

عدالة المحاكمة، وفى قرارها الرحيم بعد الإدانة. لاحظنا نحن الثلاثة هذا المساء أثناء عبور الردهة أنّ الجو العام فى السجن أصبح ساكنا وهادئا، فالتعليمات تطبق دائما بحزم، ولكن الوجوه بدأت تفتر عن ابتسام، كما أن الألسنة أخذت تنطلق. آه ! بالتأكيد ما نتفوه به هو دون شك، لا شيء، وفى كل الحوال لا يعدو أن يكون ترهات، ولكن هذه الترهات ستكون من الآن فصاعدا موضوع حديثنا هذا المساء.

ذبلت زهرة القرنفل وجفت، ووضعتها فى ركن داخل حافظة أدوات الحلاقة، إنها تشبه الرفقاء الذين لا نريد أن نتركهم يرقدون فى أرض غريبة، الموت بعيدا...، أتذكر الآن حديثا دار بينى وبين صديق، إذ كنا نتساءل فيه أليس من الأفضل أن تتبعثر رفاتنا فى الريح بعد الوفاة ؟ فى هذا المساء أستطيع أن أجيب عن هذا التساؤل من خلال تذكرى لتهويدة لبنانية للأطفال تقول: "امنحنى نوما هادئا يا إلهى، وعندما تحين لحظة الموت لا تجعلنى طعاما للسمك، ولا تجعلنى أرقد فى أرض غريبة... ". نعم ، إن هذا هو المعنى تقريبا... أدرك يا ابن عمى ما هو شعورك عندما تعود الأموات من أرض غريبة، تماما حينما عُدْتَ من الجزائر، ظللت بيننا راقدا على لوحين خشبيين وسط الورود، وقد استطعت أخيرا أن ترقد فى أرضك، ولكنى أتذكر المشهد الأخير فى حياتك معنا، دموعك وخوفك، وآخر ما رأيته هناك، بعيدا عن ذويك فى لحظة احتضارك. أدرك هذه اللحظة، أعرفها، أعرف هذا الإحساس المريع.

إنها الحرب والحداد، إنه الفراق، النساء غارقة فى دموعهن، نحن نعرف كل هذا، وأنت، وأسفاه، أنت تعرفه أكثر منى، وأنا الذى، فى النهاية، لم يمض عليه سوى اثنى عشر يوما فى مملكة الموت. وماذا عن عبثية كل هذه الأمور، مادام ينبغى يوما مهما فعلنا ألا نموت كما يقال، ولكن ينبغى أن نحب .

تطالعنى هذه العبثية فى وجه ذلك الحارس الذى يشبهك، آه ! ياله من أمر بشع! إنها موجودة أيضا فى هذه الصورة الفوتوغرافية التى كنت أحتفظ بها فى حافظة أوراقى، ولكنها أُخذت منى فى مبنى المخابرات العامة. الصورة التى اعتقدوا أنها

صورتى عندما كنت شابا، وقد اختلط عليهم أمر تشابهنا. هذه الصورة المسكينة التى لعل الضرر قد لحق بها عند هؤلاء العرب الذين لم تكن تبغضهم، ودخلت معهم فى معارك. عند هؤلاء العرب الذين جئت أنا إليهم دون سلاح، ولكنهم شرعوا الكراهية فى وجهى بناء على خطأ وقعوا فيه، فحياتى وحياتك رهن إشارتهم ، فأنا مُهدَّد بالفشل، وأنت قد مت.

الإثنين.

على مشارف يناير....

الثلاثاء.

لم أفكر اليوم سوى فيك يا حبيبتى، ربما كان شيئا مثل نسائم الربيع بعد أمطار هذا الصباح مثل شمس طازجة تنزلق فوق أرض الفناء،. ربما أردت وهو عكس عادتى أن أغوص عمدا فى الذكريات لكى أكسر دائرة الهذيان. وأخيرا ربما انتابنى إحساس بعدم الإخلاص، ومحاولة طردك من خيالى، أو إبعادك عندما تحاولين الاقتراب منى فجأة لم يعد لهذا اليوم أى معنى، فبدلا من المقاومة وجدت على الأقل فى هذه الذكريات اعتزازا وفخرا.

"تحت السماء الصافية التى تتقاطع فيها أسراب السنونو النشط الرشيق".

كنا فى التاسعة عشرة من عمرنا، وكنا نحب حبا جنونيا هذا النوع من الأشعار الساذجة ، فبالنسبة لمجموعتنا الصغيرة كانت هذه هى رحلتك الأولى، ولم يكن ينقصنا شىء، وإذا نقلنا ما نراه للآخرين، هذه اللوحات الطبيعية التى اخترناها، هذا المنتزه الخالى، هذه الطرقات المكسوة بأشجار اللوز الحاضنة لمخابئ العشق ووعوده، كل هذه الأماكن مونفيرييى، وإيجلونج، وبون دى جار، إيجيو مورت، وأماكن أخرى كثيرة، فمن سيتخيل روعة المشاهد التى كنا نبحث فيها بصبر دائب عن نفسيْنا؟ وها أنا اليوم بين

هذه الجدران الأربع أجنى ثمن العناية الكبيرة ـ ومكافأة اهتمامنا المتعدد التى أقمنا على دعائمها ما أسميته أنت حياتنا. إن هذه الجائزة وصورتك الصافية أفلتتا من قسوة موكب الأهوال المحيط بى. إن هذه الجائزة هى صورتك الجميلة فى أى ثوب ترتدينه تبتسم لى مهما فعلوا بى.

وفى هذا المساء الذى يحمل طيفا من الربيع كلما ذكرت ذلك، أحييك بكلمات كلوديل التى قلتها لك ذات يوم أيام شبابنا دون أن نتأمل فيها كثيرا، حيث كنا نتعانق وحيث كنا وقتها لا نفرق بين روائع الشعر وكلمات الأغانى البسيطة أيا كانت ما دامت تترجم ما كنا نفكر فيه: "أى خطيبتى أرسل إليك عبر الأغصان المزهرة سلاما!".

يوم من أيام يناير

بينما كنت غارقا فى النشوة وفى حالة من الاسترخاء، تساهل اليوم الحراس، ربما بأمر من مأمور السجن، وفتحوا لنا أبواب الزنازين لعدة دقائق، رأينا بعضنا، وتصافحنا، وتساءلنا، واستطعت أخيرا رؤية المتهمين الأخيرين اللذين لم أكن قد تعرفت إليهما بعد. بدت لى شجاعتهما كبيرة، وخلال عدة ثوان، وخلال دقائق سرت بيننا روح المرح، شغلتنا حالة واحد من المجموعة كان مسكونا بالكوابيس البوليسية الليلية. هل كان هو ذلك الصوت الذى كان يحتج ويصرخ مساء فى الأيام الأولى لنا؟ هل هو الرجل نفسه الذى كنت قد رأيته فى المعادى بالقرب من شاطىء النيل فى يوم مشرق من أيام بداية نوفمبر عندما كنا فى شرفة عالية نتأمل تفاصيل مشهد النيل، وأشرعة المراكب العابرة، والنخيل وخلفهما صورة الأهرامات والصحراء؟ حاولت أن أطابق بين صورة الزجلين، ولكن صورة الرجل الماثل أمامى فى ردائه ذى الخطوط المربعة فوق البيجامة تلخص قدر البؤس الإنسانى فى دفعة واحدة، حتى إننى لم أعد أستطيع مواصلة التفكير إلا فى صورته تلك التى أمامى، أما الصورة الأخرى فقد ذهبت لتلحق بمخزن الذكريات الممتلئ. تبادلنا أيضا بعض العبارات مع جيراننا، نزلاء

الزنازين المجاورة لنا فى الطابق، وقد أوضحت لهم جميعا من أنا وما الدور الذى جئت متحمسا لأدائه، وما الإحباط الذى أصبت به، وحاولوا جميعا أن يشدوا من أزرى، وأن يقنعونى بأننى كنت على حق. بالتأكيد إنهم ليسوا من الغرب، ولكنهم على النقيض تماما. فهم غرب حقيقيون، لديهم يقين راسخ بسمو تكوينهم الحضارى، وأتصور ببساطة أن كون بعضهم يتحدث الفرنسية والإنجليزية جعلهم موضع ارتياب لهذا السبب الوحيد. فما هى الأسباب الأخرى التى جاءت بهم إلى هذا المكان، ماداموا هم أنفسهم لا يعرفون سبب مجيئهم إلى هنا منذ خمسة أو ستة أو ثمانية أشهر؟ فعلى أبواب زنازينهم العبارة نفسها المنقوشة على باب زنزانتى "جاسوس"، وكما وجهت لى فى الأيام الماضية تهمة أننى أتكلم العربية، فقد وجهت إليهم تهمة أنهم يتكلمون الفرنسية، فهم وأنا نتكلم عن الثقافة وعن الحضارة، وعن الأدب وعن الشعر، وماذا أعرف أيضا؟ نعم، لم أعد أمانع - شيئا فشيئا - فى إطلاق كلمة "جاسوس"، إذا رُبطت بالرغبة فى التواصل الثقافى عبر اللغات التى لا يمكن نزع فاعليتها أبدا حتى داخل السجن نفسه.

اجتررت تفاصيل هذه اللحظات الإنسانية، وبما أننى لم أكن أعرف إلى أين أريد أن أصل، وبما أنه كان لابد أن أستجلى كل شىء، فقد واتتنى صورٌ كثيرة منها: غرفة الإعدام فى الأسفل، إشارات الوجوه المتعكرة، والانتقام فى حالة توتر العلاقات بين البلدين، واللوم بسبب التحالف مع إسرائيل، فهل سأكون متأكدا أننى لست من سوف يدفع يوما ما هنا، فى الأسفل، ثمن هذه الانطباعات الحزينة؟ وبما أنه يجب توقع كل شىء، فعلى الأقل فإننى سوف أستطيع الموت - إذا كان لابد منه - فى سلام ما دمت قد ارتبطت بهذا الحلم، بهذا العمل، بهذه المهمة الثقافية التى قطعتها الليلة الرهيبة التى اعتقلت فيها، ليلة ٢٤من نوفمبر .

انتابنى كابوس الليلة الماضية، فقد رأيت أننى متهم، لكن فى فرنسا، وأن المحكمة قد وجهت إلىَّ لوما بأننى غادرت مصر ضمن أول دفعة من المدرسين الفرنسيين الذين كان بعضهم فى هذه اللحظة معتقلا، ولأول مرة عند استيقاظى أفكر فى زملائى الذين نجوا، وعادوا إلى بلادهم ، ووجدت نفسى سعيدا بمصيرى.

وفى الحقيقة أنَّ هذه السعادة كانت لبرهة قصيرة، فلم يلبث أن مرَّ مأمور السجن علينا زنزانة بعد أخرى ليقدم لنا تهانيه بالعام الجديد، وعلى الرغم من هذا الاهتمام، وهذه الابتسامات المرسومة على وجوه الضباط والحراس ، وعلى الرغم من أن عيد الميلاد شكَّل حدثا يصعب تجاهله. فقد أصبت بعد هذه الزيارة بإحباط شديد. ولحسن الحظ فى بداية فترة ما بعد الظهر، فتحت أبواب الزنازين لعدة لحظات، فاستعدت بهجتى. وفى المساء تذكرت ما جعلنى أضحك مما سبق، فقد قلت، فى شهر أكتوبر الماضى، للمدرسين الفرنسيين الجدد: "هناك مساحة كبيرة للمناورة... فى وسط عدم الثبات السياسى، يثق المصريون فى الثقافة، ودورها فى كل الاتجاهات. وفى حالة المتاعب لا أستطيع أن أعدكم بأى شىء... فسأكون آخر من يرحل...". يبدو أننى كنت أقوم بإخلاص بدور قبطان السفينة، وفيما يتعلق بهذه الجزئية قامت الأحداث باستكمال دورى.

الجمعة

مرت أيام وأيام... رأيت مرة ثانية فى البهو القطة الرمادية ذات البطن المنتفخ تقول لى: هذا الوقت الذى تعيشه هو أفضل مما تحمله الأيام القادمة. هل سأمكث فعلا مثل هذا الشخص الآخر خمسة وثمانين يوما فى السجن؟ كان السويسريون قد أكدوا لى أن موعد القضية قد حدد يوم ١٥ من يناير، فبعد عدة أيام سأحاكم، ومن الذى سيحاكمونه هؤلاء الحمقى أندريه ميكيل؟ ماذا يعرفون عنه؟ سيفتشون فى نواياه؟ يا لها من قضية جيدة! إننى فى انتظارهم. على الرغم منى، أصبحت مرة أخرى عصبيا وقلقا، وصارت ساعات نومى أقل، أخذت أتدرب كما كنت أفعل قديما فى الزمن الجميل وقت الامتحانات على التنبؤ بالأسئلة التى يمكن أن تطرح علىَّ، وعلى الإجابات التى سأقدمها عنها .

آه! يا إلهى، ألهمنى أن أقنعهم بأن يعاملوننى باعتبارى مواطنا فرنسيا يحاكمه قضاة، أما أن تكون التهم موجهة منهم أو من رجال السياسة، فهذا من سوء حظهم. ولكنى أرفض أن يلوثوا الاسم الذى يحمله طفلىَّ "بيير"وكلود"، لكى لا يطلق عليهما

فيما بعد أنهما أبناء الجاسوس. سوف أقاتل حتى الموت من أجل الحقيقة، فساعدنى يا إلهى على ذلك؛ لأننى أحتاج إلى كل قوتى. وسيكون هدفى الوحيد من الآن فصاعدا هذا الدفاع وهذا الشرف الثائر، أحمل غضبا شديدا بلا نهاية ضد هؤلاء الذين لوثونى، وسأقاتل بجنون دون أن أعبأ على الإطلاق بقدر المجهود الذى أبذله. يبدو أن نظام تفكير عقلى قد توقف ، فقد بدأت هواجسى تمطرنى، دون أن أستطيع مقاومتها بسيل من الذكريات المجردة أكثر مما تمدنى بصور واضحة المعالم لطرق ومشاهد، لا يبدو من الواضح لى سرّ وجودها أو تشكلها على هذا النحو. إنها ليست هذه المشاهد التى يستطيع المرء بسهولة أن يضع فيها بالضرورة الشخصيات التى يحبها والمشاهد التى يفضلها، لا، ليست كذلك. ولكنها بالأحرى مشاهد ساذجة محددة بطريقة غريبة مثل صورة منزل، أو مشهد عبور طريق، أو جانب من رصيف، وهى مشاهد لم أكن أفكر أبدا أنها يمكن أن تتشكل على هذا النحو، وتتأسس بهذا القدر من التحديد، دون أن تتجسد فى أشكال تستجيب لها وتناسب ذاكرتنا وإرادتنا. وفى خضم هذه اللعبة التى تهاجمنى، يخور عقلى ويصارع ويستسلم ، ويصبح من العسير علىّ القراءة والتفكير وحتى الصلوات، وسوف أحاول أن ألقى بنفسى فى خضم العمل. وكنت قد طلبت ثلاثية نجيب محفوظ ومعجما صغيرا من العربية إلى الفرنسية من المحامى المصرى الذى جاء لرؤيتى للمرة الأولى هذه الأيام فى زيارة قصيرة. أصبح لدى هذا المساء صورة أخرى "لجانين"، فعندما عدت من دورة المياه فى الساعة الرابعة، وقبل إغلاق أبواب الزنازين، وضع أحد المساجين الموجودين هنا فى يدى عدة أوراق من جريدة، ولما دخلت إلى زنزانتى أسندت يدى إلى الباب المغلق وفتحت الرسالة، وداخل هذه الأوراق المجعدة المطوية طية بعد أخرى ظهرت أنت يا حبيبتى. ولم أكن فى حاجة إلى مزيد من الفطنة لكى أدرك أن هذه الصورة التقطت بعد لقائنا يوم الأربعاء ٦ من ديسمبر، وأنت تسيرين أمام السيدة "موتن". كنت منتصبة القامة مسبلة العينين بازدراء، آه! كم أحببتك على هذا النحو ! انخفضت درجة حرارتى هذا المساء، ورتبت صورتك فى جانب من حقيبتى، ولم تعد لدىّ فرصة للقائك حاليا.

عندما أفكر فى الجهود المغالى فيها التى بذلوها ضدك وضدى، وفيما كنا نعتقد فيه دائما أنه ليس هناك نقطة التقاء وسط بين الثقافة والسياسة، بين الأفكار كما

ينبغى أن تكون أو كما هى عليه، وبين ضروريات العصر والحيطة التى اتخذناها من جانبنا كى نلقن أبناءنا وتلاميذنا فى مواجهتها ضرورة مراعاة التنوع بين البشر والخصائص المميزة لكل شخصية، نعم، حينما أفكر فى كل هذه الأمور، فإن جلادينا يثيرون شفقتى، تلك الفئة التى تعيش فى دائرة الشك. يظنون أننى جاسوس، وبين الحين والآخر أجد كل ذلك كوميديا هزلية لا يمكن مقاومتها، والتفكير فى المشكلة بهذه الطريقة هو أفضل الطرق اكتمالا ، وهدوءا للأخذ بثأرنا.

الإثنين ٨ من يناير.

اليوم هم يوم ميلاد القديس سان لوسيان، كيف تقضى هذا اليوم يا والدى؟ لقد عرفت من خلال خطاب حمله إلىّ السويسريون وقرأوه علىّ فى مكتب مأمور السجن أنّ الجو شديد البرودة فى فرنسا... وأنا هنا لست حتى معتقلا سياسيا، وإنما وضعت مع المساجين فى الزنازين تحت طائلة القانون العام جنبا إلى جنب مع المحكوم عليهم بالإعدام. وعلى الرغم من هذه الأوضاع يا إلهى، فإننى لا أشكو من هذه الحالة، لو أنهم تركونى أستثمر قوة الكلام والحوار كما يحدث بين الإخوة .

فتحقيق التعاون والمساندة والأخوة يمكن هنا، لا بمجرد ترديد هذه الكلمات فى حلوقنا أعواما بعد أعوام، فلم أعد أعتقد إلا فى الرحمة. إن عقيدتى الجديدة الآن، وذلك البعد الجديد فى حياتى سوف يحميانى، من الآن فصاعدا، من كلّ ضرر وأذى. وعندما نعود فيما بعد إلى بلادنا لن نتنصل بالتأكيد من أىّ من أصدقائنا، ولكن على نحو خاص، من هواجس أولئك الذين قد أصبحوا سجناء بين هذه الجدران.

الجمعة ١٢ من يناير.

مرّ النهار سريعا، وخرج المسجونون فى الزنازين المقابلة لى فى طريقهم فى نحو الساعة الرابعة إلى دورات المياه. كانوا يغنون ويؤدون حركات تمثيلية صامتة، وأحدهم كان يحاكى تقريبا شارلى شابلن، وقد تابعنا المشهد من وراء كوى الأبواب. وكان هذا

المشهد موضوع حديثنا فيما بعد في محادثة ما قبل النوم، وقد انتهينا بليفيه وماتي وأنا، ونحن نقيِّم الساعات الأخيرة التي مرَّت بنا كما يحدث كل مساء إلى أنَّ يومنا هذا كان جيدا. قبل أكثر من ثلاثة أيام على المحاكمة، تعرفت مؤخرا إلى السيِّد دي لا برادل الذي جاء لزيارتنا بصحبة السيد ثورب. فلم يكونا قد استطاعا بعد الاطلاع على ملف القضية في مجمله، وقد عبرا عن ثقتهما في القضية. ومرة أخرى، فإن صعودي لدرجات السلم اللزج بعد التواصل مع عالم البشر الخارجي، وتبادل التحايا مع وجوه من وراء القضبان بدا لي مشهد حلم عابر سينتهي. في هذه اللحظة لم أكن أعبأ كلية بمصيري. فأنا أريد الحفاظ على الصورة التي تتشكل عني في حياتي أو بعد رحيلي، ليس أمام هؤلاء الذين أدانوني (فأنا شديد السخرية منهم) ولكن أمام الذين يعرفونني أو سيعرفون أولادي. إن بين جنبات هذا السجن يوجد سجن آخر معنوي، إنه سجن الالتزام بأسس الحياة الحرة، وسجن المشاعر، وسجن الاسم الذي أحمله. إنني أجده اليوم أكثر من أي وقت مضى شديد الهدوء.

خطرت على ذهني هذا المساء إحدى الذكريات حول دجاجة كانت تختبئ في ظل شجرة تحت سور منطقة لاكوفرتواراد ، ذات صيف كان من أجمل ما مرَّ بنا في منطقة لاكوس. أعدت على نفسي مرة ثانية بهذه المناسبة بعض المقتطفات التي طفت على سطح ذاكرتي. كانت مقتطفات من خطابات الوداع التي خطتها كاميل إلى ليسيل ديمولن. لقد أسمعتك إياها في الزمان القديم حيث كان الأمر يتعلق بذكريات وبعصافير نصادفها في طريقنا.

تجدد السجن... وجدت أول أمس في الفناء مجموعة من المغادرين، ومجموعة أخرى من القادمين الجدد يجلسون القرفصاء، وقد نالوا قسطا من التعنيف والتقريع أمام حجرة مكتب نائب المأمور. كان هنالك أيضا صفٌ من الزائرين والزائرات اللائي كن يتشحن بالأسود، ويكشفن وجوههن. يرتادون حجرة الزوار الصغيرة في نهاية البناية. تخلل اللقاء قليل من الصرخات، ولكن دون بكاء، ودون أية خشونة أو قسوة.

يقف الحارس دائما فى برج مراقبته. وبين هؤلاء الناس الذين يصلون، ويعبرون، ويغادرون، يظل دائما السجناء فى مجملهم، فى الزنازين، وهم المحكوم عليهم بالإعدام، ونحن "السجناء السياسيين"، أو كما يقولون هنا "الجواسيس".

السبت ١٣ من يناير.

منذ ست سنوات فى أثيوبيا، كنا عائدين من مدينة أكسوم نحن الاثنين وضللنا الطريق، فحينا نحطُّ على جبال الأبوكاليس بين السماء والأرض، وحينا نسير بين السهول التى لم تحسن استقبالنا، فالطريق الذى كانت تحف جانبيه مواكب من الظلال المضطربة منحوت فى الغابة الواسعة....

رأيت هذا الصباح السيد ثورب والمحامى المصرى، قرأ ملف القضية، وأكدا أن براءتى ستنجلى. البراءة... قبل المجيء إلى هنا كانت هذه الكلمة فيما مضى تعنى لى للوهلة الأولى مجرد كلمة فى سياق قضية. فلم أكن أعلم أن الذى يقع ضحية خطأ قانونى سيواجه هذه الجدران من العبث والتساؤلات فى كل لحظة،لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ وسيعانى من طنين فى الرأس صباحا ومساء، وأسفاه لقد حلَّ الليل الآن وبدأ الخوف من أن أغدو مجنونا يجتاحنى شيئا فشيئا.

هذا المساء شرح لى "بليفيه" أنواع المعتقلين الموجودين فى هذا السجن، سجن محكمة الاستئناف: فى الطابق الأول يوجد "الجواسيس" والمحكوم عليهم بالإعدام الذين يرتدون زيًا أحمر، وفى الطابق الأرضى والثانى والثالث يوجد المدانون فى جرائم صغيرة (نشل، تشرد، شذوذ جنسى) والعقوبة فى هذه الحالات لا تتجاوز السجن ثلاثة أشهر، وهو ما يفسر الدخول والخروج المتكرر لهؤلاء النزلاء وكأنَّهم عاملون فيه. وهؤلاء المساجين فى مجملهم ينتمون إلى فترة الشباب دون الثلاثين أو كبار السن، ويتولد لدينا إحساس أن السجن على الأقل من الناحية النظرية بالنسبة لهم يقوم بدور المأوى والإصلاح معا. وكلمة الإصلاح مقترنة بكلمة السجن منقوشة فيما يبدو عند بوابة الدخول. هذه المجموعة البائسة التى ترتدى سروالا وقبعة خضراوين ممزقين يقيم

أفرادها فى زنازين أكبر من زنازيننا، وخاصة فى الطابق الثانى والثالث، حيث تضم كل زنزانة العشرات منهم. وهم يستغلون فى أعمال تنظيف السجن - باستثناء الطابق الذى نقيم فيه - تحت رقابة سجناء مزودين بأحزمة مراعاة للظروف، وهو النظام الكريه نفسه المسمى " كابس" الذى كان يطبق فى معسكرات النازية. وهم أكثر خشونة وغباءً مائة مرة من حراس السجن الرسميين. ماذا يفعل هؤلاء التعساء فى زنازينهم عندما تغلق عليهم من الرابعة عصرا حتى السابعة من صباح اليوم التالى؟ فهم يتبادلون البذاءات والشتائم، وأعتقد أننى أفهم من صرخاتهم ليلا أنهم يمارسون طقوس الجنس فى السجون، مع أن مَنْ يضبط منهم متلبسا بهذه الجريمة يعاقب على هذا الخطأ، أو على أى خطأ آخر يعتبر خطيرا، عقابا قاسيا إلى حدٍ ما، فيضرب خمسين ضربة بالعصا على باطن قدميه. والحق يقال إنه لا يبدو عليهم أنهم يسيئون استخدام وظيفتهم. وعلى الرغم من ذلك، فقد حدث فى إحدى المرات عند تنظيف زنزانتى ذات صباح أنً رئيس الحراس الضخم ضرب أحد هؤلاء الفتية الذى لا أعرف تحديدا ماذا كان قد فعل، وأمام إلحاحى وافق أن يتوقف عن عقوبته، وقد أشبع غليله بأن لامنى على أننى أفسدت مهنة تهذيب هؤلاء الأطفال الذين، كما قال، لم يتربوا جيدا وأصبحوا لا يطاقون. وأضاف أنه يقول ذلك باعتباره ربا للأسرة.

كل هذا العالم الذى يضم مئات من البشر يخيم عليه الصمت فى أوقات مختلفة، وغالبا ما يكون ذلك بين السادسة والثامنة مساء، كما يكون فى الهزيع الأخير من الليل. ومع ذلك فهل كان لابد لمكبر صوت الراديو المزعج أن يتدلى على عارضة معدنية بين الطابقين الأول والثانى، ولا ينوع موجاته الرعدية، ويبث دائما لفترات طويلة تقريبا أغانيه حتى الثانية صباحا، ويتم الحرص على عدم بث أى نشرات إخبارية. وهل كان يجب على الحراس فى نوبة حراستهم الليلية فى تلك الليلة أن يواصلوا غناءهم وضحكاتهم إلى ما يقرب من السادسة صباحا.

فى الأيام الهادئة نحو الثامنة مساء يعرف السجن الصمت الأشد وطأة ، ويبدى وجهه الأكثر كآبة، بعد هذا الصمت الذى يُخلفه القلق أو العمل المرهق بالنسبة للآخرين. وتقاس درجة الصمت الذى يخيم على الداخل من خلال تلك الضوضاء المنبعثة من الشارع البعيد جدا . ومن خلال نداء الصلاة الصادر من المآذن التى يوجد منها ثلاث أو أربع على الأقل، تنتشر ما بين مسجد السجن، ومساجد الحى، فينبعث منها الأذان يشق جدار الصمت المخيم فى ذلك الوقت لتناول وجبة المساء.

وتعنى وجبة المساء أن اليوم قد انتهى. ومنذ شروعى فى إتقان اللغة العربية وأنا أحاول اتباع جدول ملزم شديد الدقة : فى الصباح بعد الانتهاء من الاغتسال أغسل ملابسى الشخصية، وينتهى هذا الطقس اليومى فى التاسعة أو فى التاسعة والنصف فى الأيام التى يأتى فيها الحلاق، ثم أرتدى ملابسى وهى عبارة عن بدلتى السوداء القديمة التى تبدو عجيبة مع حذائى الأصفر، وقميص أبيض ورابطة عنق. بعد ذلك الصلاة، وقليل من القراءة، ثم الإفطار. من التاسعة والنصف حتى الثانية أعكف على دراسة اللغة العربية، ويتخلل هذه الفترة نزهة لمدة عشر دقائق. بين الثانية والثالثة والنصف، أتناول وجبة الغداء، وأتجول فى الزنزانة وأنا أدخن، أو أغنى، أو أحلم. من الثالثة والنصف حتى السادسة أعود إلى دروس اللغة العربية من جديد، ثم وقت الاسترخاء، وفيه أقرأ قليلا وأغتسل، وأستغرق فى الأحلام... وأتحاور مع "ماتى" و"بليفيه"، وبعد الكلمات القليلة التى أتبادلها معهما، وقبل صلاتى الأخيرة، وقراءتى اليومية الأخيرة من العاشرة مساء وحتى الحادية عشرة، هنالك الساعة الرهيبة ما بين السابعة والثامنة، إنها وجبة المساء. كل مساء أجلس فى مواجهة الجدار فى اللحظة المحددة التى أقرب فيها مقعدى من الجدار. وعلى الرغم من توبيخى لنفسى فى كل مرة بطريقة قاسية، فإننى أجد حلقى قد عقد واجتاحنى الإحباط، وملك على أمرى، وهويت فى بئر بلا قرار. قديما عندما كنت حرا كنت أستشيط غضبا ضد الأشياء، وضد هذا الشكل من العقلانية أو من التدبير الذى تكتسى به الأشياء التى تقف فى طريقنا، ولكن الآن وأمس وغدا ما زلت أجلس أمام هذا الجدار الذى ينتصر على، ويستخف بى. ألتحم معه فى حوار حيث الأشباح هى التى تدير اللعبة. إننى أركع،

وأتساءل، ولا أتلقى سوى إجابات تخلو من المعنى مثل وجود هذه الأشياء اليومية نفسها المحيطة بى، والتى ستصبح من الآن فصاعدا مألوفة. ماذا أستطيع أن أقول. تتداعى أمام ناظرى صورة العالم والبشر أو أشباحهما. أرى منضدة كبيرة، ووجوها مألوفة، ليست وجوها شديدة الصخب لأصدقاء، ولكنها نظرات دافئة وحادة، كما لو أن تناول وجبة المساء قد أصبح طقسا شعائريا وعيدا مقدسا. فثمة دائما الشمعدان والكريستالات، ليس هناك أية كلمات، ولكن تبقى دائما وجوه كثيرة لا نهاية لها، وأعين شاخصة إلى. هنا ليس فى صحبتى سوى قط ضخم أصهب اللون، ولكنه لا يكون فى ضيافتى كل الأمسيات، وشيئا فشيئا وافق أن يمرر رجليه من بين القضبان عندما تسلق الكوة الصغيرة الموجودة فى أعلى الباب. قمت إذن، فى هذه الحالة، وتناولنا طعامنا معا. كنت واقفا أسفل كوة الباب، وكان هو أعلاها، يدير رأسه من جانب إلى آخر، عندما لا يستطيع المرور سريعا من بين القضبان. ولكن عندما يشبع، يختفى. ويترامى إلى سمعى صوت جسمه، وهو ينزلق من الجانب الآخر، وحينها أجد نفسى وحيدا فى مواجهة الجدار.

وليس صحيحا أننى أختصر وصف هذه اللحظات ، فلاشك أن الصباح أقل وطأة، فربما نتوقع أن يحدث شىء خلال النهار. ولكن المساء على النقيض من ذلك، فلا جديد فى تفاصيله، فلا جديد، لا جديد، لا جديد، والعبارات المتبادلة مع "ماتى" و"بليفيه" تدور دون نهاية حول الماضى، والتساؤلات والتكهنات. وعلى الرغم من كلٍّ شىء، فإننى أطيل من وقت وجبة المساء التى تمثل لى أقصى درجات الإحساس بالوحدة والإحباط وذروتها، وليس ذلك ضربا من المازوشية – أى تعذيب النفس – ولكنه دون شك مع الإحساس الخفى ببلوغ الحزن مداه من خلال تمديد الألم حتى تحل لحظة المحاكمة ، وبما أنه سيحدث بالضرورة شىء ما يذكرنى بأحزانى فى المساء، فإننى ربما استطعت أن أحدد زمنا أو أضع حدا لهذا الضيق، ولهذه المظاهر التى تتراءى لى وأنا أبحث عن الأسباب فى جذور هذا الموقف، وفى حاضره. وربما تتكشف لى حينئذ، وينتهى كل هذا الألم، نعم سينتهى، سينتهى أخيرا يا إلهى، ستنتهى عزلتى مع الجدار.

الأحد ١٤ من يناير

غدا جلسة المحاكمة.

رأيت هذا الصباح ج. ب. جرونيه موظف فى السفارة السويسرية، والسيد دى لا برادل كانا ودودين، تملؤهما الثقة، ويحدوهما الأمل واليقين فى براءتى. استعدت نظارتى التى أُخذت منى فى تلك الليلة الرهيبة، ليلة إلقاء القبض علىّ. غمرتنى نشوة جارفة، وشعرت أن استعادتى للنظارة هى ميلاد جديد. أخبرنى "جرونيه" الذى تَفَهَّمَ سعادتى، وهو يعيد إلىّ النظارة أن غدا سنبدأ نعيش عصر "حريتنا". ولدت "الثقة" من جديد إذن، بئس الأمر، سأترك نفسى تستعيدها. استأنفت قراءة بلزاك، العملاق الذى لا مثيل له .

الإثنين ١٥ من يناير.

فترة بعد الظهيرة

عدت بعد المحاكمة مذعورا... إنها الآلة... اللعبة التى تستخف بنا وأنا أحد قطعها. وعلى الفور قررت ألا أكمل المشوار، فعندما يحين دورى سأتكلم، ولكن ليس من أجل هؤلاء القضاة، وليس من أجل هذا الجمهور، فليس علىّ أنا أن أثبت براءتى، ولكن عليهم هم أن يفسروا لى كيف يروننى، ماذا يعتبروننى، رجلا صالحا أم لا، جاسوسا خطيرا فى ثوب رجل شريف، ما الطرق التى سلكتها لذلك؟ وما وسائل الانحراف التى اتبعتها؟

عندما أفكر فى وضعى وحالتى فى هذه القضية، يبدو لى أنهم وقعوا فى مجال التفاهة أكثر من مجال الشر، وأنا أفضل هذا التفسير.. ومع ذلك فهل كانوا أذكياء عندما لفقوا لى تهمة تديننى؟ هل كانوا أغبياء عندما اعتقدوا أننى مذنب بالفعل؟ أيهما الأسوأ؟ بالتأكيد لا يهمنى تحديد ذلك، وكل ما يهمنى أمام الذين يحبوننى ويعرفوننى ما سوف أقوله. لقد أكد لى "ثورب" وأعاد التأكيد على أن الجامعة الفرنسية تكفل

شرفى وتضمنه. أصدقائى، نعم، فسأتكلم من أجلهم. كان الحراس يرتدون الزى الأسود. عادت إلى رسغىَّ مرة أخرى القيود الحديدية التى كان آخر عهدى بها فى الخامس من ديسمبر. كنت الأخير الذى نزل من السيارة صباحا وعند وصولى إلى المحكمة أصبت بصدمة، فقد وجدت كل مسجون يقف بجانبه حارس، وكان المشهد على النحو التالى : مسجون ثم حارس، ثم مسجون ثم حارس. وهكذا ينساب صفٌ طويل حتى الجدار حيث جاء ترتيبى بجانبه. وبعد ذلك حان وقت المغادرة. جلسنا على مقاعد من سلال الخضروات الفارغة، ثم تتابعت أضواء كاميرات التصوير، القاعة الضخمة لمبنى المحكمة، سياج مزدوج من العساكر المسلحة، قاعة الانتظار الصغيرة، سيارات ترحيلات المتهمين، قاعة المحاكمة: السقف عال يحمل الجدار آية قرآنية تدعو إلى إقامة العدل. على اليسار يجلس النائب العام وأربعة من نوابه يرتدون "الردنجوت" السوداء، يلتف حولها وشاح أحمر وأخضر. فى الوسط يجلس الرئيس ومساعدوه، يرتدون أيضا الردنجوت. وعلى اليمين يجلس كاتب الجلسة. وفى مواجهة قفص المتهمين الصحفيون والمصورون. خَلَتْ القاعة المكدسة بالبشر من وجه يؤازر الفرنسيين، خَلَتْ من أم أو ابنة أو.أى امرأة. متهمون، متهمون فى بلاد غريبة.

بعد عودتى كان علىَّ أن أصف زهرة قرنفل جديدة، أحضرها لى السويسريون منذ عدة أيام فى الحقيبة الخاصة بأدوات الحلاقة. انتهت صحبة الزهرة الباسلة وجفت أوراقها. فلم أكن أملك الشجاعة الكافية للانفصال عن هذه الزهرة المسكينة التى ظلت تحافظ على رائحتها اعترافا بالامتنان، وهى بجانب زهرة غيد الميلاد السابقة لها، والتى كانت تنتظرها داخل الحقيبة الصغيرة .

يوم من أيام شهر يناير.

تميعت قضيتنا, ومن جديد لم يحدث أى شىء.

كنا قد اعتدنا بعد عودتنا من جلسة المحكمة أن نلقى ببعض السجائر إلى المساجين فى الأسفل فى القاعة الكبيرة الذين كانوا يطالبون بها فى إيحاءات وحركات.

يهرب منى النوم، فلم أعد أنام سوى ثلاث ساعات أو أربع نوما مضطربا. أستعرض فى رأسى ليل نهار الأسئلة التى سوف توجه إلى فى المحكمة والإجابات التى سوف أجيب بها. ليس لدى ما أخفيه إذ أجد أنَّ هذه اللعبة لعبة مجهدة، كما أنها دون جدوى. ومع ذلك فإنها لن تمنعنى عن الكلام، ليس من أجلهم يا إلهى أبدا، ولكن من أجل الآخرين فى فرنسا أو فى مكان آخر، من أجل كل العقول الشريفة ، وبالسوء حظ من يعتبر ذلك نوعا من الاعتداد بالنفس. نحن نعيش فى عالم فاسد، ومجنون حتى هؤلاء الذين يعترضون على الحروب والعنف ودناءة السياسة وحقارتها. هؤلاء الذين يعاندون ويتصلبون أمام كل شىء وضد كل شىء، يعتقدون للأسف أنهم وضعوا فى السجن من أجل هذا، سواء هنا أو فى أى مكان آخر أيضا فى العالم.

فإذا ما خرجت من هنا يوما، فلن أستسلم أبدا أمام الظلم، فهذه القضية يمكن أن تظهر فى نفسى شيئا من التطهير.

الجمعة.

يوم حزين، فليس هناك جلسة محاكمة، وليس هناك نزهة، فعندما نذهب إلى المحكمة نستطيع من خلال جلستنا على مقاعدنا المصنوعة من أقفاص الخضروات الفارغة أن نرى المدنية.

الأربعاء.

رأيت "ويبر". انتهز كل من " ثورب" و"برادل" فرصة تأجيل القضية لعدة أيام، وسافرا سفرة قصيرة إلى فرنسا. كان "ثورب" قد زوّدنى بأخبار جديدة، وحمل إلىّ بعض الصور الفوتوغرافية منها صورة "كلود" و"بيير" وهما ينطلقان فى أرض فضاء واسعة، وصورة "جانين" فى لوكسمبور تنهك نفسها كما قال "ثورب" فى إجراءات من أجلى، يساندها كثير من الأصدقاء وهم أكثر مما أظن. كما حمل إلىّ رسالة من أمى

تقول: "أغلق عينيك يا حبيبى هاهى المشاهد التى تحبها، وها هى الحجارة تنساب تحت أقدامهم".

وَقَّعْتُ هذه الأيام عقد تنازل عن سيارتى الفيات موديل ٤٨ إلى السفارة السويسرية ، مسكينة يا جرادتى الصغيرة. فهى أيضا مثل الأشياء الأخرى الشاهدة على سعادتى لقد هربت، وهربت معها الذكريات. أرى أمامى "جانين" وهى تقودها، والأولاد الذين كانوا يحبون هذه العربة العتيقة، والأعطال التى كانت تصيبها ...

لم أعد أنام الآن إلا فيما ندر...

تأسست فى مونبلييه لجنة تسمى لجنة أندريه ميكيل تتألف من أساتذة، وقساوسة، وأطباء لدعمى ومساندتى. إنهم إخوتى مدى الحياة. لن أنسى ذلك أبدا.

أما إخوتى الآخرون فهؤلاء من يقبعون فى الزنازين أيًا ما كانوا، وأينما كانوا، فلن أترككم وحدكم إذا ما خرجت من هنا. لقد دفعت الثمن لأعرف ما معنى هذا السجن، هذا العقاب الأسوأ من الموت. آه ! يا إلهى! لو كان البشر يعرفون إلى أى مدى غضبهم أكثر قسوة من غضبك! وهذا دون الحديث عن الظلم وعن العبثية....

بدأت التحقيقات مع ماتى .

الخميس.

يجافينى النوم دائما، على الرغم من قُرص المنوم الذى أرسله لى "بليفيه" مع الحارس.

أشعر بتدهور وانهيار، ومع ذلك فبفضل جلسات المحاكمة، حتى ولو كانت قليلة، فإنى أستطيع من وقت لآخر رؤية رفقائى على فترات أقل تباعدا مما كان يحدث فى أوقات العزلة فى الزنزانة، والجلوس فوق أقفاص الخضروات الفارغة، والانتظار فى القاعة الصغيرة لمبنى المحكمة، والانحشار فى عربة نقل المتهمين. ونحن خلال هذه المواقف كلها كائنات فى صوبات النباتات الدافئة حيث تنتج من تقاربنا حوارات

عجيبة. ولكنْ أيٌّ من هذه السعادة لم تكن من الحيوية بحيث توقف الإحباط واليأس الذى حلَّ بنا بعد حوالى شهرين من عدم الحرية، وأدى بنا بالرغم من كل شىء إلى الدخول فى دورة جديدة راكدة من الأيام ليس بها أحداث حيث ننغرس فى أرض موحلة.

متى يمكننى الحصول على أوراق وقلم رصاص كى أكتب إلى "جانين" أو كى أدون لنفسى ما أفكر فيه ؟ فعلى الرغم من مساعى السويسريين فإن كلَّ طلباتنا ظلت دون إجابة، ويبدو أن نظام منع اللقاءات بين المسجونين المفروض علينا لن يرفع إلا بعد انتهاء الاستجوابات. وهو نظام عبثى مثل بقية الأنظمة المتبعة معنا التى قد تستمر أسابيع أخرى. وماذا عن وجبة المساء... نحن الآن على مشارف شهر فبراير .

السبت٢٩ من يناير.

يوم من الغضب وخيبة الأمل، فقد تأجلت جلسة المحكمة ثمانية أيام.

عندما عدنا إلى الزنزانة، لم نجد الكتب. فقد وجد مأمور السجن أننا نمتلك عددا كبيرا منها، فقام بسلبها، ولم يتركوا لى من كل الكتب سوى رواية سخيفة. قبل أن يغلق باب الزنزانة، انخرطت فى سَوْرة غضب عارمة، وعبرت بالعربية أولا ثم بالفرنسية (وكان هذا أفضل) عما يجيش فى صدرى من غضب، ووجهت حديثى إلى الحارس، وإلى المأمور، وإلى العرب بصفة عامة. تجيئون باعتباركم أصدقاء إلى الزنزانة ثم تسلبون كتبى، ليس فقط رواياتى، والكتاب المقدس، وكتاب التراتيل والصلوات، بل حتى كتبى العربية، والمعجم والقرآن! إنهم بالفعل لحمقى! إذا قدر لى أن أخرج من هنا، فلن أهتم بأمرهم، ولن أفكر فيهم، ولا فى لغتهم، ولا فى حضارتهم ! فليذهبوا إلى الجحيم.

الأحد.

هدأتُ اليوم قليلا، جاء إلىّ رئيس الحراس الذى يبدو أقلّ شرا وفظاظة مما يظهر، ليقول لنا إنه سيتولى أمر الكتب. وفى المساء وجدت من جديد كتابى المقدس

والقرآن. ابتسمت لإفراطى فى الغضب. وأيّا ما كان الأمر، فإنه يجب أن أستأنف من جديد دراسة اللغة العربية. فقدرٌ من الكياسة من جانبهم، وقدرٌ من سوء الفهم المتبادل، يا إلهى! كم من الطرق سأسلك.

يوم ثلاثاء في نهاية شهر يناير.

قال لى أحد الحراس اليوم أنه عرف أننى كنت صديقا حقيقيا لمصر حملقت فيه. هل هى ألعوبة ؟ وإذا كان الأمر صحيحا، فمَنْ يجرؤ على الحديث الطيب فى حق "جاسوس"؟ قلت للحارس - وأنا الآن أعرفهم جميعهم، وقد صرنا أصدقاء - إننى لم أكره مصر، أما بالنسبة لحكومتها فعليها أن تتصرف وسوف أرى فيما بعد. يا إلهى، يا إلهى، إننى لست بعد من كبار المتسامحين....

فبراير.

جاء شهر فبراير، وما زالت الاستجوابات تتابع. فالحديث الآن عن " بليفيه ". ترى متى يجيء دورى؟ ما زال هناك موتن ثم... أنا، ومهما فكرت فى الأمر، فإن ثمة سؤالا واحدا يجتاح تفكيرى ويسيطر علىّ : كيف يمكن إقناع قضاتى هؤلاء الثلاثة رجال الذين لا يبدون لى، قبل كل شىء، أنهم محدودون، قصيرو النظر، ولا أنهم منحازون لأى جانب.

نستطيع الآن قراءة الصحافة المصرية باللغة الفرنسية، والتقارير التى تكتب عن القضية غالبا ما تكون غير موفقة، ولكنها فى مجملها موضوعية إلى حدٍ ما.

تمر ليال مضطربة، ولحسن الحظ أن المصباح الكهربائى فى زنزانتى قد تلف منذ يومين، فأنعم بالظلام ليلا، وترتاح عيناى قليلا. وعندما تفتح الكوة تتناهى إلى سمعى

ضوضاء الشارع، وصوت الحمار. وأرى فوق الجدار أعلى السرير مستطيلا من النور المنبعث من نافذة فى مبنى المحافظة، وتنعكس فوق الباب أشعة مصابيح السيارات التى تخفت هنا وتتلاشى.

اليوم التالى.

تم تغيير المصباح، وعدت إلى القلق مرة أخرى. وعلى الرغم من كل شىء، فإن هاتين الليلتين اللتين قضيتهما فى الظلام قد حسنتا من حالتى. وكنت قد بدأت أقول لنفسى إننى سأبدو فى الاستجوابات هزيلا، وفى حالة قريبة من الاضطراب العقلى. أردد اليوم المقطعين الشعريين اللذين حفظتهما عن ظهر قلب فى كلية الآداب من سوناتا أجريبا أوبنيى Agrippa Aubigne التى كانت قد صدرت فى مونبلييه. وهما المقطوعتان اللتان، إن صح ذلك، تمثلان جزءا من حياتى مصاحبا لهذه الذكريات:

"استطعت أن أتخلص من خوفى ومن الألم الذى تولد عنه.

أنام فى ملجأ ناعم فى ظلال الريحان والسرو،

الذى تتعانق أغصانه الخضراء المتشعبة جنبا إلى جنب،

فمن الورود شكلت وسادتى اللازوردية.

تنتقل النسائم إلى همسات الموسيقيين،

وتبرق آلاف اليرقات الفضية بألوانها المتعددة،

وكأنها تنثر وهى جزلى اللآلىء فى الأراضى الخضراء

وتجعل حبات الماس تنساب مع الهواء إلى حيث المغامرة ".

بعد عدة أيام.

دائما لا شىء يحدث... بدأت الاستجوابات مع "موتن". لم أعد أنام نهائيا. هل صار ذلك عادة أم اضطرابا؟ كما أننى لم أعد الآن أبكى إلا نادرا. وضعت صورة "جانين" والطفلين داخل الحقيبة، ولم يعد هذا يعنى شيئا.

يوم آخر.

عندما عدنا من المحكمة أمس رأينا فى مكتب الكابتن محكوما عليه بالإعدام يودع عائلته. وعندئذ لم يخالجنى شك أنّ الصمت الرهيب سيخيم على السجن هذا الصباح. كانا اثنين قد حكم عليهما بالإعدام. ففى نحو الثامنة والنصف، وعندما كنا فى طريقنا إلى الدرج، دفعنا ضابط يرتدى زيًا أسود، وزجّ بنا "كلٌّ إلى زنزانته". وكان الصمت غير المعتاد، والكآبة يلقيان بظلالهما على السجن. وامتد الصمت الذى لم أفهم دوافعه إلا فى هذه اللحظة، سوف يعدمان الآن. وتنفيذ الحكم لا يتم فى هدأة الليل دون ضوضاء على عجل. لا، إنهما سوف يموتان فى وضح النهار بعد أن قضيا ليلتهما الأخيرة عندما أخبرنى أحد الحراس، وهو يمزح، بمصير المترقبين لتنفيذ حكم الإعدام. لم أسمع شيئا من كلماتك الأخيرة يا رفيقى المسكين. فى قلب الصمت الذى ران على القاعة فى الطابق الأرضى، تناهت إلىّ بعض الأصوات، ودوى فلاش الكاميرات. إنك الآن دون شك تقول كلماتك الأخيرة، ثم ينتهى كل شىء. وقدماك – دون شك أيضا – معلقتان فى الخواء، فى هذه الزنزانة الفظيعة المواجهة لزنزانتى حيث ينهمك جلادك الآن فى عمله.

ثم فتحت لنا الأبواب، وسرنا مسرعين إلى المحكمة. فى بادئ الأمر بينما كنت أعبر الردهة رأيت داخل الزنازين "الخاصة" الرجل الآخر بزيه الأحمر ينتظر فى غيمة من دخان السجائر دوره على حبل المشنقة. انطلقنا لحسن الحظ مسرعين هذا الصباح. كنا – دون شك – مضطربين، ولكنه اضطراب يعود إلى غرابة الجو المحيط بنا أكثر ما يعود إلى سوئه. وإذا لم يكن لدينا جلسة محكمة غدا، فسوف نستمع ببساطة فى وقت النزهة إلى حديث طويل مثرثر عن هذا الفصل من فصول السجن، وعن رجال بزى أسود، وعن صحفيين كانوا موجودين فى الطابق الأرضى، وعن وجهين قد نقصا من عدد المسجونين.

اليوم التالى.

ماتا بكل شجاعة بعد أن أعربا عن شكرهما لإدارة السجن عن حسن معاملتهما، وبعد أن طلبا العفو عن ذنوبهما التى اقترفاها. كانا مسجونين تحت طائلة "القانون العام". وكان أحدهما مسلما والآخر مسيحيا. ويبدو أن عائلة المسيحى التى تنصلت منه حتى النهاية لم تأت حتى لرؤيته قبل الموت.

وعاد السجن إلى نظامه العادى، ولكن دون شك فإنّ معنويات رفاقى مثل معنوياتى قد تدنت إلى حد كبير. فأرواحنا تمتصها هذه الجدران. وعلينا، يا إلهى، ألا نبدى رد فعل، وألا نندفع. ويعتقدون أننا نخفف الوطأة عن أعصابنا، ونحن نطرق الأبواب، ونطلب الموت مثلما فعل الآخرون. تدور المحاكمة حول نفسها دون أن تتقدم. وبعد توقف لعدة أيام، تم استئناف استجواب "موتن" من جديد.

وقريبا سيحل الدور عليّ، ويسير قطار الحركة شهورا أخرى.

شهورٌ.

ووطنى الشقى يتمزق من بعيد ...

الإثنين ١٢ من فبراير.

بدأ استجوابى هذا الصباح .

الثلاثاء ١٣ من فبراير.

انتهى الاستجواب.

تكلمت يا جانين من أجلك، ومن أجل طفلينا، من أجل اسمى، ومن أجل أصدقائنا. وأنا الآن لا أبالى حقيقة بما سيؤول إليه مصيرى. وأنا على وعى بأن الواجب الذى أديته يكاد يكون واجبا مدرسيا. إنه تجربة، اختبار شفوى أمام قضاة

من نوع جديد. شعرت في بعض اللحظات أنني نسيت كل شيء خارج الدور الذى رسمته لنفسي. وبدا لى أن كل شيء طبيعي؛ موقعي هنا، وهؤلاء القضاة ، وهؤلاء الذين يوجهون لى الاتهام. وفي لحظات أخرى كنت على العكس، كنت أغوص تماما داخل ذاتي، فحتى يدىّ اللتان أُشير بهما، وصوتى الذى يخرج منى، كل ذلك لا يبدو لى واقعا ولا معقولا. واستطعت أخيرا أثناء عودتي في سيارة الترحيلات، محاطا ومعززا برفقائي التعساء أن أحدد النقاط الرئيسية لشهادتي.

وتذكرت هذا المساء بعض العبارات التى قلتها: "إنَّ البراءة سيدى الرئيس لا يقام بشأنها دعوى، ولا يكون لها ملف قضية، وهي تكتفي بأن تؤكد ذاتها، وأن تقول ما لا يدخل في مفهومها"، "قلت وكررت في التحقيقات أننى لم أفهم الكلمة الأولى التى جاءت في صحيفة الاتهام الموجهة ضدى، وبناء على ذلك، فإننى أترافع من بداية الأمر إلى نهايته على أساس عدم الإقرار بالإدانة"، "كيف يمكن أن أقترف أعمالا لا تليق بى، فى مقابل الحفاوة التى قوبلت بها فى هذه البلاد. وهى أيضا أعمال لا تليق ببلادى الحبيبة ولا بالجامعة التى أنا أحد أبنائها؟..."، "وأقسم بشرفي الذى لم أفرط فيه أنَّ الحكومة الفرنسية لم تطلب منى شيئا على الإطلاق سوى أن أؤدى مهمتى الثقافية ..." وهنالك تفاصيل مضحكة أيضا، فقد قلت: "لا، لن أعبر عن نفسى بالعربية، فإن أحدا لم يعطنى الوقت لممارستها إلا فيما ندر..."، " لماذا أضعت الفرصة؟ لأنهم أوقفونى قبل استثمارها بالطبع!..."، وفى لحظة من اللحظات نفسها، كاد ينفرط عقد الكلام إذ قلت: "ضع نفسك، سيدى الرئيس مكانى ! وهذا ما تصورت أننى أتطلع إلى قوله: "لو كانت لدى فرصة من الحرية أطول، ولو كان لقاؤنا مصادفة أو استجابة لدعوة، فربما كنا قد صرنا صديقين، وكنت ستعرف وقتها، سيدى الرئيس أن كل ما نسب إلىّ لا معنى له، وكونى هنا يشكل مسرحية مفزعة ".

ومع ذلك فقد بقى شيء استغلق على فهمى دائما: فلو أن هذه القضية قائمة على مسرحية خالصة، هل كانوا سيدعوننى أعبر عن نفسى بكل حرية؟ إذن... إذن فهم يعتقدون أننى متهم؟ ولكن بأىٍّ شيء يا إلهى؟ اعترافات انتزعت بالقوة من آخرين بوسائل أعرفها جيدا؟ منشورات لم أرها إطلاقا، وأعلنت أنها لا تليق بعقليتى

ولا بقلمى، ثم ينسبونها إلىّ، لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟، لماذا لم يجروا أى تحقيق مع العاملين فى بيتى وفى مكتبى، ومع أصدقائى ومعارفى؟ لماذا لا يوجد أى شاهد ؟ هل كانوا يعتقدون فى إدانتى منذ البداية ، هل هم وقعوا الآن فى شركهم الذى نصبوه لى؟ ولكن من أين؟ ولدت لديهم هذه البداية وهذا الشك؟ لماذا لم يقولوا أى شىء، ولم يقدموا لى أىّ دليل يوضح من أين جاءتهم هذه الشكوك؟ هل هو انتقام؟ نوايا سيئة؟ لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟.

الأربعاء ١٤ من فبراير.

فى نحو الثامنة مساء انتابتنى دهشة كبيرة حينما فُتح الباب، وجاءوا حاملين إلىّ معهم غلاية صغيرة للشاى. تصورت أن ثمة أمرا مريبا. لماذا يقدمون إلىّ شايا وهو أمر خارج عن برنامجنا اليومى المألوف فى اليوم التالى لشهادتى فى المحكمة؟ إنه الخوف دائما الذى يتبادر إلى مع أقل حدث يقدم لنا جزءا من الحياة التى نفتقدها. ماذا لو كانوا منزعجين من شهادتى، ومن التواصل الإنسانى بينى وبين قضاتى؟ ترى هل سيأتى الآخرون أعنى رجال المخابرات العامة كى يصطحبونى فى جوف الليل تحت غطاء الصمت، ويعيدونى إلى قبضتهم ؟ حاولت عبثا أن أقدم لنفسى حججا وجيهة تبدد مخاوفى، فلم أجد إلا القليل منها. ومع ذلك، فإن الخوف اجتاحنى والوهن والخوف الجسدى القاسى الذى كنت على وشك أن أنساه.

تجرعت الشاى على رشفات متباعدة جدا، وعلى ما يبدو لم يكن مخدرا. ولكن على الرغم من ذلك فلم أغمض عينىّ طوال الليل. والواقع أنَّ الأرق قد أصبح عادة لى.

وخلال أرقى دار تفكيرى حول نفسى دون شك فى هذه الليلة، ولكنه دار على نحو خاص حول هذين السجينين اللذين قابلتهما مرارا خلال النزهة بملابسهما البيضاء، ورأيت منذ عدة أيام أنهما ارتديا ملابس حمراء. لقد رفض طلبهما الأخير لإيقاف تنفيذ الحكم، وكان هذا أملهما الأخير فى الحياة التى ولَّت. واكتسبا صفة المحكوم

عليهم بالإعدام كما تدل عليها ملابسهما. تبدلت نظراتهما وغدا مستسلمين للأمر الذى لا مفر منه. الموت فعلا ، أنفاس الشجاعة الأخيرة ، فأمامهما يوم آخر ومع ذلك فمظهرهما الخارجي كما هو، فهما يبتسمان، وفى المساء أو خلال النهار ينضمان إلى جلسات المرح العام التى يتميز بها ركن المحكوم عليهم بالإعدام. هل هى الرغبة فى الحياة التى بدأت فى الانسحاب فى صيحات المرح أو الرغبة فى ألا يتغير شىءٌ فى تفكير الإنسان مادام حيا؟

يا إلهى، إننى أتضرع إليك أن تأخذهما إلى رحمتك المقدسة. إنى أخجل من سعادتى اليوم. أما هما فكل صباح يستيقظان وفى رأسيهما تساؤل: هل سيأتى اليوم مَنْ يخبرنا بأن تنفيذ الحكم سيكون غدا؟ ومع ذلك فإنهما سيقضيان يومهما الأخير مثل الآخرين. وسيتعامل معهما الحراس بدرجة ملحوظة من اللطف. وسيمر يومهما فى الفناء نفسه، وتحت سماء الشتاء العابسة. وسيحل الليل، وفى المساء سيفعلان كما فعل سابقوهما فى زنزانة الطابق الأرضى، ويمزحان مع الحارسين اللذين قيِّد معصم كلَ واحد منهما إليه. ومن وقت لآخر يمنحانهما فرصة للتدخين. وسيتوجهان بالرجاء إلى زملائهما الأسعد حظًا منهما، ممن لم يحكم عليهم بالإعدام أو ممن سيحين عليهم الدور بعدهما، أن يدعوا لهما، وأن يتذكروا ذكرياتهم الحسنة معهما. وعندما يبزغ الفجر، سيدركان أنه لم يعد أمامهما فى الحياة إلا ثلاث ساعات تقريبا. وستدور عجلة الأحداث: منفذو الحكم والحراس، والمصورون. تنتهى الساعات الأخيرة ثم تقترب الدقائق. ينزلان درجات السلم، يدلفان إلى حجرة التنفيذ فى الطابق الأرضى، ثم ينطقان بالكلمات الأخيرة، ويدفع باب الزنزانة، ويصعدان فوق البئر، يهبطان نحو الموت .

حوالي ٢٠ من فبراير.

لم أعد أنام. فالنعاس ليس إلا طائرا نادراً ملَّ من زيارتى. ومع ذلك فإننى عندما أضع رأسى فى المساء على الوسادة يأتينى النوم سريعا. ثم يبدو لى أن شيئا ما

حدث، وأنّ رفيفا خفيفا لأجنحة يدور حولى. ودون شك لا أكون شديد الإجهاد الجسدى، كما تكون الأعصاب متيقظة. وتتتابنى أحلام متباينة، ولا يلبث أكثرها غرابة أن يهاجمنى. فأستيقظ وأنظر للساعة، وأجد أننى قد غفوت نحو عشر، خمس عشرة، عشرين دقيقة. وأظل على هذه الحالة من النوم المتقطع حتى أبلغ الواحدة أو الثانية صباحا. وأنا مقتنع الآن بالرغم من شد زملائى لأزرى عندما نلتقى فى جلسة المحاكمة، أننى إذا استمر الحال على هذا النحو عدة شهور أخرى فسأفقد عقلى. الرحمة يا إلهى! أتحمل كما طلبت منك مرارا أى شىء إلا أن أعود إلى موطنى منقوصًا هزيلا، خاملا، معتوها، مذعورا. وماذا أعرف أيضا من مخاوف أخرى؟، لقد جربت الآن كل شىء : الامتناع عن الطعام والإقبال عليه ، تناول الأدوية والامتناع عنها، التوقف عن شرب الشاى، التوقف عن القراءة، الإفراط فى القراءة لوقت متأخر، العمل دون توقف، استئناف الاهتمام بالرياضيات، إلزام نفسى بدراسة العربية، أوعلى العكس، التباطؤ فى دراستها...، وكل ذلك دون جدوى. لقد قطعت هذه الجلسات اللانهائية، الإيقاع الذى وجدته لنفسى. وقطعت معه تعقلى وهدوئى، واجتاحتنا جميعا هذه القضية. وأيًا كان ما نفعله فإننا عندما نلتقى لا نتحدث إلا عنها. وفى الليل لا نفكر فى ساعات أرقنا وسهادنا إلا فيما كان ينبغى أن يقال، وما يجب أن يقال إذا واتتنا الفرصة مرة أخرى...

وبعد عدة أيام سينتهى شهر فبراير ويحل شهر مارس، وسيكون قد مضى بالضبط سبعة وتسعون يوما على حرمانى من حريتى. وبهذا سأكون قد تجاوزت باثنى عشر يوما المدة التى قضاها سلفى فى الزنزانة من قبلى و حفر عدد أيامها على جدرانها.

الخميس.

منذ فترة قليلة أصبح يوزع علينا الشاى، ويتولى المهمة شاب رقيق مميز مهذب. وقد اعترف يوما أمام أحد رؤسائه أنه أدين بمحاولة التحرش الجنسى بأخته، وكانت هذه جريمته الأولى. وفى المقابل، فإن حلاقنا الجديد نحيفٌ خشنٌ، فهو يتولى التعامل مع اللحى التى لم تحلق لعدة أيام بسرعة مريعة دون تفريق بين اللحى، هو رجل ماهر بالتأكيد، ولكن يا لها من يد تلك التى يحملها! وفضلا عن ذلك (إذا جرؤت على القول) فإنّ يده ينقصها أصبع! أعطيت أحد غليونى لمحكوم عليه بالإعدام ليخفف من وطأة أيامه الحزينة. وقد نجحت بالتواطؤ مع أحد الحراس أن أمرر إليه من وقت لآخر التبغ الضرورى.

نحو نهاية فبراير.

يوم رائع، عاد القس لزيارتنا، واستطاع كلٌّ منا بدوره أن يتحدث إليه طويلا فى زنزانته. وهو يأمل أن يتمكن من زيارتنا كل أسبوع بدءا من الآن. يبدو أنّ الرأى العام قد بدأ يهدأ فى الخارج، وأنّ نهاية حرب الجزائر أصبحت قريبة. أحاول أن أحصر تفكيرى فى هذا الأمر فقط، وفى ضحايا البلدين الذين سقطوا من الجانبين. ومع ذلك لا أعتقد أن نهاية هذه المأساة يمكن أن تؤثر هنا فى مجرى قضيتنا البائسة الصغيرة لتعرف بلادى التعايش السلمى على الأقل مع البلد الشقيق فى حوض البحر المتوسط الذى نحبه! وعلى الرغم من جهودى التى أبذلها لأستقر كى أجد لونا من التوازن، فإن حالتى المعنوية دائما فى هبوط مطرد مع حالة الأرق التى تمر بى . وفى غير أيام المحاكمة وحضور الجلسات أرتدى الآن "الجينز" الأزرق وسترة زرقاء ذات ياقة مستديرة، كنت قد طلبتها من السويسريين، وأحاول أن أمشى بأكبر سرعة ممكنة، ولأطول وقت ممكن خلال العشر دقائق لساعات النزهة، أو أحاول أن أمارس لعبة كرة القدم مع الحصى الذى أجده فى الفناء. وفى غياب متعتى الخاصة أحقق بذلك متعة المشاهدة للحارس الذى يقف فى برج مراقبته.

نهاية فبراير.

أن أتلافى الهزال، أصبح هذا الأمر هاجسًا يلازمنى. وكان علىّ فى هذه الليلة أن أنهض، وأمشى، وأدخن، وأقرأ قليلا حتى أكسر الدائرة. وعملا بنصائح " موتن " سأبدأ فى تناول فيتامين B12 وفيتامين C معا. فلا يجب الاعتماد على طبيب السجن إلا فيما ندر. وهو رجل بشوش مرح، يحكى الطرائف، وهو غير مبال.

ووفقا لقواعد السجن منذ اليوم الأول لقدومنا، فإن ثمة هدوءا مدهشا للأشياء، هل سينتهى الأمر بعد عدة أشهر – إذا وضعنا فى الاعتبار إيقاع إجراءات القضية المذهل وملابساتها فضلا عن مخاوفى – إلى ارتداء الزى الأخضر أو الانتقال إلى مكان ما فى سجن الواحات حيث نقضى حكم الأشغال الشاقة ؟ ومما يعزى به هناك أن المرء يستطيع – فيما يبدو – اختيار العمل الذى سيقوم به. وبالنسبة لى فسوف أختار أعمال الحفر مما يتيح لى أن أتحرك وأتحرك تحت أشعة الشمس.

فى أحد الأيام أثناء انعقاد جلسات القضية، وعندما كنت خلف القضبان قريبا من موضع جلوس هيئة النيابة، ابتسم لى أحد نواب النائب العام، يا له من أمر غريب، فقد كان يمكننا أن نصبح يوما صديقين لو لم يكن يحمل بداخله هذا الشك تجاهى، وإذا لم أكن أحمل أنا داخلى هذه الصدمة تجاههم .

حوالى ١٠ من مارس.

تطايرت أيام شهر فبراير، وبدأت أيام شهر مارس، وقريبا سينتهى شهر رمضان. وآمل أن تنتهى معه فترة الاضطرابات فى سير الأمور التى لسنا فى حاجة إليها. فجلسات المحاكمة قليلة، وفترات النزهة غير مؤكدة فى الأيام التى تخلو من الذهاب إلى المحكمة. ولم يكن نظام منع المقابلات بين المسجونين أكثر ثقلا مما هو عليه هذه الأيام.

وعلى الرغم من ذلك، فهناك تحسن فى بعض الأمور. فبفضل تناول فيتامين B12، استطعت أن أنام نوما متصلا ساعتين أو ثلاث ساعات فى الليل. وارتفعت معنوياتى قليلا، واتبعت نظاما جديدا فى العمل: أربع أو خمس ساعات لدراسة اللغة العربية، وقدر أقل من القراءة، وهناك تحسن متأرجح فى كل الأمور، ومزيد من الرياضيات، وبعض التمرينات البدنية فى المساء.

وفكرت فى التخلص من هذا المصباح الكهربائى المزعج ! ففى المساء استطعت أن أمدُّ ذراعى العارية بين قضبان الكوة فوق الباب، وأصل إلى موصل التيار المثبت فى الخارج ، وأقطع التيار. ولكن هناك دائما حارس شديد الدقة يعيد التيار أثناء الليل. وفى النهاية أذعنت للأمر بعد عدة محاولات للنوم المتقطع، والاستيقاظ الفزع حين يهاجمنى الضوء بغتة. تلقيت أخيرا أوراقا وقلما، واستطعت أن أكتب إليك حبيبتى .

١٢ من مارس.

استمر هدوء المناخ المحيط، ولم تعد الصحف تخصص للقضية إلا حيزا محدودا على صفحاتها. لقد انتصرنا! وولًى زمن الأرز والفول والجبن! تأتينا الآن الوجبات من أحد مطاعم المدينة ، وهو طعام ملائم وكاف، ونتحلق حوله فرحين.

القطة على وشك أن تلد قريبا، فهى لا تتوقف عن الأنين طوال الليل، وتتحرك من زاوية إلى أخرى فى البهو.

معنوياتى مستقرة وحالة النوم كذلك .

١٥ من مارس.

هذا هو خطابى الثانى يا حبيبتى، ولم أعد أعرف ماذا أقول لك، خاصة عندما أتصور الأيدى التى سيتقلب بينها هذا الخطاب قبل الوصول إليك. أما خطاباتك التى تصلنى من خلال المحامين والسويسريين فهى شديدة الثراء والتنوع! فنحن نلجأ دون أن نفصح عن ذلك إلى مخزون ذكرياتنا المشتركة.

سمح لى أخيرا أن أتلقى زجاجة عطر صغيرة، ويعد هذا أيضا نوعا من ميلاد حياة جديدة أو الانفراج.

فلم أعد حزينا، بل على العكس، لقد أوشكت أن أتوافق مع مصيرى، وكدت أصير طبيعيا تماما، صبورا غيرَ متوتر. لقد وجدت الطريق إلى النوم الطبيعى، فقد حددت لتنظيم ذلك أيضا برنامجا جيدا: فسوف أتناول عقارا منوما ليلة واحدة فى الأسبوع، فربما إذا اتبعت جرعات صغيرة أستطيع التوافق مع النوم؟ ويطمئننى " ماتى " بأن الإنسان وخاصة فى مثل عمرى لا يفقد عقله بهذه السهولة ، وأنه يمكن الحياة بعد عبور مثل هذا الاضطراب ، شهورا وسنوات مع قليل من النوم. فمنذ عدة أيام، وفى الطريق إلى المحكمة كنت على حافة البكاء، ولم نكن نفكر إلا فى هذا الأمر، وأحاط "ماتى" كتفى بذراعه، وطمأننى فى حنان أبوى ضافٍ، وقد أراحنى ذلك، وجعل حالتى أفضل.

حرب الجزائر على وشك الانتهاء، وابن عمى ذهب هناك ليموت. وكثيرون آخرون انضموا إلى موكب الموتى، وكذلك الأسرى .

الجمعة .

وضعت القطة صغارها. وقد وضعها الحراس وصغارها الخمسة فى صندوق بالقرب من دورة المياه. ويتولد لدىَّ إعجاب بهذا العالم الذى يقبل على الحياة، ويموء ، يلتهم ما يقدم له بشهية. وخمنت أن يكون لرفيقى، فى المساء، القط السمين الأصهب صلة بما حدث من خلال تشابه لون اثنين من الصغار مع لونه. يتولى الحلاقة لنا الآن حلاق من خارج السجن ، كما أن هناك شكلا آخر من ميلاد الحياة الجديدة: فأدوات الحلاقة أصبحت نظيفة، والماكينة صارت جيدة، وثمة رجل يرتدى ملابس مدنية ينحنى على وجهى .

السبت.

منذ عدة أيام وأنا أحاول أن أكتب قصيدة، أتحدث فيها عن بعض القرى في إقليمي الريفي لانجدوك. ولا يعنيني ما قد يرد على ذهن غيري من أفكار في مثل هذا الموقف. فحينما أقرؤها وأعيد قراءتها أرى أمامي الصخور والأشجار ماثلة في قريتي، ويفوح من حولها رائحة الزعتر والخزامي:

"في ذاكرة الصباح، تتجلّى القرية عندما تميد الأرضُ تحت أقدامنا الثابتة، وتنقلب معها هذه القبة الكبيرة المغطاة بأشجار البلوط والزعتر.

يتوارى الأفق ليجلب لضوء النهار الجلي فوق قمته بين السهل الظليل، والتلال الناهضة،

السفن الكبيرة المحملة بالزيتون والفلين التي تداعب أثناء عبورها في الفجر الناعس وجه الهواء المتمرد الزائل.

يا حورية ضفاف النهر التي تطاردها النسائم،، فتنزلق تحت قبلات الزعتر والخُزامى ، كان ينبغي أن تتغنى هنا انطلاقا من الكهف الذي ولدت فيه باسمك الساحر "فونتاني"، وأن تهبي الحياة لكل سكان الينابيع المنتشرين حولكِ لنصرتكِ، وهم منذ زمن طويل لم يغلقوا أعينهم .

أيتها القرية، حتى رايتك تُعد رمزا للكنوز مثل أمريكا الجديدة، لقد سُميتِ أرض الفلين والعطور، هذه الأضواء التي تغمرك وحدك في ليالي الخُزامى، أرضك الخيرة وأكاليل الزهور التي تتلألأ منابعها وتتقدم تحت قدميك.

والمصنع القديم الذي لم يعد له وجود، والذي كان غريبا بين أشجار الكروم، تحفه أسوار من الأشجار الجدباء، ولم يبق سوى بيت الحارس المزين ببرج معدني يشبه بقايا بناء قديم، وثلاثة سلالم تتصاعد في السماء. وبينما يبقى اسمك حيث ملتقى الجبال وعبورها، فإنك يا قرية بويشابون لم تعودي ترعين إلا أراضيَ ظمأى، وعندما نضرب صفحا عن النافورات، فإنك لم تستطيعي حتى أن تروضي المياه الرعناء سريعة الزوال مثل الأمطار.

وهناك بعيدا نحو الشمال فوق سهل "مونكلمى" أصبح الجدار الذى كان يميز مجالك وحدودك فى كثافة جذوع الأشجار التى غدت متوحشة، يشكل عقبة كأداء تحت خطوات الصيادين، والمضيق الذى يكتظ بالمسطحات الناعمة القشور يمنح الأسرار أسماءها.

الأحد.

وهكذا توفى معلمى، فهو الذى شجعنى أن أكرس نفسى لدراسة العالم العربى. توفى في الثانى والعشرين من نوفمبر دون أن يعلم بأمر اعتقالى، وبخيبة أمله التى تتساوى تماما مع خيبة أملى. ليونيل باتيون Lionel Bataillon كنت ألقاه فى المدرسة التأهيلية لمدرسة المعلمين العليا، أيا معلمى، الجليل يقع بيتك على أطراف المدينة، وتظلله أشجار الصنوبر من كل جانب ... هل تذكر آخر نزهة لنا معا عبر الطرق الغائرة بين هذه الصخور التى نحبها؟ كان ذلك فى الخريف، فى النهايات، فى المستشفى أثناء علاجك هناك، ووجه المرضة الذى أطلقت أنت عليه ملاك الموت ، والذى أخبرنى أننى لن أراك العام القادم، وخطابك الأخير، ثم خطابى إليك الذى قلت لك فيه إننى سأركب الطائرة وأعود لأراك. ولكن حال دون رؤيتك هذا الحمق الذى أحاطونى به. ووقعنا ضحية جنون الاعتقاد فى إمكانية التواصل معهم. وعلى الرغم من ذلك، فلو أنك كنت ما تزال معنا فى هذا العالم، لكنت ستقول لى وأنا على يقين من ذلك : ثابر. إننى مدينٌ لكِ أيتها الروح المسكينة التى غدت سرًا الآن. وأنا محصورٌ داخل كلمات اليأس الأخيرة التى تأتى إلىَّ من مونبليه. أنا الذى لم أتلق كلماتك الأخيرة، أتصورك الآن على الرغم منى فى أنفاسك الأخيرة داخل منزلك الجميل، وأنت لا تفتأ تردد اسمى، ولكنك كنت وحيدا فى كل مرة فى عذابك. وأسفاه ! أولا، لأننى، فى كل مرة، كنت أطارد ذكراك فى مخيلتى، واليوم أحس أن ذلك أراحنى كثيرا، ولأن صورة التلميذ الذى اعتقدت أنه سعيد، لم تستطع أن تواسيك إلا من خلال ذكريات الأيام التى قضيناها معا، وليس من خلال وحدة مآسينا.

اليوم كادت تشملنى الطمأنينة. فالأرواح العادلة لا تموت، وسأراك ثانيا فى فونفرواد، وفى سان جيوم، أو فى مينرف، فى أحد هذه الوديان المغلقة التى انعشنا فيها فرحتنا بالحياة، ويا للمساكين الحمقى الذين يرفضون التحالف، فاليوم أبقى وحيدا مع الحمق، مع الموت والجنون.

الإثنين ١٩ من مارس.

توقيع اتفاقية إيفيان [١].

الثلاثاء ٢٠ من مارس.

لم يرفعوا عنا حظر اللقاءات مع الرفقاء فى السجن على الرغم من خطوات المحامين، ومع ذلك فقد خُففت قيوده قليلا. إذ يمكننا الحديث الآن بحرية فى أيام جلسات المحاكمة لحظة خروجنا من الزنازين

وفى المحكمة، رغم سرعة انفعال النائب العام وسرعة غضبه، وحتى لو ظلوا ينظرون إلينا على أننا جواسيس، فإنّ لدينا إحساسا بالطمأنينة لأنهم لم يعودوا يستطيعون توجيه تهم إلينا باعتبارنا فرنسيين .

فقد "موتن" خاتم زواجه، وبالرغم من أنه استبعد كل مشاعر التطير والتشاؤم، فإن معنوياته تعرضت لانخفاض شديد. كما أن نظام حظر اللقاءات الذى يطبق عليه فور عودتنا إلى زنازيننا بعد جلسات المحاكمة قد أصبح بالنسبة له أمرا لا يمكن التسامح فيه. ويبدو أن الكيل قد فاض بالنسبة له بصورة ملحوظة. وقد قررنا أن ندخل

---

(١) وقعت اتفاقية إيفيان فى ١٨ من مارس ١٩٦٢ ونصت على وقف إطلاق النار بين ممثلى جبهة التحرير الوطنى الجزائرية، وفرنسا بعد سبع سنوات ونصف من حرب التحرير، ومهدت لاستقلال الجزائر صيف العام ذاته، وقد وقعت الاتفاقية فى مدينة إيفيان على بحيرة ليمان جنوب شرق فرنسا (المترجمة).

فى إضراب عن الطعام إذا لم تنته السلطات المصرية إلى تعليق نظام حظر اللقاءات المفروض علينا.

عاد المصباح الكهربائى إلى التعطل مرة أخرى. فقضيت ليلة هادئة مع الظلام، ومع ضوضاء المدينة. هدوء تام بين الثانية والخامسة صباحا، ثم تأتى شيئا فشيئا أصوات آذان الفجر، ونهيق الحمير، وصخب عربات الكارو وأجراسها.

الأربعاء.

رفع حظر اللقاءات! نستطيع أن نتقابل، وأن نتكلم، وأن نذهب إلى النزهة معا. ولا أصبح وحيدا إلا بدءا من الرابعة مساء، وحينئذ تكاد تكتسب الوحدة سحرا، وأعود وحيدا مرة أخرى؛ لأعمل ولأقرأ...

ولكن هناك بعض النقاط السوداء: فقد اختفى الحلاق المدنى، ويتولى الحلاقة لنا أحد الحراس. وهو لطيف بالتأكيد. عدنا مرة أخرى إلى الاستخدام الجماعى لأدوات الحلاقة ذاتها.

لم نعد نر القس منذ زيارته الثانية لنا، ويبدو أن نظام الزيارة الأسبوعية كان مثيرا للارتياب. وهل يثير اجتماع المسلمين كل جمعة للصلاة الريبة نفسها! هل سنتمكن يوما من كسر دائرة الشك المخيفة؟

الخميس.

استثمرنا حالة الحرية فى التحدث معا. فنحن لا نتوقف عن الحديث معا فى موضوعات متنوعة من الثامنة صباحا حتى الرابعة مساء.

عدت إلى قراءة كتاب "الحلقات السوداء". حالة النوم كما هى. وقد أسهمت اللقاءات مع الرفقاء والحديث معهم شيئا فشيئا فى نسيان مخاوفى. فها أنااذا أتكلم كما يتكلم الآخرون، ولست معتوها كما كنت أتصور، وبدأت أضحك من نفسى.

رأيت خلال نزهة الصباح مسنًا، مسنًا جدا، نحيلا، يجرجر وراءه بدون وعى أجزاء جسده، جزءا جزءا، وعندما سأل "بليفيه" الحارس عنه، أجاب: "إنه على وشك الموت...".

الجمعة.

تم حلق رءوس المحكوم عليهم بالإعدام عقابا لهم على مشاجرة جرت بينهم، وعلى سبِّهم للحراس وفق ما قالوه لنا.

مرَّ علينا عيد الفصح حزينا، فهو يومٌ بلا جلسات محاكمة، وبلا نزهة. تجولنا ونحن عابسون فى أنحاء البهو. استنفدنا الفرحة الأولى لنظام اللقاءات الجماعية، ووقعت مرة أخرى فى الضعف والوهن. الاستجوابات على وشك الانتهاء. ومارس على وشك النهاية أيضا.

ونحن على مشارف إبريل حيث تشهد بلادى الشمس والورود .

٢٧ من مارس.

أصبح لدينا إدارة جديدة. وهى ظاهرة طبيعية فى المؤسسات العسكرية، ولكن التعليمات تبقى كما هى، وعلينا أن نجاهد للحفاظ على المكاسب التى حصلنا عليها. " فماتى" بمساندة " بليفيه " هما اللذان يتوليان دائما الاحتجاج لدى الإدارة.

حصلت على بعض الألعاب، لعبة الشطرنج والبريدج. فى المساء عندما أعود إلى زنزانتى ألعب وحيدا لساعات طويلة، وأبتكر كلمات متقاطعة.

قدمنا احتجاجا ضد الرائحة الكريهة غير المحتملة الصاعدة من الطابق الأرضى. وتبين أنها رائحة جبن متعفن فى المخازن الكائنة بالجانب الغربى من السجن. وعلى مدار يوم بأكمله، رأينا صفوفا من السجناء يحملون علبا حديدية كبيرة بيضاء متعفنة ويلقون بها بالخارج.

عكفت وقتا طويلا على قراءة كتاب للقديس يوحنا الدمشقى الذى تعرض للاتهام والافتراء عليه. يقول كتاب الحكمة: "إنَّ الربَّ يقود عبده نحو الطريق المستقيم، وهو يريه مملكة الله. ويمنحه الإحساس بالحقائق المقدسة، ويعوضه عن ألمه، ويجعل معاناته مثمرة. وعندما يحاط بالظالمين الماكرين، يكون الرب قريبا منه وينصره، فهو يحفظه من أعدائه، ويحميه من مكائدهم، وفى المواقف العسيرة يمنحه الرب الفرصة للانتصار ليعلمه أنَّ الإيمان أقوى من كل شىء. وعندما يقع المرء أسيرا، لا يتخلى عنه الرب، وإنما يصونه ويحميه من الأشرار، ويهبط معه إلى قبو سجنه ولا ينساه فى محبسه".

السبت ٣١ من مارس.

قمنا باحتجاجات عنيفة ضد تصرفات الإدارة الجديدة التى كانت قد شرعت فى تفتيشنا فور عودتنا من جلسة المحاكمة. وقد تراجعوا عن ذلك فى النهاية.

برئت من النزلة الشعبية التى أصابتنى، جاء الطبيب إلىّ أمس الأول، وأخرج من جيبه مقياسا للحرارة ووضعه فى فمى، وأمر بإعطائى حقن البنسلين. كنت قد أصبت بنزلة برد دون أن ألازم الفراش رغم أننى كنت أرتجف.

حصلت من المحامى على الأعمال الكاملة لتوفيق الحكيم ومعها مسرحية "أهل الكهف"، ورواية "يوميات نائب فى الأرياف". أعرت بعض الكتب إلى رفقاء مصريين فى الزنازين المقابلة ، وإلى حارس يبدو شديد الثقافة. وأصبحت علاقتنا مع الإدارة الجديدة ودية على الرغم من التوتر الذى حدث إثر محاولة التفتيش. أما الحراس فقد غدوا من الآن فصاعدا " أصدقاء ". ورئيس الحرس نفسه الذى كان صارما فى تنفيذ الأوامر أصبح الآن أكثر هدوءا واسترخاء، وصرنا نتبادل موضوعات عادية حول صحة أسر كلٍّ منَّا، وحول القضية .

غدا يحل شهر إبريل. ولكن هذا الشهر – مارس – ينتهى بأمرٍ مشجِّع: ففى يوم السبت من الأسبوع الثالث قرأت "سوزان العفيفة" ومن الكتاب المقدس "المرأة الفاجرة".... البراءة والعفو .

يوم من الأيام.

يوم من بين أيام أخرى لمن سيبقى على قيد الحياة. ولكن بالنسبة لمن سينفذ فيهم حكم الإعدام هذا الصباح، فهو يومُ الأيام. وبما أنهم قد أعلنوا مساء أمس قبل إغلاق الزنازين عن تنفيذ حكم الإعدام فى ثلاثة مساجين، فقد طلبت من الحراس بأن يحملوا بعض الكعك والسجائر لهؤلاء الثلاثة سيئ الحظ. تعانقنا وكنت أعرفهم جيدا لأننى كنت قد التقيت بهم مرات عديدة أثناء نزهة الصباح، وقد مزق قلبى كثيرا رؤية أصغرهم سنا، وهو الذى كان مفعما بالمرح والحيوية أثناء نزهاته فى الفناء. ارتسمت الابتسامة على وجوه الثلاثة، وصافحونى ، وقد نجحت فى أن أفهم من عاميتهم المصرية التى التقطتها بصعوبة أنَّ مصيرهم الآن لم يعد مهما، وأنه يجب علىَّ أن أفكر فى نفسى دون أن أفرط فى جوهر قضيتى، ودون أن أيأس. عانقتهم للمرة الأخيرة، وقد تجمدت الكلمات فى حلقى، وعدت إلى زنزانتى.

استيقظت هذا الصباح حينما لاح ضوء النهار. وعندما بلغ الصمت ذروته فيما بعد، وبينما اعتقدت أننى منهكٌ بسبب هؤلاء الذين سيلقون اليوم حتفهم. أخذت أصلى من أجلهم، وغمرنى التفكير فى أمرهم، وألصقت عينى بثقب الباب الضيق. وفى الأسفل بجانب باب زنزانة المحكوم عليهم بالإعدام كان هناك رجل يرتدى سروالا وسترة يجللها السواد الخالص. ولم يكن الأمر فى حاجة إلى التفكير لمعرفة مَنْ هو .

تمتد أرضية الردهة الموجودة فى مواجهة باب زنزانتى طويلا للأمام، ولذا فإننى لا أستطيع أن أتبين إلا الأجزاء العليا من الأجساد. وعلى اليسار تتوقف القدرة عن الرؤية بسبب ممر العودة العمودى للبهو. وكذلك فإننى لا أرى من الباب المرعب سوى الثلثين الأعليين للجانب الأيمن. ومع ذلك فإن هذه اللقطات كانت كافية. ران الصمت! وأخيرا دوى فلاشات الكاميرا، والعبارات المألوفة بين شكرٍ للحراس، وطلبٍ للعفو!. ثم رأيت رجلا من ظهره يعبر أمام الباب بخطى صارمة ، وما رأيته منه هو الجانب الأيمن من الرأس والكتف، وأعلى الفخذ، والذراع، وطريقة خطوه يشير إلى صرامته.

ركعت على ركبتى فى وسط الزنزانة، وانخرطت فى نشيج متصل. يا إلهى، فى هذه اللحظة نفسها يرتدون الأقنعة على وجوههم، وتسقط الأقدام فى البئر. الآن فى ساعة موتنا، لا ليست ساعة ولكنها ثانية، حتى إنها ليست ثانية إنها ومضة تحز فى صدرى وتمزقه، وتجعله يصرخ فى بكائه المتصل. إنها حياة الإنسان... فى هذه الدقيقة نفسها... يا إلهى... رحمتك يا إلهى. فى هذا اللحظة... لا... لقد ماتوا بالفعل... دقت فقرات العنق. عندما تحين ساعة موت البشر تحمل صلوات المحتضرين أملا فى امتداد الحياة ولو قليلا، ولكن هنا وكما ذكرت عند استيقاظى صباحا، يدرك المرء أنه سيموت حتما فى ساعة محددة... وهذا ظلم فادح، وقسوة بالغة. وأنا ما زلت حيا بعد هذه اللحظة – لحظة موتهم – مما يجعلنى أخجل من نفسى لأننى على قيد هذه الحياة. ومع ذلك فإنه بعد هذا التمزق، ما تزال هناك الرغبة فى الهدوء وفى المتعة وفى الإرادة الصارخة فى الحياة. فى أن يكون المرء سعيدا فى الكفاح!

نهضت، وعدت مرة أخرى إلى ثقب الباب. ورأيت الأشياء نفسها فى مجال الرؤية ذاته. ولكن هذه المرة كان محمولا على المحفة، مجردا من ملابسه دون شك. لكن ما استطعت رؤيته كان ذراعا عارية متدلية تتأرجح خارج المحفة، بقدر إيقاع خطى الذين يحملونها.

لم أعد أبكى فهو أحد الموتى الثلاثة، وينبغى علىَّ الآن أن أفكر فى رفيقيه الآخرين التعيسين. وعندما فتحت أبواب الزنازين، اجتاحتنى دهشة كبيرة حين أعلنوا أنه تمَّ تأجيل تنفيذ الحكم على الاثنين الآخرين فى الصباح نفسه.

وقد رأيتهما فيما بعد أثناء النزهة. رأيت الشاب الذى كان أحدهما، ولكنه لم يعد يبتسم. كان متبلدا، حادا، منزعجا، فهو لم يعد من رحلته الطويلة. فى زماننا يمكن للأحياء أن يذهبوا أيضا إلى جهنم.

وحدها غادرت الروح الأخرى التعيسة هذه الجدران. نقص وجه من الوجوه، ثم غمرنا التدفق المفاجئ للحياة مسببا لى جرحا وخجلا سأحمله داخلى دائما.

بعد عدة أيام.

وصلت إلى السجن شبكة جديدة من المتهمين بالتجسس، وهى خليط من أجناس متعددة: يمنى، ويونانى، وصومالى فى رأى البعض ، وإثيوبى فى رأى البعض الآخر. وبدءا من الآن، فنحن الذين نراهم يذهبون، كلٌ مع حارسه مرتين فى اليوم إلى دورة المياه. واستطعنا عدة مرات أن نمرر لهم بعض الكعك والفاكهة.

لم يعد إلينا القس.

زرت الطبيب فى قاعة الضباط الليلية، وهى بجانب حجرة مكتب مأمور السجن. وبما أننى كنت أعانى من متاعب فى الشُعب الهوائية، فقد طلبت أن يرانى طبيبٌ من خارج السجن. كانوا ثلاثة أطباء، فحصنى رئيسهم بعناية. وتحدثت مع مأمور السجن بالعربية الفصحى حول عملى وحول الأدب العربى.

ولا مراء أنه منذ تم توقيع اتفاقية إيفيان، فإن المناخ المحيط قد أصبح ودودا. ويبدو أنَّ بن بيلا على وشك الوصول إلى القاهرة.

أخبرنى "بليفيه" هذا الصباح أن مجنونا كان يصرخ طوال الليل فى زنزانته فى الطابق الأرضى حيث تم عزله فيها. والواقع أننى لم أسمع شيئا وهم أمر مدهش! والحقيقة أنه منذ ليلتين أو ثلاث، وبفضل تناول فيتامين B12، ومع أغطية الأسرة الرائعة التى أحضرها السويسريون صفراء بالنسبة لى، ووردية وزرقاء بالنسبة لرفقائى، وأخيرا مع التجهيزات الجديدة فى زنزانتى، وهى عبارة عن ستارة تحجب الكوة أعلى الباب، والكوة الأخرى مغلقة، وغطاءان ممتدان فوق دعامة السرير العلوية يزيدان من فاعلية الناموسية، ويشكلان قباء مظلما مانعا للضوضاء حيث يتيح لى القدر الضرورى من التنفس مثل القطط عندما تنام، بفضل كل هذه الأمور أمكننى النوم خمس ساعات متصلة.

ثم جاء السويسريون لزيارتى، وقدَّموا إلىَّ باسمك يا "جانين" رابطة عنق ذات ألوان زاهية، وقد فهمت رسالتك. فمنذ وفاة ابن عمى الشاب "هنرى"، أقسمت حينئذ

ألا أرتدى إلا رابطة العنق السوداء ما دامت الحرب قائمة. وكان هذا قرارا عاديا وقتها، نعم، ولكنه أيضا ساذج وانفعالى. وفى خضم قضيتى مع المخابرات، توارى الأمر عن ذهنى. ولكنى اليوم أتأمل مليا شعار السلام الذى أعلن حق الطرفين فى التمسك بالحياة وعدم التفريط فيها.

الجمعة ٦ من إبريل.

حقا ! لقد سمعت المجنون. كان يصرخ حتى الثالثة صباحا، ويدق على باب زنزانته. ترى فى أىٍّ حالة يكون هذا التعيس؟ استطاع المرض بمساعدة أربعة أو خمسة حراس حقنة هذا الصباح. وهو الآن تحت تأثير المخدر، ومقيد فى سترة المجانين، وهو متعب شاحب داخل إحدى زنازين المحكوم عليهم بالإعدام. وهو - بلا شك - أحد هؤلاء البائسين المنتظرين تنفيذ الحكم فى أحد هذه الأيام .

يوم جمعة حزين لم نخرج للنزهة. وتتوالى تصوراتنا الهاذية دون نهاية. غدا تتابع النيابة العامة مرافعتها، وتبقى المرافعات ربما تعيد إثارة إشكالية عدم كفاية الأدلة، مَنْ يدرى؟ هل يحتاج الأمر إلى استجوابات إضافية؟ ما المدة التى ينظر فيها القضاة القضية قبل إصدار الحكم؟ لن نعرف بالتأكيد مصيرنا قبل شهر يونيو أو يوليو.

بدأت حرارة الجو الشديدة. فتقل فترات قراءتى شيئا فشيئا، وأكاد أقتصرها على روايات بلزاك، وبعض الروايات البوليسية... ويبدا "موتن" منتعشا منذ رفع حظر اللقاءات بين المسجونين، وفى صحة جيدة.

غادر "بن بيلا" القاهرة .

السبت ٧ من إبريل.

فى السفارة الفرنسية، منتصف الليل.

يظل هذا اليوم محفورا فى ذاكرتى بحروفٍ من نار! ها أنا حرٌ! ولكن عندما رحلنا كان هناك بعض رفاق الشهور الأربعة يبكون.

ربما نتذكر فى خاتمة المطاف، هذه النهاية غير المتوقعة لقضية كانت بدايتها أيضا غير متوقعة. ففى يوم السبت السابع من إبريل سنة ١٩٦٢ قطعت النيابة سياق قرار الاتهام بطلبها من رئيس الجلسة "باسم" المصلحة العليا تأجيل النظر فى هذه القضية إلى أجل غير مسمًى. بعد عدة دقائق من المداولة، عادت هيئة المحكمة للانعقاد معلنة استجابتها لطلب النيابة، وأضافت أنَّ المتهمين سيطلق سراحهم على الفور. فى المساء نفسه، غادرنا السجن، وانتقلنا إلى المبنى القديم للسفارة الفرنسية الذى يشغله الدبلوماسيون السويسريون المكلفون برعاية المصالح الفرنسية فى مصر أثناء فترة انقطاع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وفرنسا، حيث مُنحت لنا الفرصة بالتعبير للسويسريين عن امتناننا العميق لما لقيناه منهم من كرمٍ وإنسانية ضافية. وفى الصباح الوليد كنا محلقين فوق منطقة "الكورس" التى تغطيها الثلوج. وفى الثامنة صباحا وصلنا مطار أورلى.

٢٤ من نوفمبر إلى ٧ من إبريل: مائة وخمسة وثلاثون يوما.

* * *

ما الذى بقى فى النفس من هذه المغامرة اليوم، وأنا أعيد النظر فى صداقاتى والمراحل التى عبرتها ؟ فالنسيان يعد بالتأكيد قدرة إيجابية للكائن الإنسانى، وليس مجرد استسلام أو تخاذل من الذاكرة. ومع ذلك، فإن ثمة قناعة مؤلمة تظل فى النفس. فإذا لم يكن السلام، وأنا أحد مبعوثيه، مجرد قيمة بلا جدوى، فإنه ينبغى أولا أن يحرر التفس من الخوف، وألا يخضع مبعوثوه لشكوك البوليس.

بالنسبة لى، فليس لدى ما أسامح فيه. فلست إلا بشرا كسائر البشر، ولا أملك أن أتميز عنهم. ويكفى بعد كل ذلك أن جسدى سلم من الأذى، ولم يلحق به ضرر لا يمكن إصلاحه. ولكن يظل هناك من الناحية التاريخية ما يطلق عليه "قضية القاهرة" التى لا أشعر فى حقيقة الأمر أنها موجهةٌ لشخصى، وبالتالى فإن وقائعها ونهايتها تبدو لى أشباحا ووهما. وفى الواقع إن ما يهمنى أكثر من اعتقالى، وسوء معاملتى وسجنى هو الكلام اللاذع الذى وجِّه إلىَّ ، والشكوك التى اتهمونى بها، والتى لا تعنى شيئا سوى اتهامى بأننى أنتمى إلى عالم المعرفة. فأنا عدوٌ للعنف، وللاعتداءات التى ترتكب ضد الإنسان فى أى مكان، وتحت أى مسمى. إنَّ ما أريده لنفسى هو النور.

لقد أردت كما قلت من قبل باعتبارى غربيا، ووريثا للحضارة الأوربية مثل آخرين، ومسيحيا، التعرف على حضارة مختلفة. أردت أن أعمل دون تكبر، أو تعقيد. ولم أخف هدفى فى محاورتى مع المثقفين العرب الذين التقيت بهم. إن الثقافة تعد فى الحقيقة ضرورة قومية بالنسبة للدول النامية، وأنا أعتقد فى صحة هذا المعنى. ولكنها فضلا عن ذلك تعد حاجة دائمة. إنها الإرادة المصممة لمعرفة الآخر؛ لأن الثقة فى النفس تولد من المنفعة التى يجلبها الآخر، ومن هذه الثقة، تولد دورة التواصل المرتقبة. لقد كنت إذن مقتنعا أنه يكفى إقامة حوار حتى يستطيع كل طرف أن يفهم ثقافة الآخر دون أن يتنازل عن أى قيم من ثقافته. فالقدر الذى قادنى أراد أن يحدث ذلك فى منطقة الشرق الأوسط التى أرسلنى إليها رؤسائى فى العمل. كانوا يرونها البؤرة الرئيسية لهذه الحضارة التى كنت أريد الانقطاع إلى دراستها. إن هذا العالم الذى أنجزت حوله أبحاثى هو الذى أداننى اليوم باسم حكومة واحدة من أكثر عواصمه مجدا.

فما دامت الثقة التى كنت أحملها معى والتى طالبت بها الآخر أن يبادلنى إياها، ولم أعامل بمثلها، وهذا يذهب إلى مدى أبعد من مجرد رد الاعتبار الذى أقرته العدالة، وما دام أنه لم يتم التأكيد لى فى أن التوجس بى لم يكن له أساس، وأن الجدار الذى كنت أتحدث إليه قد سقط ، فإننى للأسف لا أعتقد أنه يمكننى التحاور. كما أننى أعزل تماما أمام هؤلاء الذين يعرفون لماذا أتوا بمثل هذه التصرفات ليقبلوا هذا النوع من الحوار الذى ليس لدى أى حجة حياله - كما سبق أن قلت فى المحكمة - سوى براءتى. وإذا حدث، خلافا لعادتى، أن ظللت حبيس نفسى، ولم أستطع تجاه هذه النقطة المؤلمة أن أتواصل مع الآخر، فذلك لأننى ما زلت رهينا داخل سجن هذه التجربة العبثية التى عشت فصولها، ولأن تساؤلاتى الدائرة فى "لماذا؟" التى تتردد ليلا ونهارا ظلت دون إجابات .

إلى هؤلاء الذين لوثوا اسمى، وهو الاسم الذى يحمله أيضًا ولداى، أطالبهم أن يحترموا هذا الاسم، وأن يحترموا تاريخى وكتاباتى. وحينما أسترد كل ما فقد منى وقتها فقط أستطيع بدورى، لا أن أمنح غفرانًا لا أعتقد بجدواه، وإنما أقبل إمكانية التبادل المشترك لقيم يطلق عليها "السلام والكرامة".

المؤلف فى سطور :

أندريه ميكيل :

ولد ميكيل فى جنوب فرنسا سنة ١٩٢٩، وأتم دراسته بمدرسة المعلمين العليا، ودرس العربية على يد بلاشير، وعمل عقب تخرجه فى دمشق وبيروت بالمعهد الفرنسى للدراسات العربية، ثم عمل فى إثيوبيا فترة عامين فى أواسط الخمسينيات، وعندما عاد إلى فرنسا ليعمل فى وزارة الخارجية،. اختير مستشارا ثقافيا لفرنسا فى مصر سنة ١٩٦١ . تولى تدريس الأدب العربى فى الجامعات الفرنسية منذ سنة ١٩٦٨ .

عمل فى جامعة فانسان Vincent، وجامعة السربون الجديدة La Sorbonne Nouvelle، ثم شغل منصب مدير معهد لغات الهند والشرق وشمال إفريقيا وحضاراتها فى جامعة باريس الثالثة قبل أن يُنتخب أستاذا لكرسى الأدب العربى فى الكوليج دى فرانس سنة ١٩٧٥ فى سنة ١٩٨٤ اختير ميكيل مديرا للمكتبة الوطنية فى باريس، وكانت المرة الأولى التى يختار فيها أحد المتخصصين فى الدراسات العربية والإسلامية لهذا المنصب الرفيع. ثم عاد ميكيل سنة ١٩٨٦ إلى الكوليج دى فرانس، واختير سنة ١٩٨٩ رئيسا لها، وواصل خلال هذه الرحلة العلمية عطاءاته المتصلة فى مجال الأدب العربى بترجماته المتخصصة إلى الفرنسية والمقدمة للمثقف العام، أو بإلقائه للمحاضرات فى الجامعات العربية بلغة عربية دقيقة، وبإشرافه على الرسائل العلمية للدارسين العرب فى الجامعات الفرنسية. ومن أهم مؤلفات ميكيل :

١ - الإسلام وحضارته L Islam et sa civilisation، وقد نشر سنة ١٩٦٨، وترجم إلى كثير من اللغات الأوروبية.

٢ -الأدب العربى La litterature arabe، وهو كتيب صدر فى سلسلة واسعة الانتشار فى فرنسا، وقد ظهر فى تونس بترجمة رفينى بن وناس وصالح حيزم والطيب المشاش.

٣ - سبع حكايات من ألف ليلة وليلة . Septs Contes des Milles et une nuit

٤ – ترجمة «قصة عجيب وغريب»، وهى إحدى قصص ألف ليلة وليلة، وإجراء دراسة تحليلية معاصرة لها.

٥ – ترجمة قصة «ليلى والمجنون» إلى الفرنسية.

٦ – ترجمة ديوان «المعبد الغريق» لبدر شاكر السياب.

إلى جانب عشرات الدراسات والمقالات حول الأدب العربى والإسلام فى المجلات والدوريات الفرنسية.

المترجمة في سطور:

د. رشا صالح

حاصلة على الدكتوراه فى الأدب المقارن والنقد الأدبى من جامعة السربون. أستاذ الأدب المقارن والنقد الأدبى المساعد بكلية الآداب، جامعة حلوان. لها عدة أبحاث وترجمات عن الفرنسية.